التقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية
تأسست عام 1953

رئيس التحرير: د.صالح ياسر
محرر "أدب وفن": ابراهيم الخياط

المواد المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها

العدد: 384
أيلول: 2016

يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي:
alkhiatibrahim@gmail.com

اشتراك السنة 2000 :ريال يمني
(100) مائة دولار امريكي (50) خمسون دولار امريكي
.للاشتراك والاعلان

:للاشتراك والاعلان

:للتواصل

Althakafa Aljadida Magazine
Mansour Bank for Investment- Baghdad
Account No:30721
SWIFT CODE: MBIVIQBA

:البريد الالكتروني
thakafajadida@hotmail.com
:البريد الالكتروني
thakafajadida4u@gmail.com

:الموقع الالكتروني
http://www.althakafaaljadeda.com
.مجلة الثقافة الجديدة - مؤسسة المزدهر للطباعة والنشر والإعلان
.تصدر عن مؤسسة المزدهر للطباعة والنشر والإعلان
:رقم الايداع
:الترقيم الدولي

* تنشر المجلة الدراسات والبحوث والمقالات والقصص والشعر والترجمات والتقارير والحوارات والمراجعات الكتب والمتابعات الثقافية ... الخ
* تخضع المواد المنشورة للتحكيم من قبل هيئة التحرير
* يحق للمجلة نشر المواد المرسلة في أعدادها الورقية والالكترونية
* المواد المنشورة تعبر عن آراء أصحابها
* المواد المرسلة لا ترد سواء نشرت أو لم تنشر
* المجلة غير ملزمة بنشر المواد في الأعداد التي تلي تاريخ استلامها
* المجلة غير ملزمة بإعادة المواد المرسلة إليها

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5- كلمة العدد

مقالات

8- السياسة المالية العامة وسياسة الانفاق ..... ماجد الصوري
21- واقع الفقر في الريف والمدينة في العراق..... إبراهيم المشهداني
32- ماركس – انجلز المؤلفات الكاملة: البدايات والمصير..... ثامر الصفار
42- مفهوم الحقوق السياسية للمرأة وتطوره ..... جاسم هداد
56- الدستور بين المجتمع المتمدن والمجتمع المتخلف ..... محمد الهماوندي
60- قراءة في كتاب- العالم العربي بين الحداثة والماضوية لسمير أمين .... عرض: عبد الرحيم الرحوتي

نصوص قديمة

66- مع الشهيد فهد..... محمد علي الزرقة

نصوص مترجمة

82- من أرشيف الكومنترن (6) – رسائل في أرشيف الحزب الشيوعي العراقي في الكومنترن... ترجمة د.عبد الله حبه

حوارات

88- حوار مع الفيلسوف والمفكر الالماني توماس متشر

أدب وفـــــن

كلمة "أدب وفن"

100- مديات الشحن الثوري اللامنتهي في الاغنية الشعبية ..... حسين الجاف

في الحدث الادبي والفني

102- أهوارنا على لائحة اليونسكو

دراسات نقدية

103- " مثلث الموت" قراءة في رواية عراقية حديثة ..... احمد خلف

106- الفردوس المفقود في روايات علي الشوك " السراب الأحمر" مثالا .... فيصل لعيبي صاحي

117- الأشياءُ شعراً، الشعرُ أشياءً (القسم الثاني) ..... ياسين النصيِّر

شعر

128- واسط (حين تصبح الذكرى حجراً يدقّ باب القلب) ..... علي حداد

132- من الشعر الكردي المعاصر: أمازالت هناك فرصة للحياة ..... ئاوات حسن أمين

135- متابعات في الصحافة الثقافية العالمية ..... ترجمة: جودت جالي

في المناسبة

154- شنكال.. عروس الغزوات

154- المرشاوي.. يعزف بالحروف تقاسيمَ الوجع ..... صباح كنجي

لوحتا غلافي العدد: للفنان ضياء العزاوي

كلمة العدد

مغزى اغتيال المثقف..
ثماني سنوات على اغتيال كامل شياع

في 23 /8 /2016 حلّت الذكرى الثامنة لاستشهاد كامل شياع. ففي مثل هذا اليوم قبل ثماني سنوات، امتشق صهوة جواد المجد والشهادة فارس من فرسان التنوير الثقافية الوطنية والديمقراطية العراقية، بعد ان اختطفته رصاصات قتلة محترفين، يشتغلون بالقطعة ظهر يوم 23 /8 /2008. ومع ذلك "كافأه" نظام المحاصصات الطائفية – الاثنية بعد استشهاده بأن قيّد حادثة الاغتيال، كعادته، ضد مجهول رغم ان القتلة معروفون.

هكذا إذن داهمت الرصاصات الغادرة صدر كامل وهو الذي بقيَّ يراوغها بعبوره الدائم للكمائن القتالة التي هندسها فرسان الحروب العبثية، منذ تركه هدوء الغربة ورتابتها وأمانها المريب، ليكون من أوائل العائدين الى الوطن، بعد سقوط الدكتاتورية في نيسان 2003، إلى جانب أهله ورفاقه وحزبه ووطنه، حاملا دمه على راحة كفيه.

الرصاصات الغادرة لم تكن تستهدف كامل بل الرهان الذي مثله

لم تكن الرصاصات الغادرة التي أطلقها القتلة المجرمون تستهدف شخص كامل شياع. فقد كتب في أحد النصوص التي تركها قبل رحيله (عودة من المنفى): "أعلم أنني قد أكون هدفاً لقتلة لا أعرفهم، ولا أظنهم يبغون ثأراً شخصياً مني. رغم ذلك كله، أجد نفسي مطمئناً عادة لأنني حين وطأت هذا البلد الحزين سلمت نفسي لحكم القدر بقناعة ورضا. وما فعلت ذلك كما يفعل أي انتحاري يسعى إلى حتفه في هذا العالم وثوابه الموعود في العالم الآخر، فالقضية بالنسبة لي تعني الحياة وليس الموت".

ويعني ذلك ان تلك الرصاصات الغادرة كانت تستهدف الرهان الذي مثله كامل. انه رهان المثقف الذي عاش منفيا معارضا للدكتاتورية، ثم اختار العودة إلى العراق بعد سقوط الدكتاتورية والعمل من داخله وليس الوقوف متأملا ينتظر ما يحدث. انه رهان الحياة، بإزاء ايديولوجيات الموت؛ رهان الدولة المدنية الديمقراطية العصرية، بإزاء دولة المحاصصات وما يتبعها من فوضى.. رهان الديمقراطية، بإزاء الارهاب والشمولية والدكتاتورية والعسف.. رهان الوطنية العراقية الأصيلة، بإزاء ملوك الطوائف ومليشياتهم.. رهان الكلمة الحرة الهادرة، بإزاء الطلقة الخائبة المذعورة.

لقد كان الفقيد الكبير كامل شياع يرى أن على القوى المؤهلة لصناعة الغد أن تستبق دعاة حروب الطوائف ومتاريسها وتطرح مشروعها التنويري، مشروعا عابرا للطوائف يراهن على الهوية الوطنية العراقية الجامعة. ولهذا كان القتلة يترصدونه دوما، حتى نجحوا أخيرا في ان تصيبه رصاصاتهم الغادرة من كواتم صوت، يعشق القتلة استخدامها ضد خصومهم. وارتباطا بذلك فان من وقف وراء الرصاصات الغادرة كان يريد أن يقول لنا إنها أقوى منا، إنها السيدة.

التاريخ لن تكتبه الرصاصات الملثمة والجبانة

غير أن التأريخ لن تكتبه هذه الرصاصات، الملثمة، المرتزقة، الجبانة. التأريخ لن يكتبه الجلاد، كما درجت أدبيات الخنوع على أن تقول لنا، بل سيكتبه الشهداء كما يكتبه اولئك الذين يواصلون مواجهة مشاريع التدمير والإرهاب والفساد والمحاصصة، ومن أجل تحقيق المشروع الوطني – الديمقراطي والتعبئة له. ولهذا لم يحد كامل شياع قيد أنملة، عن التزامه السياسي العام، الوطني الديمقراطي اليساري، فسكن العراق وجدانه وعقله، وبقيّ يواصل نضاله بقلمه وحكمته وشجاعته في قول الحق مع المناضلين من اجل عراق حر وديمقراطي ومستقل. فوقف معهم قابضا على جمر سلاحه/ القلم لتحقيق الأهداف الكبيرة والنبيلة. ولذلك خسر حملة المشروع الوطني الديمقراطي المقاوم لنظام المحاصصات كثيرا برحيل كامل.

لقد خاب رهان القتلة.. فما زالت الشعلة متقدة

ورغم تلك الخسارة الكبيرة برحيل مثقف عضوي كبير، فقد خاب رهان القتلة وأسيادهم عندما راهنوا على الطلقات لإسكات صوت المثقفين، وكسر شوكتهم وإقصاء مشروعهم ومنع تحقيقه. ان تلك الطلقات لم ولن تثبط العزائم بل زادتها وستزيدها اصرارا وقوة للنضال ضد الغلط. وعلى عكس ما راهن عليه تجار الموت فإن اغتيال الشهيد كامل، برغم حجم الخسارة، خلق ديناميكية كبيرة لصعود المشروع الذي ربط مصيره به كرافعة للتغيير، ومن الضروري المحافظة على وتيرة ايقاع هذه الديناميكية وترقيتها باستمرار وإثرائها بأشكال جديدة. فبعد سنوات من استشهاده ها هي رياح التغيير التي اطلقتها الحركة الاحتجاجية، التي مرت قبل اسابيع الذكرى السنوية الاولى لانطلاقتها، تتصاعد وتتجذر مطالبها وتتصاعد موجاتها.. وتتسع قاعدتها المجتمعية وتدخلها قوى جديدة متنوعة المشارب والمرجعيات، وتتجذر مطالبها ويرتفع سقفها. والعنصر الجديد هو تنامي دور المثقفين ليبلغ مرحلة التنظيم والتأطير، حيث الجهود تتواصل لعقد "مؤتمر صناع الرأي"، من أجل تشكيل النواة الأولى من المتعاطفين من النخب وصانعي الرأي مع الحراك الجماهيري، الامر الذي يستدعي التفاعل مع هذا النشاط بهدف تنشيط دور الشرائح الاجتماعية (على تنوع مشاربها) ذات المصلحة بالحراك الاجتماعي، وان يمتد هذا النشاط الى مختلف المحافظات خصوصا بعد عقد مؤتمر الشباب ومؤتمر النساء.

سيظل المثقف واحداً من صنّاع حلم العراق الجديد

لقد أحيا اغتيال كامل شياع النماذج النمطية التي شهدتها أماكن مختلفة في العالم من استهداف للمثقف وتغييب لصوته. غير أن المثقف سيبقى، بإصرار، واحداً من صنّاع حلم العراق الديمقراطي لا عراق المحاصصات والحروب والقيامات ومتاريس المتحاربين.

بعد ثماني سنوات من استشهاد كامل شياع لا خيار سوى التمسك بخط الراحل ورهاناته الإنسانية والوطنية والديمقراطية، ولا بد من المواصلة دون كلل او ملل من اجل مواجهة الرسالة التي أراد القتلة إيصالها، والتي حاولت وتحاول أن توصل المثقف إلى إعلان استقالته عن الدفاع عن مصالح شعبه الكبرى، لـ "يبزغ" نهار ملوك الطوائف والهويات الفرعية المتقاتلة من اجل اعادة اقتسام السلطة والثروة والنفوذ.

لقد كان الشهيد كامل صادقا تماما حين قال: "اخترت ان أمشي بين الرصاصة والأخرى، لعلي أخفف من جراح الوطن".

لذا لن يموت رهان كامل شياع لانه رهاننا جميعا، فروحهُ ومُثلهُ وقيمهُ وزهدهُ ونزاهتهُ ستبقى معنا على الدوام، وستلهم الحركة الاحتجاجية والأجيال الجديدة على مواصلة النضال بعزيمة وقوة حتى يندحر القتلة والفاسدون وسرّاق المال العام، وينبلج ضوء وطن آخر.. وطن لكل ابنائه وبناته، قائم على اساس المواطنة والعدالة الاجتماعية والديمقراطية والكرامة.

مقـــــالات

السياسة المالية العامة وسياسة الانفاق

الدكتور ماجد الصوري

الدكتور ماجد الصوري خبير مالي واقتصادي، حاصل على شهادة الدكتوراه في معهد الاقتصاد الوطني في موسكو، عمل خبيرا اقتصاديا في "الاتحاد العربي للحديد والصلب"، ومدير المكتب الاقليمي في بيروت، وخبير في "الشركة العربية للتعدين" في الاردن، ومدير "مصرف البركة" في كازاخستان، ومستشار في البنك المركزي عام 2005، وفي "البنك الدولي لإعادة هيكلة المصارف" عام 2009، عضو مجلس إدارة البنك المركزي.

لقد مر العراق بمراحل مختلفة في سياسته المالية العامة، تبعا للمراحل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي مر بها. وتبعا لذلك تغيرت معايير السياسة المالية والإجراءات المتعلقة بتنظيم الموازنة، وطرق إعدادها والمؤسسات ذات العلاقة، المسؤولة عن اعدادها وتنفيذها والرقابة عليها. ان مفهوم السياسة المالية بشكل عام يشمل طريقة واليات واجراءات اعداد الموازنة وتنفيذها والرقابة على التنفيذ وربطها بالمؤشرات الاقتصادية الكلية، اضافة الى السياسات الضريبية، وادارة الدين العام، وكل ما يتعلق بمصادر الايرادات واوجه النفقات وادارة المؤسسات التي لها علاقة بالإيرادات والنفقات.

السياسة المالية في العهد العثماني

اسس الحكم العثماني نظاما ضريبيا واسعا يمتد على مدى الامبراطورية العثمانية لتمويل موظفيها من المدنيين والعسكريين. وكانت وحدات واجراءات جباية الموارد المالية، ووحدات وإجراءات الصرف، كل منها مرتبط بقيادة معينة في مركز الحكم في القسطنطينية. لقد اسس العثمانيون على الاقل خمس قنوات مستقلة لادارة الموارد المالية، بالاضافة الى جباية الموارد العامة من حوالي عشرين ضريبة على الارض والمحاصيل الزراعية، يتم توجيهها الى الاستانة (العاصمة). وقامت الامبراطورية العثمانية بتأسيس جهاز مالي يمتد الى أقصى نقطة في الولايات التي يحكمها الوالي، ويقوم الدفتردار في إدارة الشؤون المالية في الولاية، ويتم تقسيم الولاية من الناحية الادارية والمالية الى سناجق أو مقاطعات يحكمها الحكمدار، وكل سنجق الى نواحي يحكمها الاغا، وكل ناحية الى أحياء وحارات يرأسها المختار. وقام الاتراك بجباية الضرائب بشكل مباشر من الخاضعين لها بواسطة التحصيل دار، وتذهب حسب التسلسل الاداري حتى تصل الى الدفتردار. والقسم الاعظم منها يذهب الى المركز في الاستانة. واستخدم

الاتراك نظام اللزمة في جباية الضرائب على الاراضي، وفرضوا الضرائب المباشرة وغير المباشرة على الاقتصاديات الزراعية. وكان يتم تقييم الضريبة عن طريق مساحة الارض وعدد الاشجار والحيوانات والمنتجات، كما كانوا يطلبون الرخص والاجازات ويفرضون الرسوم وجبايات أخرى مختلفة. لقد قام الاتراك بفرض الضرائب وجباية الرسوم على كل ما تصل اليه يدهم، فقط الهواء الذي يتم تنفسه لم يخضع للضريبة.

كانت الحكومة العثمانية قد اقترضت من المصادر الاوربية من عام 1854، ما بعد حرب القرم، وفشلت في تنفيذ التزاماتها عام 1875، مما أجبر السلطان عبد الحميد، الذي حكم من عام 1876 وحتى 1909، بتخصيص ربع موارد الحكومة لادارة الدين العام العثماني. وقد أدى ذلك الى إحكام قبضته على إدارة المالية العامة، وفي نفس الوقت وضع قيودا على الانفاق وخصوصا في الولايات. وكان الدفتردار وبقية المسؤولين الماليين يقدمون تقاريرهم مباشرة الى السلطان. وعلى ضوء السيطرة المركزية على الاموال، قام السلطان بتقييد استخدام الاموال الحكومية في العراق في تقديم الخدمات العامة وتطوير البنى التحتية، وكانت ثلثا الاموال المخصصة للبصرة وبغداد والموصل تنفق على قوى الجيش والامن. ورغم أن كل التقارير القادمة من العراق الى السلطان تؤكد حاجة العراق لتنفيذ مشاريع البنى التحتية المتعلقة بالري وشبكات تصريف المياه وقنوات المياه والمجسرات والسكك الحديدية، الا ان السلطان كان يرفض هذه الطلبات بحجة عدم كفاية الاموال، والتقارير الاخرى التي كانت تصله عن الفساد والرشاوى وضعف ادارة الاموال العامة، بما في ذلك التأخر في تسديد الرواتب.

السياسة المالية قبل عام 1958

بعد حرب استمرت من عام 1915 وحتى عام 1918 وبعد أن سيطروا على العراق، بدأ البريطانيون بتركيز إدارة الموارد المالية وتجميعها في المناطق التي يسيطرون عليها، عن طريق مجلس الموارد، الذي كان بمثابة وزارة المالية، وبداية الطريق لتأسيس الوزارات حسب الضرورة وتوفر الكوادر المناسبة. وتتمثل مهام مجلس الموارد بإعداد الموازنات، وتنظيم السجلات المحاسبية ومراقبة النفقات. وقام المجلس بتوزيع موظفي المالية على المواقع العثمانية التي تمت السيطرة عليها، الالوية، المناطق وتفرعاتها، القرى، لجباية الضرائب ومطابقة الموارد مع النفقات، وخلال فترة الاحتلال، كان فائض الموازنة يتزايد حتى وصل رقم العوائد الى 900 مرة أكثر من النفقات. حيث لم يكن لدى البريطانيين القدرة على تنفيذ الموازنة، عدا ما يتم دفعه من رواتب واجور وبعض النفقات الجارية الاخرى، بسبب عدم توفر الكوادر والخبرة المناسبة لدى العسكريين، لادارة الامور المدنية لا سيما المالية.

شهد عام 1920 صعوبات مالية كبيرة بسبب إنتفاضة الشعب العراقي ضد الاحتلال البريطاني (الثورة العراقية الكبرى)، ما أدى إلى عرقلة جباية الضرائب، وزيادة النفقات الى حوالي ثلاثة أضعاف. وفي عام 1920 تم تعيين المندوب المدني (المندوب السامي)، الذي قام بادارة جميع النشاطات المالية في العراق. وكان المندوب المدني يعمل من خلال الامانة المالية، التي تقوم بادارة الموازنة وتطوير الانظمة المالية وتحضير الحسابات وادارة الخزانة، ومن خلال امانة الموارد، التي تقوم بإدارة جميع

الموارد عدا الموارد الكمركية، التي تقع تحت إدارة أمانة الكمارك والتابعة للمندوب السامي.

وبعد تسنم الملك فيصل الاول لمهامه عام 1921، قام بتأسيس أول مجلس وزراء، بما في ذلك تأسيس أول وزارة مالية على قاعدة الامانة المالية البريطانية. وقد عين الملك اول وزير للمالية، وهو ساسون حسقيل أفندي. وفي عام 1924 أصدر وزير المالية مجموعة تعليمات جديدة لانظمة المحاسبة الدفترية، التي أعدها وطورها المحاسب العام، والتي ضمنت لوزارة المالية حصرا الحق في اصدار التعليمات التي تحكم العمليات المالية التي تجري بين وزارات الحكومة والوحدات الاخرى. وفي عام 1925، وبضغط من الحكومة البريطانية، أقر العراقيون أن تكون ضريبة الدخل تحت مسؤولية وزارة المالية. وفي عام 1932 تم اصدار الدينار العراقي. وكانت واردات العراق في هذا العام تتكون من: الرسوم الكمركية: 36.5%. الزراعة: 22.3%. الرسوم على المبيعات المحلية للنفط: 9%. الضريبة على المواشي والدواجن: 7%. رسوم الطابع: 2.7%. الضريبة على الاملاك: 2.5%. ولم تشكل واردات الضريبة على ملكية النفط (رويالتي) الا 0.3%. وبعد القيام بتصدير النفط عام 1934، قامت شركة تطوير النفط البريطانية وشركة النفط العراقية بدفع 595 الف باون استرليني للخزينة العراقية، وبهذا اعطيت الاشارة لولادة العراق دولة نفطية.

في 28 تشرين الثاني من عام 1940 صدر قانون اجراءات المحاسبة العامة، الذي أشار الى معايير تحضير الموازنة، ووضع قواعد واجراءات المحاسبة الحكومية، وأوضح اجراءات ومسؤوليات التدقيق، واعتمد السنة المالية من الاول من نيسان وحتى 31 اذار. واكد القانون على تركيز اعداد الموازنة وادارتها في وزارة المالية. وتتمثل اجراءات اعداد الموازنة، بان تقوم وزارة المالية بجمع المعلومات عن الواردات والنفقات التقديرية من الوزارات في نهاية تشرين الاول من كل سنة، وتقوم بتقييمها وتعديلها وبتحضير الموازنة العامة للدولة، وبعدها تقوم بتقديمها الى مجلس الوزراء لدراستها واقرارها، وبعد ذلك تقدم الى مجلس النواب من اجل اقرارها بشكل نهائي. وقد وضع القانون نظاما شاملا لعمليات المراجعة والتدقيق، ومتطلبات اعداد التقارير، مع وجود تواقيع مصادق عليها، على أن يتم تدقيق جميع الحسابات في نهاية كل سنة. ولا يجوز صرف أي مبلغ بدون سند صرف موقع ومصادق عليه. كل هذه الاجراءات وضعت الاسس الحديثة في ذلك الوقت لتنظيم اجراءات المالية العامة والسياسة المالية، التي ما زالت اسسها باقية حتى الان.

ان اكثر الخطوات أهمية في السياسة المالية في العهد الملكي هو استحداث مجلس الاعمار بسبب زيادة الموارد النفطية، وتخصيص كل الموارد النفطية، في البداية، لتنفيذ مشاريعه بعيدا عن التدخلات السياسية، وتأثيرات الفساد. وبعد سنتين تم تخفيض التخصيصات الى مجلس الاعمار الى 70% من الموارد النفطية، والباقي خصص لمساندة نفقات بقية الوزارات. وقد ارتفعت الموارد النفطية من 29 مليون دينار عام 1950 الى حوالي 100 مليون دينار عام 1957. وفي عام 1953 تم استحداث وزارة الاعمار واضافة وزيرها الى عضوية مجلس الاعمار، الذي كان يتألف من رئيس

الوزراء ووزير المالية وستة خبراء، من ضمنهم خبيران بريطاني وامريكي. وقد بلغت نفقات مجلس الاعمار من عام 1951 وحتى عام 1958 حوالي 229 مليون دينار، وجهت نحو المشاريع العمرانية والبنى التحتية الكبيرة. وبلغت نفقات المجلس في عام 1957 وحده حوالي 75 مليون دينار. وقد شكلت العوائد النفطية عام 1956 حوالي 23% من الدخل الوطني، و92% من الصادرات، و40% من اجمالي ايرادات الموازنة العامة.

السياسة المالية خلال الفترة 1958 - 2003

بعد ثورة تموز 1958، تم استحداث وزارة التخطيط بدلا من مجلس الاعمار، والتي قامت بالتعاون مع وزارة المالية باعداد الموازنة السنوية، وتم دمج كل الموارد النفطية بالموازنة العامة. وفي فترة حكم الزعيم عبد الكريم قاسم تم الخروج من منطقة الاسترليني وتأميم الاراضي غير المستغَلة من قبل شركات النفط. وكان هناك توجه كبير للاعمار في العراق، وتم توزيع الاراضي على المزارعين، والقضاء على الاقطاع. ولم يكن هناك اي تغيير يذكر عن السابق في طريقة اعداد الموازنة العامة للدولة. وقد تم التخلص او التخفيف من الكثير من الضرائب التي كانت تفرض على القطاعات المختلفة، وقد شملت عملية التنمية كلا من القطاعين العام والخاص. ومع ذلك لم تكن هناك شفافية في طريقة اعداد وتنفيذ الموازنة. وبعد انقلاب عام 1963، عمت الفوضى في القضايا المالية، ولم يكن هناك أي التزام بحدود النفقات، ولم يتم اعداد موازنة للدولة، وغلبت عليها الاجراءات الارتجالية التي لا يتم تسجيلها، وبالتالي لم تخضع للتدقيق. وفي عام 1964 قامت الحكومة بتأميم مشاريع القطاع الخاص واصبحت الدولة تمتلك المشاريع الانتاجية الكبيرة والمتوسطة وتقوم بتمويلها، وبذلك تم اعداد الموازنات وتحديد بنود نفقات وايرادات هذه المشاريع خارج الموازنة الحكومية. ومنذ عام 1968 وحتى عام 2002، كان الحكم الشمولي المركزي والسيطرة السياسية المركزية، ومن ثم سيطرة الحزب الواحد، وبالتالي الشخص الواحد على العراق، ومن ضمنها الامور المالية. واصبحت السنة المالية تبدأ في الاول من كانون الثاني وتنتهي في نهاية كانون الاول. وقد اعتمد العراق في وقتها النظام الرأسي في اتخاذ القرارات المالية، وتجزئة المؤسسات، والسرية التامة في اعداد الموازنات. وتقوم وزارة المالية في حزيران من كل سنة بتوجيه رسالة الى بقية الوزارات تطلب فيها تقديم موازناتهم التشغيلية في تشرين الثاني. وتقوم باعداد الموازنة التشغيلية للحكومة، والتي لا تتجاوز عادة 8% من اجمالي الموازنة الحكومية. وتقوم وزارة التخطيط باعداد وتنظيم الموازنات المتعلقة بالنفقات الرأسمالية وتنفيذ الخطط الحكومية الاقتصادية، طويلة وقصيرة الامد، بالتعاون مع وزارات الدفاع والنفط والصناعة والزراعة. وتقوم الوزارات المعنية بتقديم طلبات مشاريعها الراسمالية الى وزارة التخطيط لتضمينها في الموازنة العامة للحكومة. وفي عام 1995 قام صدام حسين بتأسيس لجنة الشؤون الاقتصادية، وكان لها سلطة واسعة على السياسة الاقتصادية في العراق، بما في ذلك اعداد الموازنة والتحكم بالسياسة المالية والسياسة النقدية وادارة الاحتياطي

النقدي. وكان وزير المالية يرأس اللجنة الاقتصادية وعضوية وزارات الزراعة والصناعة والمعادن والنفط والتخطيط، ووزارة التجارة، اضافة الى محافظ البنك المركزي. فبعد أن يتم اعداد الموازنة من قبل وزارتي المالية والتخطيط، كلا حسب يتعلق بقسمها من الموازنة الحكومية العامة، تقدم كمقترحات الى اللجنة الاقتصادية لاقرارها. وبعدها تقدم الى مجلس الوزراء ومن ثم الى مجلس قيادة الثورة، وبالتالي الى رئاسة الجمهورية للتوقيع. وعلى مستوى الرئاسة يتم تقديم الموازنة الى مكتب الرئاسة، عدا النفقات المتعلقة بالمخابرات واجهزة الامن السرية، التي تتطلب الاهتمام الخاص من قبل صدام وتوقيعه، والتي تكون خارج اجراءات الموازنة. ويتكون مكتب الرئاسة من الامانة العامة للرئاسة، وديوان الرئاسة، الذي تم تأسيسه عام 1979، لتقديم البحوث والمساندة الادارية. ويدخل تحت اختصاصها ادارة الحسابات المالية التي تقوم بالمراجعة النهائية للموازنة من اجل تقديمها الى صدام لإقرارها بشكل نهائي، بما في ذلك طلبات الوزارات الاضافية خارج اطار اجراءات الموازنة السنوية.

ويبين الجدول رقم (1) واردات الموازنة الحكومية والنفقات التشغيلية للسنوات 1988 - 2002، مع العلم أن بعض الارقام غير متوفرة حتى لوزارة المالية، ولم يتم نشر أي موازنة عراقية، ولم يكن بالاستطاعة معرفة كيف يجري تجميع الموارد المالية، وكيف تتم التخصيصات، فاغلب النفقات الحكومية كانت تتم من قبل المكاتب المرتبطة بالرئاسة، وهناك نفقات كثيرة خارج نطاق الموازنة. وقد قام نظام صدام بعسكرة الانتاج والمجتمع، واقحم العراق بحروب عبثية استهلكت كل موارد العراق المالية، فبعد أن كان الفائض المالي بحدود 39 مليار دولار قبل دخول الحرب مع ايران (عام 1980 – المحرر)، أصبح العراق مدينا بعد الحرب.

جدول رقم (1)

واردات الموازنة الحكومية والنفقات التشغيلية للسنوات 1988 - 2002 (مليار دينار)

السنة	الواردات النفطية	وغير النفطية	المجموع	النفقات الجارية
١٩٨٨	١.٦	٥.٤	٧.٠	١٠.٦
١٩٩٠	١.٣	٥.٦	٦.٩	١١.٤
١٩٩٥	٠.٤٧٩	٨٧.٤	٨٧.٨٧٩	٦٠٥.٨
١٩٩٦	٥.٧	١٥٣.٦	١٥٩.٣	٥٠٦.٨
٢٠٠١	غ.م	١٠٨٠	---	١٤٩٠.٩
٢٠٠٢	غ.م	١٥٧٠	----	١٧٦٢.٧

المصدر: نشرات وزارة المالية

وبعد غزو الكويت (2 اب 1990 – المحرر) وفرض الحصار على العراق، وفرض برنامج النفط مقابل الغذاء عام 1996، بلغت المطالبات على العراق بحدود 348 مليار دولار، بما في ذلك مبالغ دول الخليج التي اعطيت الى العراق خلال الحرب الايرانية العراقية، وتعويضات الكويت.

السياسة المالية عام 2003 حتى 2016

بعد سقوط الصنم تم جرد الديون المتبقية على العراق، وبعد تسوية الكثير منها، إما لعدم شرعية المطالبة بها، أو بقيام نظام صدام بتسديدها، حيث بلغت بحدود 125 مليار دولار، منها:
51.646 مليار دولار ديون دول نادي باريس، و9.862 مليار دولار لدول خارج نادي باريس، و4.859 مليار دولار لدائنين تجاريين في القطاع الخاص، تقل مطالبات الواحد منهم عن 35 مليون دولار، و13.948 مليار دولار لدائنين تجاريين تزيد مطالبات الواحد منهم عن 35 مليون دولار، اضافة الى ديون بعض الشركات اليابانية الخاصة التي بلغت 437.3 مليون دولار. ولم يتم الافصاح عن الديون الاخرى لدول الخليج، وبالذات السعودية التي ترفض حتى الان تسوية ديونها على العراق. وفي عام 1991 تم تقدير تعويضات العراق عن الاضرار التي الحقها بالمنشآت النفطية الكويتية بمبلغ 52.4 مليار دولار، قام العراق بتسديد 47.8 مليار دولار منها، من عام 1991 وحتى شهر تموز 2015، والرصيد الباقي من الدين وقدره 4.6 مليار دولار تم تأجيله لعام 2017.

بعد اسقاط نظام صدام، كان العراق بحاجة الى بناء مؤسسات الدولة، ومنها وزارة المالية وضرورة اعادة النظر بالسياسة المالية ومنها:

اولا: سياسة الموازنة وإدارتها، وتتضمن:

1- اعادة النظر بقواعد واجراءات تنظيم الموازنة، وتطوير جهاز اداري محترف، متفهم لمتطلبات المرحلة؛
2- العمل على تنظيم توقعات الايرادات والنفقات بشكل مدروس، ويستجيب لمتطلبات التنمية الاقتصادية والاجتماعية، مع تطوير ادارة السيولة المالية؛
3- بناء الحسابات واجراءات التدقيق على اسس حديثة معترف بها دوليا، تنسجم مع متطلبات البناء الديموقراطي للعراق، وتطوير استخدام التكنولوجيا الحديثة والبرامج الحاسوبية.

ثانيا: اعادة النظر بالسياسة الضريبية وإدارتها، وتتضمن:

1- تنظيم القوانين والقواعد الضريبية؛
2- تطوير نظام الالتزام الضريبي ونشر الثقافة الضريبية؛
3- تطوير اجراءات حل النزاعات وادارتها.

ثالثا: تطوير المؤسسات المصرفية والمالية، وهذا يتضمن:

1- تطوير القوانين والانظمة الحاكمة؛
2- تطوير انظمة المدفوعات في الداخل وفي العلاقات الخارجية، وتقليل الاعتماد على استعمال النقود؛

3- تطوير نظام الاشراف والرقابة على المصارف؛

4- اعادة هيكلة المصارف والانظمة والمؤسسات الساندة مثل نظام ضمان الودائع وضمان القروض، وغيرها من الانظمة والمؤسسات الساندة الاخرى.

رابعا: العمل على الالتزام بتنفيذ القوانين والأنظمة الحاكمة من أجل محاربة الفساد وغسل الاموال، وتمويل الارهاب، والجريمة المالية المنظمة، والاحتيال المالي، والتلاعب بالأوراق المالية.

ويعتبر نظام إدارة المعلومات المالية الاساس في الادارة الرشيدة للسياسة المالية وادارة اموال العراق، حيث يستطيع هذا النظام توفير الصلة اللازمة بين الكيانات المالية المرتبطة بالحاسوب، الذي يقوم بنقل المعلومات المالية والضريبية اولا باول. وبذلك تتمكن الحكومة من تنظيم سجلاتها في حساب خزينة واحد وتوزيع الاموال مركزيا، وسيؤدي بالتالي الى تقوية ادارة وزارة المالية للاموال وللتدفق النقدي، بدلا من الحسابات المتفرقة للمخصصات عن طريق المصارف المختلفة الذي كان متبعا في فترة حكم صدام. ان نظام ادارة المعلومات المالية يعمل على الاسراع في اعداد الموازنة، وتطوير سياسة مالية متينة، وتنفيذ ادارة الدين العام، وتطوير الشفافية ومحاربة الفساد وهدر الاموال، وتطوير مصداقية الحسابات التي ستعمل على تصنيف جميع بنود الموازنة من حيث الايرادات والنفقات، وتطوير نظام اكثر كفاءة للمشتريات، وتحقيق نظام فعال للتدقيق الاني على الاموال الحكومية.

في آذار 2005 اعلنت شركة بيرنك بوينت، المتعاقدة مع (سلطة الائتلاف)، على ان خادم ادارة المعلومات المالية قد تم نصبه، وهو جاهز للعمل والربط مع جميع المؤسسات ذات العلاقة بالموازنة، ومن المخطط انجازها في نهاية نيسان من نفس السنة، مع قدرة على الاتصال بواسطة الانترنيت. إلا أن الخلافات التي حصلت حول كفاءة البرنامج وملاءمته للظروف العراقية ومقاومة من العاملين للبرنامج ادت الى فشل استخدام هذا النظام. وبذلك بقيت الاجراءات الورقية هي التي تحكم اعداد الموازنة وتنفيذها والرقابة على تنفيذها.

لقد اكد الدستور العراقي، ان من مسؤوليات الحكومة، اعداد الموازنة وخطط التنمية الاقتصادية، اضافة الى تقديم الحسابات الختامية. واكد قانون الادارة المالية والدين العام الرقم 95 لسنة 2004 المعدل، الذي ينسجم مع متطلبات المعايير الدولية، على ايقاف العمل بقانون 107 للعام 1985 بشان اعداد الموازنة الحكومية الموحدة، المعدل بالقانون رقم 48 للعام 1990 والقانون رقم 20 للعام 1940 بشان مبادئ المحاسبة العامة، في ما يتعلق بالسنة المالية 2004 وما بعدها. وقد حدد القانون اجراءات وتواريخ اعداد الموازنة وتقديمها، وتقديم الحسابات الختامية والتقارير الدورية. واكد القانون في قسمه السادس اولا، ان يقوم اعداد الموازنة الفدرالية على خطط

التنمية الاقتصادية، وتقوية الوضع المالي للعراق والسعي وراء استقرار الاقتصاد الكلي، وتقليل التذبذب في نفقات الحكومة. وحدد مسؤولية تنفيذ الموازنة بوزير المالية. وللأسف الشديد فانه لم يتم الالتزام الا بجزء من هذه الاجراءات والانظمة والقوانين من قبل (سلطة الائتلاف) ومن قبل الحكومات العراقية المتعاقبة.

سياسة الانفاق بعد عام 2003

لقد كان وضع العراق مأساويا من جميع النواحي الاقتصادية والاجتماعية بعد سقوط صدام واعلان الاحتلال الامريكي للعراق. ولم يكن لدى المعارضة العراقية التي انضمت الى (مجلس الحكم) في عهد الاحتلال الامريكي، ولا امريكا والدول المتحالفة معها، أي برنامج لاعادة بناء العراق، وخصوصا من الناحية الاقتصادية، ولم يكن لدى العراقيين أو الامريكان معلومات حقيقية ومتكاملة عن الوضع الاقتصادي في العراق، بسبب غياب الوثائق المساندة. ولذلك تم القيام بخطوات ارتجالية من أجل حل بعض المشاكل الاقتصادية، وخصوصا مسألة رواتب الموظفين والمتقاعدين. حيث ارسل البنك الفدرالي الامريكي خلال الفترة 2003–2004 الى العراق ما يعادل 11.981 مليار دولار نقدا من اموال العراق، وتم توزيعها من قبل سلطة الاحتلال على الوزارات والمحافظات، كرواتب للموظفين والمتقاعدين، ولم يتم الاحتفاظ بسجل متكامل حول كيفية استخدامها. وكان يجب اعادة بناء المالية العامة في العراق من اجل ترشيد النفقات، وتوسيع قاعدة الموارد المالية، وتعزيز دور وزارة المالية في اعداد السياسة المالية والموازنة الحكومية. وهذا يتطلب اجراء الجرد الكامل للموارد المالية واحتياجات البنى التحتية وتقدير متطلبات السلع والخدمات العامة وتنمية القطاعات الانتاجية العامة والخاصة، واعادة بناء الجهاز الاداري والمؤسسات الحكومية. الا ان كل ذلك لم يتحقق بسبب سياسة الانفاق التي اتبعتها سلطة الاحتلال والحكومات العراقية المتعاقبة. وقد اسرعت سلطة الاحتلال إلى اعداد موازنة للفترة المتبقية من العام 2003، والتي تغطي الفترة من تموز ولغاية نهاية كانون الاول للعام 2003، وموازنة عام 2004، كما هو في الجدول رقم (2). ان المشكلة الاساسية التي واجهت اعداد الموازنة، هي غياب قاعدة المعلومات الاساسية التي بنيت عليها الموازنات السابقة، من اجل تحديد ايرادات ونفقات السنة القادمة.

ومن اجل تسديد العجز في الموازنة تم استخدام 1.7 مليار دولار من اموال الحكومة العراقية المجمدة في المصارف الامريكية، و2.5 مليار دولار من ممتلكات صدام المجمدة، و1.2 مليار دولار من صندوق تنمية العراق و2.475 من المساعدات الامريكية التي تتم ادارتها من قبل برنامج المساعدة الامريكية. ولم تكن هناك اجراءات محاسبية دقيقة لتنفيذ الموازنتين ولا حسابات ختامية في وقتها المحدد، من اجل معرفة النتائج

جدول رقم (2)
موازنات 2004-2003 (ترليون دينار)

النفقات	٢٠٠٣	٢٠٠٤	٢٠٠٤ بعد المرجعة
التشغيلية	٧.٣٦٢	١٩.٠٢٧	٢٥.٤٣٢
الاستثمارية	١.٨٧٠	١.١١٨	٣.٧٩٧
اجمالي النفقات	**٩.٢٣٢**	**٢٠.١٤٥**	**٢٩.٢٢٩**
الايرادات			
النفط	٤.٠٩٧	١٨.٠٠٠	٢١.٢٦٢
القطاع العام	٠.٣٣٨	٠.٥٦٣	--------
ضريبة اعادة الاعمار	-------	٠.٤٥٠	٠.١٧٣
الرسوم	-------	-------	٠.٠٠٣
تقاعد الموظفين	-------	--------	٠.١٠١
ايرادات اخرى	٠.١٦٢	٠.٢٣١	٠.١٨٩
اجمالي الايراد	**٤.٥٩٦**	**١٩.٢٥٩**	**٢١.٧٢٩**
(العجز)	**(٤.٦٣٦)**	**(٠.٨٨٦)**	**(٨.١٦١)**

المالية والاقتصادية الكلية. ولم تتم متابعة تنفيذ بنود الموازنة الاستثمارية لا من الناحية المالية ولا من ناحية حجم المشاريع المنفذة ولا من ناحية علاقتها بالاقتصاد الكلي في العراق. وكان هذا مدعاة لاستشراء الفساد المالي والاداري في النظام الجديد.

لقد كان الهدف الاساسي لسلطة التحالف وللحكومات العراقية المتعاقبة هو زيادة الانفاق، وتم وضع بنوده بشكل غير مدروس، ولم يتم ربطه بخطط التنمية الا شكليا. فقد انفقت سلطات التحالف خارج اطار الموازنة الحكومية، وهذا مخالف لكل اجراءات وانظمة الموازنة التي تم وضعها من قبل سلطة الاحتلال نفسها، حسب تقرير المفتش العام لاعادة اعمار العراق، 51.624 مليار دولار (كان المخصص من قبل الحكومة

الامريكية 60.644 مليار دولار تم الالتزام بعقود 55.187 مليار دولار). وذلك خلال الفترة من عام 2003 وحتى ايلول عام 2012 ولم يتم متابعة انفاق هذه المبالغ، ومدى تأثيرها على الوضع الاقتصادي والمالي في العراق، ولا حتى على اعادة بناء مؤسسات الدولة. وقد علق السفير الامريكي على هذه المبالغ بقوله (ان اموال اعادة البناء الامريكية التي خصصت لبناء العراق لم تكن فعالة، ولم نحصل كثيرا مقابل ما تم انفاقه من مبالغ تتجاوز 50 مليار دولار). وحتى ان الكثير من المشاريع التي تم انجازها من قبل سلطة التحالف لم يتم تسجيلها في موجودات العراق.

لقد توجهت الحكومات المتعاقبة في العراق بعد عام 2003 الى زيادة حجم الجهاز الاداري الى درجة كبيرة بسبب المحاصصة السياسية والطائفية والعرقية من اجل جمع الاصوات للانتخابات، بحجة التخفيف عن البطالة المتفشية ومكافحة الفقر. حيث ارتفع عدد العاملين في الدولة من حوالي 850 الفا عام 2003 الى حوالي 4.5 مليون عام 2015 بما فيهم العاملون في القطاع العام. وبسبب تسريح الجيش وعدد كبير من الموظفين واحالة جزء كبير منهم الى التقاعد ارتفع عدد المتقاعدين الى حوالي 3 ملايين متقاعد حسب تصريحات بعض المسؤولين. لقد ارتفعت تعويضات الموظفين من حوالي 2.4 تريليون دينار عام 2003 الى 8.212 تريليون دينار عام 2006 والى 28.753 تريليون دينار عام 2010 وتعدت الـ 40 تريليون دينار عام 2016 حسب تصريحات المسؤولين. ان الزيادة الهائلة في تعويضات الموظفين لا تعود الى زيادة عددهم وانما الى زيادة الرواتب والتخصيصات لفئات كثيرة من الموظفين وخصوصا بالنسبة للدرجات العليا والمحسوبين عليهم والمنسوبين اليهم. ان التضخم في الجهاز الاداري كان ناجما عن سوء الادارة والاوضاع السائدة بسبب المحاصصة الحزبية. فقد ارتفع عدد الوزارات الى 32 وزارة لمجرد ارضاء بعض الاطراف السياسية التي اصرت على مساهمتها في الحصول على الوظائف العامة. ورغم انه تم تخفيض عدد الوزارات بعد فترة قصيرة الا ان رواتب الوزراء بقيت على حالها حسب القانون. لقد ارتفعت تخصيصات الموازنة للنفقات التشغيلية من 8.736 تريليون دينار عام 2003 الى 61.282 تريليون عام 2008 ووصلت الى اعلى مستواها عام 2014 حيث بلغت 98.793 تريليون دينار. لقد بلغت اجمالي تخصيصات الموازنة الاتحادية خلال الفترة 2003 – 2016، (2016 من ضمنها) 1156.752 تريليون دينار او (ما يعادل 963.960 مليار دولار). انظر جدول رقم (3).

جدول رقم (3)

الموازنات العراقية المصادق عليها للاعوام 2003 - 2016 (ترليون دينار)

السنة	النفقات		الاجمالي	الايرادات	الفائض او (العجز)
	التشغيلية	الاستثمارية			
٢٠٠٣	٨.٧٦٣	٠.٣٨٥	٩.١٤٨	٥.٨٣٠	(٣.٢١٨)
٢٠٠٤	٢٥.٤٣٢	٣.٧١٧	٢٩.١٤٩	٢١.٧٢٩	(٧.٤٢٠)
٢٠٠٥	٢٨.٤٣١	٧.٥٥٠	٣٥.٩٨١	٢٨.٩٥٨	(٧.٠٢٣)
٢٠٠٦	٤١.٦٩١	٩.٢٧٢	٥٠.٩٦٣	٤٥.٣٩٢	(٥.٥٧١)
٢٠٠٧	٣٩.٠٦٢	١٢.٦٦٥	٥١.٧٢٧	٤٢.٠٦٤	(٩.٦٦٣)
٢٠٠٨	٦١.٢٨٢	٢٥.٣٣٥	٨٦.٦١٧	٨٠.٤٧٦	(٦.١٤١)
٢٠٠٩	٥٤.١٤٨	١٥.٠١٧	٦٩.١٦٥	٥٠.٤٠٨	(١٨.٧٥٧)
٢٠١٠	٦٠.٩٨١	٢٣.٦٧٦	٨٤.٦٥٧	٦١.٧٣٥	(٢٢.٩٢٢)
٢٠١١	٦٦.٥٩٦	٣٠.٠٦٦	٩٦.٦٦٢	٨٠.٩٣٤	(١٥.٧٢٨)
٢٠١٢	٩٧.٩٤٥	٣٧.١٣٧	١١٧.٠٨٢	١٠٢.٣٢٧	(١٤.٧٥٥)
٢٠١٣	٨٣.٣	٥٥.١٢٥	١٣٨,٤٢٥	١١٩.٢٩٧	(١٩.١٢٨)
٢٠١٤	٩٨.٧٩٣	٦٢.٩٠٣	١٦١.٦٩٦	١٣٩.٦٤٠	(٢٢.٠٥٦)
٢٠١٥	٧٧.٥٩٤	٤١.٩٩١	١١٩.٥٨٥	٩٤.٠٤٨	(٢٥.٥٣٧)
٢٠١٦	٨٠.١٤٩	٢٥.٧٦٤	١٠٥.٨٩٥	٨١.٧٠٠	(٢٤.١٩٥)
الاجمالي:	٨٠٦.١٦٧	٣٥٠.٥٨٥	١١٥٦.٧٥٢	٩٦٠.٥٣٨	(٢٠٢.٢١٤)

ان تتبع تطور النفقات التشغيلية خلال الفترة من 2003 وحتى 2016، يؤكد سوء الادارة المالية في العراق في اعتمادها على الواردات النفطية المتزايدة، ومدى الاهتمام بالمصالح الشخصية والحزبية الضيقة، وعدم الاهتمام بالتنمية الاقتصادية المستدامة من قبل السلطات السياسية العراقية، التنفيذية والتشريعية. لقد بلغ اجمالي تخصيصات النفقات التشغيلية وحدها للاعوام 2003 – 2016 ما يعادل 806.167 تريليون

دينار (671.805 مليار دولار)، اما تخصيصات النفقات الاستثمارية فقد بلغت لنفس الفترة 350.585 تريليون دينار فقط (300.270 مليار دولار). وللاسف الشديد فان نسب التنفيذ المالي الاجمالي لم تتجاوز 60% وبعض الاحيان لم تبلغ 40%، ولم تتم متابعة التنفيذ الفعلي. وقد ذكرت مقدمة موازنة 2014 التي أعدتها وزارة المالية، ان الدلائل تشير الى وجود قائمة طويلة للمشاريع غير المنجزة في سجلات الوزارات والمحافظات، حيث يوجد اكثر من 6000 مشروع غير منجز تقدر تكاليفها الاجمالية بـ 228 تريليون دينار عراقي. هذا مع العلم ان الكثير منها قد تم دفع مبالغها بالكامل او 60% منها، بينما حجم الانجاز فيها يساوي صفرا او لم يتجاوز 20%. وهذا يدلل على حجم الفساد المستشري في الاعمال الحكومية، على مستوى الوزارات والمحافظات. وقد ذكرت مقدمة موازنة 2014 ان هناك 77 تريليون دينار، سلف الى الحكومة لم يتم تسديدها اضافة الى انفاق عن طريق السحب على المكشوف يقدر بـ10 تريليون دينار تم اطلاقها بدون وجود تخصيصات لها في الموازنات. وكل هذه مخالفات قانونية واجرائية لا تنسجم مع الادارة الرشيدة لاموال العراق وتدلل على مدى رغبة السلطة التنفيذية في الانفاق الكبير دون حساب للقوانين والانظمة المرعية.

ان تنظيم الموازنات الحكومية يتم عادة بعجز مخطط، وقد بلغ اجمالي هذا العجز للفترة 2003 - 2016 (2016 من ضمنها) مبلغ 202.214 تريليون دينار الا ان متابعة تنفيذ الموازنة، وحسب المعلومات التي تم الحصول عليها من وزارة المالية، فان جميع الموازنات للفترة 2004 - 2011 التي نظمت بعجز كانت عند التنفيذ الفعلي تتمخض عن فائض (انظر جدول رقم 4)

(جدول رقم 4)

الميزانيات الفعلية للأعوام 2004 - 2011 (تريليون دينار)

السنة	الايرادات	النفقات	الفائض
٢٠٠٤	٣٢.١١٨	٣٢.٩٨٣	٠.٨٦٥
٢٠٠٥	٤٠.٥٠٣	٢٦.٣٧٥	١٤.١٢٨
٢٠٠٦	٤٩.٠٦٣	٣٨.٠٧٧	١٠.٩٨٦
٢٠٠٧	٥٤.٥٩٩	٣٩.٠٣١	١٥.٥٦٨
٢٠٠٨	٨٠.٢٥٢	٥٩.٤٠٣	٢٠.٨٤٩
٢٠٠٩	٥٥.٢٠٩	٥٢.٥٦٧	٢.٦٤٢
٢٠١٠	٦٩.٥٢١	٦٤.٣٥٢	5.169
اجمالي الفائض			٧٠.٢٠٧

لقد بلغ اجمالي الفائض لهذه السنوات 70.207 مليار دينار او ما يعادل 58.5 مليار دولار، واذا ما اضفنا الفائض لعام 2011 والبالغ 27.290 مليار دولار، فان اجمالي الفائض سيكون 85.79 مليار دولار. ان الاسباب الاساسية لهذا التفاوت والتناقض بين المخطط والفعلي هي:

1 – ان تقديرات الانفاق غير مبنية على اسس صحيحة، وان هناك دائما مغالاة في التقييم من قبل الوزارات والمحافظات ومؤسسات الصرف الاخرى حتى أن بعض الاحيان لا يتم تنفيذ الموازنة التشغيلية ومن ضمنها الرواتب الا بنسبة 85 – 89%. اما بالنسبة للمشاريع الاستثمارية فتتم على الاغلب بدون وجود دراسة جدوى، او اذا ما وجدت، فتكون عادة غير دقيقة وسطحية. وفي كثير من الاحيان يتم طلب كل مبلغ المشروع في سنة واحدة، مع العلم ان تنفيذه يستمر لاكثر من سنة.

2 – التأخر المستمر في اقرار الموازنة من قبل مجلس النواب لشهرين أو اكثر.

3 – عدم وجود حسابات ختامية وكشوفات التدفق النقدي في الوقت المحدد.

4 – الفساد الاداري والمالي وعدم وجود الشخص المناسب في المكان المناسب.

لقد بلغت الاموال التي دخلت العراق من عام 2003 وحتى نهاية حزيران عام 2016 حوالي 928 مليار دولار. منها عوائد نفطية بمبلغ 684 مليار دولار، وعوائد اخرى محلية ضرائب ورسوم وغيرها بحدود 102 مليار دولار، ومنح ومساعدات وارصدة قروض جديدة داخلية وخارجية بحدود 142 مليار دولار. ولم تتم اضافة رصيد صندوق تنمية العراق. ان الاستخدام الرشيد لمثل هذه المبالغ مع القضاء على الفساد المستشري في اجهزة الدولة او على الاقل التخفيف من حدته، من الممكن ان يقوم ببناء اقتصاد عراقي متطور ومتنام في مجتمع خال من البطالة والفقر والامية، يتمتع هو ونشاطاته الاقتصادية بتوفير البنى التحتية من كهرباء وماء ونقل ومواصلات واتصالات.

تموز 2016

واقع الفقر في الريف والمدينة في العراق

إبراهيم المشهداني

ابراهيم المشهداني بكالوريوس في الاقتصاد من الجامعة المستنصرية عام 1973 /1974، **وخبير اداري.**

يصعب على الباحث الرصين أن يجري توصيفا دقيقا للفوارق الملموسة اقتصاديا واجتماعيا بين المدينة والريف في العراق. وان يرسم أفقا واضحا وقاطعا بين ما سيكون عليه مستقبل العلاقة بينهما، لتداخل مجموعة من العوامل التاريخية والاقتصادية، وشكل توزيع الخيرات المادية، وتطور المنظومات الاجتماعية وتركيبتها العشائرية والدينية والنظم السياسية التي تتابعت على حكم العراق، والتدخلات الخارجية على امتداد التاريخ وتأثيراتها القيمية والثقافية، فضلا عن أنماط الإنتاج السائدة. كل هذه العوامل والتناقضات التي تحملها جعلت من الصعب وصول الباحثين إلى نتائج نهائية ثابتة للعلاقة بين الريف والمدينة، وآفاق تطورها، لكن ذلك لا يقوض من عزيمة الكاتب من سبر أغوارها.

السياق التاريخي للتطور الاجتماعي

مع خصوصية التطور الاجتماعي بين مختلف البلدان، إلا إن هناك صفات عامة مشتركة خلال المراحل التاريخية التي مرت بها الإنسانية، فحسب التطور المادي للتاريخ فان الإنسان في المرحلة المشاعية كان يصارع الطبيعة في ظروف غاية في القسوة بسبب عدم امتلاكه للأدوات التي تحميه من قسوة الطبيعة بحرها وبردها لفترات طويلة من الزمن، غير انه بعد اكتشافه الزراعة وأدواتها بدا يتنقل بالتدريج إلى الانخراط في النشاط الاقتصادي الأول؛ فانقسم في هذا النشاط بين الزراعة والرعي واستمراره بالصيد، وهكذا حصل التقسيم الأول للعمل في نهاية المرحلة المشاعية، حلت بعده مرحلة العبودية مع ظهور الملكية الخاصة بنطاق أوسع وظهور التمايز الطبقي في المجتمع بين العبيد وملاك العبيد وظهور التجارة. إلا إن وتائر التطور وسرعة حركتها وديناميكيتها اختلفت من بلد إلى آخر؛ ففي أوربا كانت الحركة أسرع من غيرها.

أما في العراق فقد ظهرت المدينة في وقت مبكر وظهرت الكتابة، ما سهل عملية التفاهم بين السكان ووضعت القوانين الناظمة للنشاط الإنساني وحدود حركته وحقوقه في العمل والعيش، إلا إن الحروب بين الممالك طمرت

الكثير من معالم التطور ولم يوثق منها الشيء الكثير الا في القرون المتأخرة.

الواقع الاجتماعي في عهد الاحتلال العثماني

لقد كان العراق في سنوات الهيمنة العثمانية من أكثر مقاطعات الإمبراطورية العثمانية تخلفا فلا يهم الحكومة المركزية اثر من الاستحواذ على الفائض الاقتصادي من الحبوب والحيوانات، عن طريق الضرائب والإتاوات فلا الحكومة ولا الولاة، كانت لديهم الرغبة في تطوير البلد. وكان العراق بالنسبة لهم سيبيريا تركيا، حسب تعبير الكاتب (ايرلاند) إذ كان منفى للولاة والقادة وكانت وسيلتهم الأساسية استخدام القوة في فض الاحتجاجات على بساطتها، ما أدى إلى تفاقم التناقضات الاجتماعية الاقتصادية، ما مهد الطريق للتغلغل البريطاني، وكانت الحكومة تعتمد على الزعامات المحلية في إدارة الأوضاع الاجتماعية والحفاظ على البنية الأساسية، ونتيجة لذلك انقسم سكان العراق في الفترة الأخيرة من الحكم العثماني؛ فظهرت ثلاث مجاميع:

- العشائر الرحل – البدو.
- العشائر المستوطنة – الفلاحين.
- سكان الحضر – المدن.

وقدر عدد السكان في بداية القرن العشرين بحوالي مليونين، وكانت نسبة القبائل الرحل 17% في عام 1905 فيما كانت النسبة 35 بالمائة في عام 1867 وكانت نسبة العشائر 59 بالمائة في عام 1905 فيما كانت نسبتها 41% في عام 1867 وكانت نسبة الأرياف (البادية) 76% وكانت نسبة السكان في المدن 24% من نفس عام 1905. وكانت القبائل تمثل الوحدة الأساسية في المجتمع؛ اذ كانت تشكل مع المدن، عالمين مختلفين. والقبيلة تمثل وحدة سياسية واجتماعية شبه مستقلة منغلقة على ذاتها، لها شرائعها وأعرافها الخاصة، ولها تقاليدها التي تختلف عن المدينة؛ اذ تحكم نفسها بنفسها في الكثير من التفاصيل الاجتماعية.

الواقع الاجتماعي في العهد الملكي

قاعدة الهرم الاجتماعي التي يمكن تسميتها بقاعدة التكوين للفترة 1929 – 1932 كانت تتكون من المكونات الآتية:

1. قوى الاحتلال الأجنبي والكادر الإداري المرافق له.
2. القوى الاجتماعية المحلية، المتكونة من:

ا- القوى المدينية (الحضرية) وتتمثل بالأشراف والعوائل الارستقراطية القديمة والتجار والملاكين الكبار. وتسكن هذه القوى بداخل المدن.

ب- القوى الريفية، وتتمثل بمجموعة القبائل والعشائر، وخاصة الكبيرة منها. وهذه تتوزع في العادة على المناطق الريفية.

ج- القوى الدينية الإسلامية والمسيحية واليهودية. وهذه القوى تتوزع بين المدينة والريف، بخاصة القوى الإسلامية.

ولا يمكن القول إن هذه المجموعات قد تكونت ضمن الفترة الزمنية التي اشرنا إليها، ولكن جذورها تمتد إلى عهد الاحتلال العثماني، إلا أنها بدأت تتبلور أكثر فأكثر بعد الاحتلال البريطاني (الفترة التي درجت تسميتها اعتباطيا بفترة الاستقلال)؛ إذ ترسخت السلطة الملكية، ورسمت حدود هذه القوى الاجتماعية مع السلطة المركزية، وفي هذه الفترة تقلص دور المؤسسة التقليدية وخاصة الارستقراطية

القديمة والدينية يقابلها صعود نفوذ شيوخ العشائر والإقطاعيين، لكن القوى التي تبوأت في المدينة كانت تتمثل بالعرش الملكي والمحيطين به، وتعاظم دور النخبة السياسية المنحدرين من أصول عسكرية. وفي الحقيقة هي من شكل عصب النخبة الحاكمة في المدينة. إما الفئات التي كانت تقع في أسفل السلم الطبقي في الريف؛ فكانت تتكون من عوام الناس؛ من الطبقات الفقيرة المنتمية إلى العشائر.

وكانت هناك هوة واسعة تفصل المدن عن الريف العشائري، وفي ذات الوقت كان الحضريون وعرب العشائر ينتمون إلى عالمين، يكادان يكونان منفصلين، باستثناء سكان المدن الواقعة في عمق المناطق العشائرية او رجال العشائر الساكنين قرب المدن. وكانت الروابط بين الطرفين اقتصادية بالدرجة الأولى، بالرغم من ان هذه الروابط لم تكن بدرجة عالية، من النشاط والفاعلية، وكانت تواجه تحديات حقيقية، تتمثل في الابتعاد عن المدن وعن طرق المواصلات من خلال نهر دجلة. لذلك نرى أن إنتاجها من المحصول الزراعي كان معرضا للتلف حيث كان القمح يتعفن في مخازنه، التي هي في الواقع مخازن بدائية، لا تحفظها من مياه الأمطار التي تسبب تعفنها، ولهذا كان سكان المدن يعانون من المجاعة. وضعف المواصلات كان يسبب متاعب حقيقية بين المدينة والريف؛ بحيث ان في غالب الأوقات كان التبادل التجاري متوقفا، لذلك يفعل الاعتماد الذاتي في المناطق الريفية وتتشكل أسواقها الخاصة كما كان للمدن ريفها الخاص الذي كانت تحتضنه.

ومن الجدير بالملاحظة، ما كان من تباعد اجتماعي ونفسي بين العرب الحضريين والعرب العشائريين، وهما يختلفان بطرق كثيرة؛ ففي حين كان العرب الحضريون يخضعون بشكل عام للقوانين الإسلامية والعثمانية، كان عرب الريف ـ أي العرب العشائريين ـ يخضعون للعادات والتقاليد العشائرية القديمة المغلفة بصبغة دينية. وتتوزع الثقافات خصوصا بالنسبة لشريحة المتعلمين بين الثقافات التركية والفارسية تبعا للمذهب والمدن التي تشيع فيها. ومن جهة أخرى فان أبناء المدن أكثر خضوعا للسلطة الحاكمة، في حين كان سكنة الريف أكثر حرية من قمع السلطة المركزية لكنهم يخضعون لسلطة الشيوخ ورؤساء القبائل.

المستوى الاقتصادي والاجتماعي في الريف

لا شك في أن العراق يعاني مثل سائر الدول النامية، من تفاقم مشكلة الفقر. ويعود ذلك بالأساس إلى تراجع القطاع الزراعي بسبب قلة المياه وعدم التوظيف الأمثل لمياه نهري دجلة والفرات، وتعطل القنوات التي توصل المياه إلى الأراضي الزراعية التي تسقى بطريقة الإرواء، وضعف الاستفادة من المياه الجوفية، فضلا عن التخلف في إدخال الوسائل التكنولوجية في الإنتاج والطرق الحديث في السقي (بطريق التنقيط) حسب متطلبات التنمية الزراعية. وكل ذلك كان مرتبطا بضعف برامج التنمية والارتباط العضوي لهذا القطاع الحيوي مع القطاعات الاقتصادية الأخرى وخاصة القطاع الصناعي.

ومن الجدير بالذكر، أن الزراعة، في الأربعينيات والخمسينيات (من القرن العشرين – المحرر)، كانت تشكل 64 بالمائة من مصادر عيش سكان العراق، لكنها وصلت إلى ادنى مستوياتها في منتصف

التسعينيات؛ حيث انخفضت النسبة إلى 28.5 بالمائة لكن التعداد السكاني في العراق عام 1997 اظهر أن هذه النسبة قد ازدادت الى 40 بالمائة.

ومن الظواهر المميزة في الريف العراقي ارتفاع نسبة البطالة بين القادرين على العمل والراغبين فيه؛ فتشير الإحصاءات إلى ان نسبة العاملين في هذا القطاع في بداية عقد التسعينيات كانت 16 بالمائة، لكنها انخفضت في نهاية العقد نفسه إلى 10 بالمائة، خاصة بين الشباب. وهذه النسبة كانت العامل الدافع إلى الهجرة من الريف إلى المدينة. يقابل هذه الظاهرة تزايد نسبة النساء العاملات في الزراعة؛ فتشير الإحصاءات إلى ان النسبة في عام 2000 كانت 50 بالمائة من إجمالي العاملين في هذا القطاع، وهي بالتأكيد قابلة للزيادة في حال ثبات نفس العوامل. وكنتيجة للحصار المفروض على العراق في عام 1990 بعد غزو الكويت، توجهت الحكومة إلى زيادة التركيز على الإنتاج الزراعي لمواجهة مخاطر الحصار، وقد حصلت هجرة معاكسة من المدينة الى الريف، لكن هذه الظاهرة كانت مؤقتة بسبب راهنية ظروفها؛ لتعود الهجرة من جديد، لمعاودة حركتها، وذلك لعدة أسباب منها؛ التصحر والتعرية والجفاف وتفاقم الفقر والكثافة السكانية، بالإضافة إلى غياب التنمية الريفية، وكذلك مباهج المدن التي تشكل عنصرا جاذبا للهجرة إلى المدينة.

وحسب تقديرات منظمة الغذاء والزراعة الدولية فان أكثر من 79 بالمائة من الموارد الأرضية في العراق، تعاني التدهور الذي يعد بيئة طاردة للسكان ومحفزة للهجرة الداخلية والخارجية. وفي الجدول أدناه يتضح تأثر النسب والتغيرات السكانية في المدينة والري، بتأثير بالعوامل في ما بيناه أعلاه.

جدول (١)

توزيع السكان حسب النوع والبيئة للسنوات من ١٩٩٠-٢٠٠٨

السنة	الحضر %			الريف%		
	ذكور	إناث	المجموع	ذكور	إناث	المجموع
١٩٩٠	٥١,٥	٤٨,٨	٧٠,١	٤٣,٦	٤٨,٩	٢٩,٩
١٩٩٧	٦٨,٦	٦٧,٥	٦٨,١	٣١,٤	٣٢,٥	٣١,٩
٢٠٠٦	٦٦,٩	٨٦,٥	٦٦,٧	٣٣,١	٣٣,٥	٣٣,٣
٢٠٠٧	٦٦,٧	٦٦,٤	٦٦,٥	٣٣,٣	٣٣,٦	٣٣,٥
٢٠٠٨	٦٦,٩	٦٦,٧	٦٦,٧	٣٣,١	٣٣,٤	٣٣,٣

المصدر : الجهاز المركزي للإحصاء ، المجموعة الإحصائية السنوية ، ٢٠٠٨ -٢٠٠٩ وزارة التخطيط والتعاون الإنمائي ، جمهورية العراق ، ص ٦٤٠ .

ومن الجدول يمكن أن نستنتج الحقائق الآتية:

1. انخفاض نسبة الإناث إلى الذكور في المدينة، على عكس الحال في الريف لعامي 1990 – 1997. ويعود سبب انخفاض نسبة الذكور إلى الإناث في الريف إلى سوء الأحوال الاقتصادية في الريف، وهجرة الذكور إلى المدن في الداخل

او خارج العراق؛ حيث ان ظروف هجرة الذكور أفضل من الإناث في الحالتين. ولا ننسى آثار الحرب العراقية الإيرانية على انخفاض هذه النسب.

2. في عام 2006 انقلب الوضع في المدينة انقلابا كبيرا حيث ازدادت نسبة النساء ازديادا كبيرا قياسا بنسبة الذكور، وذلك بسبب الصراع الدموي الطائفي في المدن بسبب الأجندات الخارجية والتدخلات الإقليمية في العراق، ما أدى الى قتل الآلاف من الأبرياء بالإضافة للهجرة إلى الخارج.

3. الظروف العصيبة التي مرت بها المدينة وخاصة بغداد العاصمة والسبب الأرأس في ذلك، يعود إلى الصراع الطائفي الشديد الذي شهدته المدن وخاصة بين الشباب، ومهن الطب والهندسة والتعليم، فيما ظلت النسبة في الأرياف شبه متساوية وثابتة.

4. ويلاحظ في السنتين 2007 و 2008 ان نسب الذكور والإناث في المدينة والريف كانت متقاربة والى حد كبير.

5. ولا يفوتنا الأخذ بنظر الاعتبار ان الإحصاءات السكانية في العراق في العقدين الأخيرين من النظام البائد وحتى سنوات ما بعد 2003 يشوبها الكثير من الشك، بسبب الأوضاع السياسية والأمنية المتدهورة، والتوقف عن الإحصاءات السكانية منذ عام 1987؛ حيث يتسم الإحصاء بشيء من الموثوقية، ولكنه لا يرتقي إلى الإحصاءات السكانية السابقة له في عامي 1957 و1977.

التنمية الريفية.. المفهوم والأهمية

أولا- المفهوم

يقصد بالتنمية الريفية مجموعة السياسات والبرامج والإجراءات التي تستهدف تغييرا واضحا وملموسا في المجتمعات الريفية المحلية، لغرض رفع مستوى معيشة السكان عن طريق نظام عادل في توزيع الدخل، وتحسين الظروف العامة بما في ذلك ظروف المجتمع الاقتصادية والبيئية والصحة والبنية التحتية والإسكان ونمو العمالة على طريق سد الفجوة الحاصلة في حياة السكان بين المدينة والريف وصولا الى مستوى المدينة.

وقد عرفها البنك الدولي بالآتي: أنها "إستراتيجية تهدف الى تحسين الاقتصاد والحياة الاجتماعية لمجموعة معينة من الناس الفقراء في المناطق الريفية".

ويرتبط بهذه التعريفات لمفهوم التنمية الريفية أربعة محركات مهمة لتحفيز نمو الاقتصاد غير الزراعي في المناطق الريفية، وهي نمو المراكز الصغيرة والمتوسطة، وتحقيق التكامل بين اقتصاديات الريف والمدينة، وخلق فرص جديدة للعمل والخدمات، وتحسين نظام الاتصال والمعلومات عبر نشر التغطية الهاتفية الثابتة والمتنقلة. يضاف إليها زيادة الاستثمار في الطاقة اللامركزية والمتجددة. بمعنى آخر وجود ثلاثة عناصر تتفاعل مع بعضها لتحقيق التنمية الريفية وهي البعد السياسي والبعد الاقتصادي والبعد الاجتماعي.

ثانيا – الأهمية التنموية في الريف

هناك العديد من الأسباب التي تمنح التنمية الريفية هذه الأسباب، ومن ابرزها تدفق الهجرة من الريف إلى المدينة خلال العقود الخمسة الأخيرة. وتتركز في هجرة القوى العاملة وخاصة الرجال وغالبا ما تستثنى النساء من هذه الهجرة، لشيوع

الثقافة المتخلفة في الريف، والتي تنظر إلى المرأة على أنها عاجزة عن الاعمال المرهقة في المدينة خصوصا وان مجال العمل هو البناء، لذلك فان الحد من هذه الهجرة يرتبط بالأسباب التالية، والتي منها؛ إن العراق يتوافر على إمكانيات كبيرة داخل الأرض وفوقها، ما تمنح الحكومات العراقية ـ إن توفرت لديها الإرادة القوية ـ فرصا لخلق مستوى من التقدم المتوازن بين الريف والمدينة وداخل الريف بالذات. فإضافة إلى النفط والغاز المصاحب وغير المصاحب المستخرج من الأرض ووصول الإنتاج إلى مستويات عالية يصل بالإجمال إلى أربعة ملايين برميل يوميا من النفط فقط، هناك الكثير من المعادن المطمورة تحت الأرض كالفوسفات والكبريت والحديد والزئبق الأحمر وأنواع المعادن الصخرية الأخرى، وهناك المياه الوفيرة والأراضي الصالحة للزراعة ـ إن أحسنت إدارتها ـ تتمكن من تحقيق جملة من الأهداف كزيادة الإنتاج الزراعي والحيواني وإمكانية التكامل الصناعي ـ الزراعي داخل الريف، زد على ذلك ان العراق يشكل واحدا من بين 61 دولة يكون فيها الدخل منخفضا لذلك فان تحقيق التنمية الاقتصادية وزيادة التوظيف (employment) كأساس في عملية التنمية الريفية يسهم في زيادة المداخيل داخل الريف. ولكن تحقيق هذا الهدف يرتبط بتضافر ثلاثة عناصر أساسية وهي رفع وتائر النمو في الإنتاج من خلال استخدام التكنولوجيا الحديثة، ورفع مستوى الإنتاج في المزارع الصغيرة للفلاحين، والعنصر الآخر زيادة الطلب على الإنتاج الزراعي، فيما يكون العنصر الثالث الاعتماد على تنمية ريفية ذات أنشطة متنوعة خارج مجال الإنتاج الزراعي، وعمل كثيف يحقق الدعم المتبادل بينهما في المجتمع الزراعي بشكل مباشر او غير مباشر.

التكامل الصناعي – الزراعي

ان زيادة حاجات المجتمع، وقبل كل شيء الحاجات الاقتصادية تشكل أساسا لعملية الإنتاج الاجتماعي، تلك العملية التي تشترط ـ بالانسجام مع الخصائص القائمة لعلاقات الإنتاج ومستوى تطور القوى المنتجة ـ انجاز مشاريع التكامل الصناعي – الزراعي التي تعتبر في النهاية أداة لخلق الظروف الموضوعية لعملية التطور الكمي والنوعي لقوى الإنتاج وتحسين علاقات الإنتاج، وبالتالي تعزيز القدرة على تلبية الحاجات الاجتماعية المتنامية. ومن الطبيعي فان الحاجات الاقتصادية تأتي سابقة لعملية الإنتاج وتمهد لبناء أسس تطور مخرجاتها من السلع والخدمات التي ينبغي ان تتسم بكفاءة عالية على إشباع تلك الحاجات. الا انه يبقى القرار إن أولوية العوامل الاقتصادية والاجتماعية في تطوير عملية التكامل الصناعي – الزراعي تتوقف على مجموعة متداخلة مع بعضها، لكي تعطي مفاعيلها في تحقيق هذا التكامل، وبالتالي إشباع الحاجات الاجتماعية؛ ومن بين هذه العوامل:

1. العوامل الطبيعية:

وتشمل الخصائص الموروثة عن الإنسان كالمواهب والإبداعات والنبوغ والمهارات وهي في حركتها وتطورها مهدت الطريق نحو تكامل العمل الصناعي الزراعي، وفي نهاية المطاف تخلق ظاهرة شخصية

جديدة يدفع تراكمها الكمي بين سكان الريف إلى تبديل العمل ليكون منسجما مع الخصائص الطبيعية للإنسان، بما تسهم كنتيجة لتفادي ضياع الملايين من ساعات العمل التي ينبغي ان تتضافر عناصر الإنتاج الأخرى لتخلق المنافع الاجتماعية المتوخاة، ومن أهمها تحويل الطابع الاجتماعي في الريف من مجتمع مستهلك الى مجتمع منتج، وبذلك تتحول عملية خلق التكامل الصناعي الزراعي إلى التخلص من موسمية العمل التي تشكل ظاهرة بارزة في المجتمع الزراعي.

2. العوامل الاجتماعية:

ان التكامل الصناعي الزراعي في ظل أسلوب الإنتاج الرأسمالي يخضع لقوانينه التي تؤدي في النتيجة إلى إعاقة قدرتها على تحقيق الأهداف الاجتماعية، بل إن هذا التكامل في ظل هذا الأسلوب يكون ظاهرة عرضية تشكلت في ظل الصراع الاجتماعي، ما لم يكن لإزالة التناقض الجوهري بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج وعندئذ سيكون كفيلا بتسهيل عملية التكامل الصناعي الزراعي وتحقيق التقدم الاجتماعي.

3. العوامل الاقتصادية:

ان التطور المتسارع في الصناعة، قاد إلى توسع الفجوة بين مستوى التطور الصناعي عنه في الزراعي وأحيانا إلى القطيعة بينهما، وبالتالي عدم التوازن في تطور هذين المجالين في الإنتاج المادي للخيرات. غير إن الحاجات الاجتماعية للمدينة والريف خلقت الحاجة إلى ضرورة إلغاء هذا التناقض، وإعادة التوازن عبر خلق الظروف الاقتصادية والاجتماعية لأداء وظائفهما بمستوى أعلى من التنسيق.

4. العوامل التنظيمية:

إن مهمة تنظيم الحيازات الصغيرة والكبيرة وإدخال المكائن الزراعية والاستغلال الاقتصادي الأمثل للعمل هو ما يحقق فكرة تكامل الإنتاج الصناعي الزراعي من خلال اتحاد الفلاحين الصغار وإنشاء مشاريع تعاونية زراعية كبيرة؛ ففي مثل هكذا مشاريع زراعية يمكن أن تنظم على نطاق اقتصادي كبير ومربح لمؤسسات التكامل الصناعي ـ الزراعي.

ظاهرة الفقر في المدينة والريف

أظهرت عملية المسح السكاني الذي أجرته وزارة التخطيط في عام 2012 والذي شمل المسح الاجتماعي والسكاني لكافة الأسر الساكنة في العراق، واستخدمت نتائج الحصر والترقيم لسنة 2009، على مستوى الاقضية في العراق البالغة 118 قضاء. وشمل هذا المسح المدينة والريف من خلال استخدام خط الفقر كمقياس للدخل او الاستهلاك بما يفرق بين الفقراء وغير الفقراء باستخدام الطرق الآتية، باستخدام مؤشرات الفقر:

1 – الطريقة الأولى، نسبة الفقر. وهذا المؤشر يقيس الأهمية النسبية للفقراء في أي مجتمع، ويعكس نسبة الفقراء إلى مجموع السكان ويقاس بالطريقة الآتية:

نسبة الفقراء – عدد الفقراء تحت خط الفقر، مقسّما على مجموع السكان، مضروبا في 100.

وعلى مستوى الأسر يقاس بالطريقة الآتية: نسبة الأسر الفقيرة – عدد الأسر

تحت خط الفقر، مقسما على مجموع عدد الأسر، مضروبا في 100.

2 – فجوة الفقر: وهو مؤشر يقيس حجم الفجوة الإجمالية الموجودة بين دخول الفقراء وخط الفقر، ويحسب بالوحدات النقدية من خلال إجمالي المبلغ اللازم لرفع مستويات استهلاك الفقراء إلى مستوى خط الفقر ولأغراض المقارنة، فيتم حساب المؤشر كنسبة مئوية من القيمة الكلية لاستهلاك كافة السكان، عندما يكون مستوى استهلاك كل منهم مساويا لخط الفقر. ويحسب خط الفقر بالطريقة الآتية: مستوى خط الفقر = كلفة تغطية الحاجات الغذائية الأساسية + كلفة تغطية الحاجات الأساسية غير الغذائية. وقد أظهرت مؤشرات الفقر عبر استخدام العينة المشار إليها في أعلاه إن:

1 – ان نسبة الفقر في العراق بلغت 18.9 بالمائة، وان الفقر يتركز في الريف بدرجة اعلي من المدينة (الحضر) حيث بلغت نسبة الفقر فيهما 30.7 بالمائة و 13.5 بالمائة على التوالي. كما بينت المؤشرات ان حجم الأسرة لفئة الفقراء بلغ 9.25 فردا في حين بلغت عند غير الفقراء 6.3 فردا.

2 – وأظهرت المؤشرات ان نسبة الأفراد الذين يقعون تحت خط فقر الغذاء المدقع الذين يقل إنفاقهم الشهري عن 50473 دينار 0.9 بالمائة، وقد بلغت هذه النسبة في الريف 2.2 بالمائة، وفي المدينة 0.3 بالمائة.

3 – يصنف ما يقرب 6.4 مليون نسمة من مجموع سكان العراق الذين يزيد عددهم عن 34 مليون نسمة ضمن فئة الفقراء، نحو أكثر من نصف العدد الكلي من السكان الفقراء (3.3) مليون شخص يعيشون في المناطق الريفية وحوالي 1.3 مليون نسمة في المدينة.

4 – تعتبر فجوة الفقر في العراق البالغة 4.1 المائة منخفضة للغاية، استثناء للظروف الحالية التي يمر بها العراق من الناحية الاقتصادية والأمنية، مقارنة بالدول الأخرى، حيث تزيد فجوة الفقر لسكان الريف البالغة 7.6 بالمائة على ثلاثة أضعاف نسبتها لسكان المدن البالغة 2.5 بالمائة. ولا يعني هذا ان هناك نسبة اعلى من سكان الريف فحسب، بل يعني أيضا أن سكان الريف نسبيا هم أكثر فقرا.

5 – تعتبر شدة الفقر، مقاسة بمربع دليل فجوة الفقر البالغة 1.4 بالمائة واطئة للغاية (الانتقال في الإنفاق من شخص تحت خط الفقر الى شخص أكثر فقرا لن يغير مؤشر الفقر، إلا أنه يغير فجوة الفقر تربيع) لهذا السبب تعتبر فجوة الفقر تربيعا ذا أهمية عملية لصناع السياسة، لأنها تجعل الفقر الشديد منظورا.

6 – يعتبر خط الفقر الرسمي في العراق البالغ 105500 دينار، والمستند الى إنفاق وحاجات السكان الفعلية، هو الأكثر فائدة لتحليل أسباب ونتاج الفقر في العراق.

7 – بلغ معدل البطالة للأفراد البالغين (عمر 15 سنة فأكثر) بين فئة الفقراء 14.5 بالمائة كما أظهرت النتائج أن متوسط دخل الفرد الشهري لفئة الفقراء بلغ 96 ألف دينار، في حين بلغ متوسط دخل الفرد لفئة غير الفقراء 284 ألف دينار.

جدول رقم (2)

مؤشرات الفقر والتفاوت حسب المحافظات

المحافظة	نسبة الفقر			فجوة الفقر			مربع فجوة الفقر			معامل جيني		
	ريف	حضر	المجموع	ريف	حضر	المجموع	ريف	حضر	المجموع	ريف	حضر	المجموع
المثنى	73	29.1	52.5	23.8	6.6	14.4	9.6	2.3	5.5	24.5	26.6	26.4
القادسية	63.7	38.2	44.1	18.8	8.7	12.4	7.4	3.2	4.9	24.0	26.2	28.4
ميسان	61	27.8	42.3	17.9	5.2	11.8	7	1.5	4.5	24.2	28.7	28.6
ذي قار	60.2	32.0	40.9	20.2	6.5	10.2	8.8	2.0	3.7	28.3	26.3	29.4
المثنى	44.9	27.7	34.5	10.9	6.0	8.0	3.7	1.8	2.6	26.8	28.2	28.1
واسط	32.8	21.3	26.1	9	4.8	6.5	3.6	1.7	2.5	28.4	28.7	29.1
بابل	25.4	10.1	20.5	4.8	1.6	4.0	1.4	.4	1.1	24.7	27.2	26.6
صلاح الدين	25.2	15.2	16.6	5.3	2.5	3.1	1.6	.6	1.0	26.8	25.7	26.9
الانبار	21.1	11.1	15.4	4.2	1.9	2.7	1.3	.5	.8	27.7	25.5	22.8
البصرة	20	6.4	14.9	2.8	1.2	2.8	0.6	.3	.8	23.3	26.0	24.4
بابل	19.6	13.7	14.5	4.1	2.5	2.6	1.2	.7	.7	26.5	23.8	25.9
كربلاء	18.7	9.7	12.4	3.3	1.8	2.0	0.8	.5	.5	21.7	26.7	24.0
بغداد	18.2	12.4	12.0	3.9	1.6	2.0	1.2	.3	.5	22.5	22.6	27.4
النجف	15.4	6.1	10.8	2.8	1.2	1.7	0.7	.3	.4	23.9	25.3	27.2
كركوك	12.5	12.3	9.1	1.8	2.1	1.7	0.4	.5	.4	20.7	25.3	26.0
دهوك	10.5	4.1	5.8	1.7	.7	.9	0.4	.2	.2	27.2	26.3	27.1
أربيل	9.3	2.4	3.6	1.3	.3	.5	0.3	.1	.1	25.0	27.7	28.2
السليمانية	4.8	1.4	2.0	1	.3	.4	0.3	.1	.1	25.0	25.5	25.7
المجموع	30.7	13.5	18.9	7.6	2.5	4.1	2.7	.7	1.4	27.8	28.9	29.5

المصدر: نتائج تحليل الفقر بالاعتماد على نتائج المسح الاجتماعي والاقتصادي، الجهاز المركزي للإحصاء / 2012

اللوحة الطبقية في المدينة والريف

تعريف الطبقات يمثل إشكالية كبرى حتى عند ماركس الذي نفى أن يكون صاحب فضل في اكتشاف الطبقات والصراع الطبقي، بل عزاه وبدرجة ما إلى وصف المؤرخين البرجوازيين، ولهذا كان حذرا من وضع تعريف محدد، وذلك بسبب التطور المتسارع والمتحرك للتطورات الاقتصادية والاجتماعية، لكن لينين وضع التعريف الآتي: "الطبقات هي جماعات واسعة من الناس، تمتاز بالمكان الذي تشغله في نظام الإنتاج الاجتماعي محدد تاريخيا بوسائل الإنتاج وبدورها في التنظيم الاجتماعي للعمل وبطرق الحصول على الثروات الاجتماعية ومقدار حصتها من هذه الثروات". وانطلاقا من هذه المفاهيم ننتقل إلى الواقع الراهن في العراق باختصار شديد حيث ان حجم البحث لا يحتمل الشرح التفصيلي. فعندما نتناول الريف ونأتي على مفهوم الفقر والفقراء فانه من اللازم التفريق بينها وبين اللوحة الطبقية علميا فان الفلاحين هي الطبقة الاشمل؛ ففيها الفلاحون المعدمون وفيها الفلاحون الأغنياء او الميسورون، وفيها الملاكون الكبار، غير ان ما أنتج هذا التمايز هو تطور العلاقات الرأسمالية في الريف وفيهم العمال الزراعيون العاملون في بقايا المشاريع الحكومية والقطاع الخاص وكان للقوانين التي أصدرتها حكومة 14 تموز، وطرأت عليها تعديلات لاحقة اثرٌ في إيجاد فئة كبيرة مالكة للأرض، وهي على كل حال صغيرة المساحات، ولذلك أصبحت بفعل ذلك ذات ميول برجوازية صغيرة.

اما في المدينة فيمكن القول انه بعد التغيير في عام 2003 ظهرت ثلاث طبقات رئيسية، وهي الطبقة البرجوازية الكومبرادورية، وهي الفئة العليا من البرجوازية، والطبقة الطفيلية التي نشأت بفعل تأثيرات الاقتصاد الريعي وانتشار الفساد التي تعتبر العامل المحرك لها، ولا دور لها

في عملية الإنتاج والطبقة البرجوازية البيروقراطية، وتتشكل من الفئة العليا للبيروقراطية الإدارية وتكتسب مداخليها على المكاسب التي توفرها المواقع الوظيفية والسلطات التي يتمتعون بها، ما اوجد قدرا كبيرا من التلاحم المصلحي مع الطبقة الطفيلية وطبقة الكامبرادور، ومن المفاهيم المتداولة في الأوسط الثقافية الطبقة الوسطى. وهذا التعريف يتقاطع مع التحليل الماركسي للوحة الاجتماعية، بسبب اعتماده على الدخل والإنفاق. ومع ذلك ظل هذا التعريف ملتبسا ومثيرا للجدل. والى جانب هذه الطبقات توجد في المدينة الطبقة العاملة في القطاع الحكومي والقطاع الخاص، والى جانبها الحرفيون والمثقفون والشرائح المهشمة وما يطلق عليها أحيانا الطبقة الرثة.

الاستنتاجات والمقترحات

بالنظر للتفاوت الكبير في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بين المدينة والريف، دون ان يعني ذلك ان التطور الاجتماعي والاقتصادي في المدينة، قد أخذ المستويات الدولية وحقق كفاية المجتمع المديني، ولبّى الاحتياجات الضرورية لسكان المدن من الخدمات الصحية والتعليمية والطاقة والخدمات البلدية، فهي حتى دون المستوى الأدنى، لكنني ومن خلال هذا العرض التحليلي آمل أن أكون قد أصبت في الاستنتاجات التي توصلت إليها والمذكورة في أدناه:

- وضع الخطط والاستراتيجيات الخاصة بالريف العراقي والاستفادة من الدراسات والبحوث الأكاديمية، بما يهدف إلى توفير الخدمات الأساسية لسكان الريف، والتي تتمثل في توفير المياه الصالحة للشرب والصرف الصحي والخدمات الصحية والتعليمية، وبناء القرى العصرية التي تتوفر فيها هذه الخدمات، في مقاربة واضحة تؤدي إلى الاقتراب من حياة المدينة وفي كافة المجالات.
- وضع التشريعات التي تلزم الاطفال في سن التعليم مرورا في كافة المراحل التعليمية والتقنية للالتحاق بالمدارس الكافية التي يتعين على الدولة توفيرها لاستيعاب الأعداد الكافية وتتوفر فيها كافة المستلزمات التي تحتاجها العملية التعليمية مع توفير البرامج الغذائية للتلاميذ، ومثل هذه البرامج كانت موجودة في مرحلة النظام الملكي، مما توفر المستوى التعليمي والتقني المنشود.
- ايلاء الاهتمام الكبير والجاد بالتنمية الريفية من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والبشرية والثقافية من اجل خلق المناخات المناسبة لاستقرار السكان والحد من الهجرة إلى المدينة، وحتى الهجرة إلى الأسوار المغلقة في أوروبا! بل وتحقيق الهجرة المعاكسة من المدينة إلى الريف، خاصة ان هناك في سكان المدن من يرغب بالسكن في ريف متطور، للتخلص من زحمة المدينة وضجيجها.
- تحقيق إستراتيجية ملموسة للتكامل الصناعي - الزراعي ووضع المشاريع التي تناسب حاجة الريف والارتقاء بمستواه الاقتصادي والاجتماعي. وهذه الإستراتيجية ستسهم دون شك في خلق الظروف الموضوعية لعملية التطور الكمي والنوعي لقوى الإنتاج وتحسين علاقات الإنتاج وامتصاص البطالة الشائعة في

الريف العراقي وخاصة المصانع التي تستوعب النساء والرجال في ان.

• تشجيع الشباب على تأسيس منظمات المجتمع المدني الخاصة بطبيعة أنشطتهم والتي تؤدي دورها المنشود في رفع مستوى الوعي الوطني والتعايش السلمي في المجتمع الريفي وتكريس مبادئ مفاهيم التسامح المجتمعي، للإسهام في تخليص الريف العراقي من النظام العشائري المتعفن القائم على تكريس التخلف الثقافي والفكري وتفاقم التوترات العشائرية واللجوء إلى تقاليد وأعراف أكل عليها الدهر وشرب، وإضعاف القوانين المدنية الهادفة لتحقيق العدالة بين المواطنين كما يجري الان في العديد من المحافظات العراقية.

مصادر البحث:

1 – د . جاسم محمد حافظ، التكامل الصناعي ـ الزراعي، مدخل نظري، مطبعة الفرح، 2003.

2 – د.مهدي محسن العلاق ونجلاء على مراد وقصي عبد الفتاح رؤوف، الفقر وعلاقته بالعوامل الاجتماعية والاقتصادية في العراق. تقرير وزع في ندوة خاصة بإستراتيجية القضاء على الفقر، أقيمت على قاعة فندق الرشيد عام 2013، وقد نشر أيضا على الانترنيت.

3 – م.م سلام أنور العبيدي، مجلة تكريت للعلوم الإدارية والاقتصادية المجلد 8 – 25/ 20123 جامعة تكريت ـ كلية الإدارة والاقتصاد، المقال منشور على الانترنيت.

4 – فرحان قاسم، مقالة منشورة في مجلة الثقافة الجديدة العراقية، العدد 381 آذار 2016.

5 – حنا بطاطو/ المجلد الأول – الفصل الأول، مطبعة دار الحياة، تاريخ الإيداع في دار الحياة للنشر والتوزيع 2011.

6 – د.عقيل الناصري، في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية مطلع القرن الماضي، مقالة منشورة على الانترنيت.

7 – إبراهيم المشهداني.. قراءات في الاقتصاد والسياسة الاقتصادية في العراق. كتاب تحت الطبع.

ماركس – انجلز
المؤلفات الكاملة: البدايات والمصير

د.ثامر الصفار

د.ثامر الصفار، باحث ايكولوجي حاصل على شهادة الدكتوراه في الهندسة البيئية. نشر العديد من الدراسات والابحاث في عدد من المجلات والصحف العراقية والعربية والانجليزية. صدر له عدد من الكتب كان آخرها "الماركسية والايكولوجيا: المفهوم المادي عن الطبيعة" عام 2009 عن دار الفارابي.

مقدمة

بعد الاحداث التي شهدتها المانيا (الديمقراطية) في خريف عام 1989 غدا واضحا قرب انتهاء ايام الحزب الاشتراكي الديمقراطي الحاكم. وبرغم ان احدا لم يتوقع، في تلك الايام، ان تتوحد المانيا بالسرعة التي حصلت، فقد كان من المؤكد ان الاوضاع سائرة نحو تغيير شامل. ومن بين الامور المؤكدة والمتعلقة بمعهد الماركسية – اللينينية (IML) هي عدم تمكنه من الاستمرار في عمله في برلين. أثار هذا اليقين قلق المهتمين والعاملين بمشروع المؤلفات الكاملة لماركس وانجلز (MEGA) في توقف العمل بالمشروع في حال اغلاق المعهد. فمن المعروف ان معهد برلين وبالتعاون مع معهد موسكو كان قد نشر القسم الجاهز من المؤلفات لكن تمويل المشروع كان على عاتق معهد برلين، ومن غير المؤكد ما اذا كان معهد موسكو قادرا على الاستمرار بالمشروع لوحده.

في كانون الاول/ ديسمبر عام 1989 استلم المعهد الدولي للتاريخ الاجتماعي (IISH) في العاصمة الهولندية امستردام نداء استغاثة من معهد برلين. تلاه بعد فترة قصيرة طلب رسمي من معهدي برلين وموسكو للدخول في محادثات لمنع توقف صدور المؤلفات الكاملة. وارسل المعهدان طلبا مماثلا لصندوق فردريك ايبرت الراعي لبيت كارل ماركس في مدينة ترير الالمانية، وكانت في حينها ضمن المانيا الغربية. وافق المعهد الدولي وبيت كارل ماركس بشكل سريع على بدء المحادثات التي عقدت في امستردام في كانون الثاني/ يناير عام 1990.

لا بد من الحديث قليلا عن المؤلفات البحثية كمؤلفات ماركس وانجلز، وتاريخ ارشيفهما، وموقف المعهد الدولي وبيت كارل ماركس من المؤلفات خلال السنين التي سبقت المحادثات كي نفهم اسباب الموافقة السريعة للمعهد الدولي وبيت كارل ماركس.

لماذا نجمع؟

مع تطور الفنون والثقافة في القرنين السابع عشر والثامن عشر بدأت اوروبا بجمع ونشر الاعمال الكاملة لعدد من الكتاب. ويعرف معظم الباحثين مدى صعوبة الحصول على الكتب او المقالات مع تقادم الزمن. اذ تختلف اماكن النشر، او تنفد الطبعات، اما المجلات فيمكن ان تتواجد في عدد قليل من المكتبات، وفي احيان اخرى لا يتبقى من الكتاب الا عدد نزير. بعض الاعمال تم نشرها دون اسم، الخ. لهذا اصبحت عملية جمع مؤلفات كاتب ما وسيلة هامة لتوفير مؤلفاته الى عامة القراء. وكان الاهتمام بجمع ونشر مؤلفات ماركس وانجلز قد ظهر وهما على قيد الحياة.

لقد اتفق الجميع على اهمية ماركس وانجلز لدرجة ان نشر مجاميع منتقاة من مؤلفاتهما ليس بالامر الكاف والمرض للباحثين، اذ لا بد من نشر كامل اعمالهما، وهو عمل طموح اذا ما اردنا تحقيق الكمال اذ يتطلب ذلك الكثير من البحث والتقصي.

فمع مرور الوقت تزداد الحاجة الى تحرير النصوص. وهي عملية يتوجب اجراؤها بدقة تامة ووفقا لرغبة ونوايا المؤلف. ولهذا يجب مطابقة النص المنشور مع مخطوطة المؤلف في حال توفرها. لكن الحال مع ماركس تحديدا، وماركس وانجلز عموما، يختلف تماما واكثر تعقيدا. فهناك العديد من المخطوطات تمثل مراحل مختلفة من عملهما او محاولات ماركس العديدة لايجاد افضل صيغة لافكاره. بل هناك ايضا عدة طبعات لعمل معين خلال حياتهما، وكانا في حالة مستمرة من التنقيح والاضافة على كل طبعة، فما العمل؟ هل يمكن اعتبار ان نوايا المؤلف توضح نفسها في الطبعة الاصلية، الاولى؟ او اعتماد آخر الطبعات؟ لهذا جرى الاتفاق على وضع ايضاحات للقارئ حول الاختلافات بين الطبعات المتعددة.

كان تطور التحرير البحثي على ارتباط وثيق بظهور المعالجة النقدية للتاريخ. فمنذ عصر النهضة، التزم المؤرخون بفكرة ان المعرفة التاريخية الحقيقية يمكن ان تستمد فقط من التحليل العميق للمصادر، للتخلص من التأثيرات الايديولوجية والاسطورية التي من شأنها ان تشوه التاريخ. واهمية المصادر توضح نفسها في كثرة النشر للوثائق. ومثل هذه النشريات تحقق وظيفتان؛ فهي توفر النصوص لعامة القراء، وفي نفس الوقت تهدف الى تفكيك النصوص. الهدف الاول يمكن تحقيقه اليوم من خلال الاستنساخ والمايكروفيلم وغيرها من الوسائل التقنية. ولكن هذه النسخ لا يستخدمها الدارسون الا قليلا. فالكثير منهم لا يفهمها، او حتى يتمكن من قراءتها. لهذا فان الوثائق يعاد نشرها بحرف طباعية بدلا من خط المؤلف. ورغم ذلك يكون على المحرر ان يوفر كل المعلومات المتوفرة عن الاصل الى القارئ، كما يتوجب على المحرر ايضا ان يوفر اية معلومات اضافية تسهل فهم الوثائق، اين، ومن، ولماذا كتبت الوثائق اضافة الى العديد من الايضاحات كلما دعت الحاجة. كل ذلك من شأنه ان يحقق الاهداف النقدية التي ذكرناها آنفا. ولهذا فان طبعات من هذا النوع تكون احيانا، وخصوصا في المانيا، تاريخية – نقدية.

البدايات

المؤلفات بلغتها الالمانية الاصلية

نوقشت فكرة جمع ونشر الاعمال الكاملة لماركس، او ربما، ماركس وانجلز "التي تلائم وتتوافق مع جميع شروط النشر البحثي" لاول مرة خلال اجتماع ضم عددا من الماركسيين النمساويين عام 1910. وقد حضر الاجتماع

ايضا ديفيد ريزانوف الذي بدأ تنفيذ الفكرة في العشرينيات من القرن الماضي، واطلق عليها اسم المؤلفات التاريخية – النقدية الكاملة لماركس وانجلز.
ولو اخذنا الظروف في تلك الايام، يمكن لنا القول ان ما انجزه ريزانوف هو عمل عظيم. لكن المؤلفات الكاملة "الاولى" لم تتقيد إلا جزئيا بمعايير التحرير التاريخية – النقدية. وكان واضعو خطة المؤلفات الكاملة الثانية في اواسط الستينيات واعين لذلك. ووفقا لما ذكرناه آنفا فأن من الواضح ان الطبعة التاريخية – النقدية لا يمكن تحقيقها دون وجود ومراجعة المخطوطات الاصلية، التي كان قسم صغير منها متوفرا في موسكو.
عندما توفي ماركس عام 1883، ترك كل اوراقه لصديقه "عازف الكمان الثاني" انجلز، وعندما تلقف البحر رماد جثمان الاخير عام 1895، ترك اوراقه هو لاوغست بيبل ولادوارد بيرنشتاين اللذين كانا في قيادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي الالماني، وبعد ذلك بسنوات انتقلت اوراق انجلز من لندن الى برلين، وتم ايداعها في ارشيفات الحزب. ووفقا لوصية انجلز فان اوراق ماركس يجب ان تسلم الى بنات ماركس. فأخذتها اولا ابنته ايليانور ماركس ايفلنغ في لندن. وبعد وفاتها عام 1898 استلمت الاوراق ابنته لورا لافارغ التي كانت تعيش عهدذاك في دارفيل بالقرب من باريس. وبعد وفاتها انتقل قسم كبير ايضا من اوراق ماركس الى ارشيفات الحزب الاشتراكي الديمقراطي الالماني في برلين. وهكذا غدا القسم الاكبر من اوراق ماركس وانجلز في ارشيفات الحزب في برلين.
كان ريزانوف، وهو يبدأ الطبعة "الاولى" من المؤلفات في روسيا، قد حصل على موافقة الحزب الاشتراكي الديمقراطي الالماني باستنساخ اوراق ماركس وانجلز المتوفرة لديهم. ولكن بعد انتقال الكومنترن الى مواقع اليسار المتطرف عام 1928، الغى الحزب الالماني اتفاقه مع ريزانوف وكان هذا يعني بداية النهاية للمحاولة الاولى لنشر المؤلفات الكاملة.

برلين وموسكو

بعد تمكن هتلر من الصعود الى السلطة، قام الحزب الاشتراكي الديمقراطي الالماني بنقل ارشيفه القيم الى الخارج، وبعد بضع سنوات بيع هذا الارشيف الى شركة تأمين هولندية قامت بدورها بإهدائه الى المعهد الدولي للتاريخ الاجتماعي (IISH) المنشئ حديثا في امستردام، حيث لا يزال موجودا هناك حتى يومنا هذا. ولهذا كان على معهدي برلين وموسكو وهما يعتزمان الشروع بالعمل على الطبعة الثانية من المؤلفات الكاملة في اواسط الستينيات ان يتوجها الى المعهد الدولي في امستردام.
تردد المعهد الدولي في بادئ الامر. فمن جانب، ان طبعة تاريخية – نقدية للمؤلفات الكاملة لماركس وانجلز هو امر ضروري. والمعهد بطاقمه الصغير لم يكن قادرا على انجاز هذه المهمة بنفسه، ولم يكن هناك اي معهد غربي آخر مستعد للمساهمة في هذا المشروع الضخم. وفي ذلك الوقت ايضا لم يكن ثمة يقين بان معهد موسكو سيساعد اي مشروع غربي يسعى الى الاستفادة من الوثائق الموجودة بحوزته. ومن جانب آخر، فان المعهد الدولي، بصفته معهدا مستقلا، لم يكن مرتاحا لفكرة التعاون مع معاهد حزبية كما هو الحال مع معهدي موسكو وبرلين. ولكن في الاخير سمح المعهد الدولي بالاستفادة من الوثائق الموجودة بحوزته لكنه رفض اية مساهمة مباشرة في المشروع. مقابل ذلك تعهد المعهدان بتوفير

الوثائق التي بحوزتهما للباحثين في المعهد الدولي.
اثبتت السنين، التي تلت، بان التعاون مفيد لكل الاطراف، وبفعل التواصل المستمر بين الباحثين من كلا الطرفين اصبحت العلاقة بينهم اكثر مرونة. وفي ما يتعلق بالمجلدات التي نشرت منذ عام 1975 كان ثمة وضوح لتأثيرات ايديولوجية لكن ذلك لم يؤثر على الطابع البحثي للمشروع. اما بيت كارل ماركس في ترير (المانيا الغربية انذاك) ولكونه يجمع بين فكرتي المتحف ومعهد ابحاث فقد كان متابعا لمشروع المؤلفات منذ بدايته وحافظ على صلته الحميمة مع محرري المؤلفات.

بعد سقوط الجدار

لهذا السبب، كان المعهد الدولي وبيت ماركس في ترير مستعدين عام 1990 للمساهمة في الجهود الرامية الى استمرار مشروع المؤلفات الكاملة، لكنهما وضعا شرطين:
1 – يستمر العمل بمشروع المؤلفات باعتباره عملا اكاديميا خالصا، بمعنى، ان لا تتأثر عملية التحرير بمصالح واحتياجات أي حزب سياسي.
2 – يستمر العمل بمشروع المؤلفات ضمن اطار دولي اوسع، بمعنى، يحق لاي معهد او شخص قادر او – يرغب – المساهمة في العمل على مشروع المؤلفات.
كان الشرط الاول بمثابة مبدأ للعمل. اما الثاني فقد فرضته بعض الاسباب العملية:
1 – لقد عاش ماركس وانجلز في بلدان متعددة: المانيا، فرنسا، بلجيكا، واخيرا في انكلترا. وقد اثر موقفهما الاممي على دراساتهما ونشاطهما السياسي. وهي حقيقة خصوصا بالنسبة الى ماركس الذي شملت دراساته ميادين متنوعة شملت القانون، الفلسفة، التاريخ، الاقتصاد السياسي، التكنولوجيا، الزراعة، الكيمياء، الجيولوجيا، الفيزياء، الرياضيات، علم الاثنيات (الايثنولوجيا)، علم الاعراق (الانثروبولوجيا)، وغيرها، لكنه كان مهموما ايضا بالعديد من البلدان كألمانيا، فرنسا، بريطانيا، ايرلندا، البلدان الاسكندنافية، بولندا، روسيا، بلدان البلقان، ايطاليا، اسبانيا، الولايات المتحدة الاميركية، الصين، الهند، وغيرها. ونتيجة لنشاطهما السياسي غدا ماركس وانجلز شخصيتان اساسيتان ضمن حركة عالمية واسعة النطاق، تطورت في كل بلد وفق شروط وظروف ذلك البلد. وكان من المشكوك فيه ان يتمكن معهد او اثنان من تغطية كل ذلك، ولهذا كانت ثمة حاجة الى اخصائيين متنوعين ومن بلدان عديدة.
2 – ان ثلثي الارشيف الخاص بماركس وانجلز موجود في امستردام والثلث الاخر في موسكو. وفي ذات الوقت فان قسما كبيرا من عمل التحرير يتوجب عمله في المانيا، اذ ان الالمانية هي لغة الطبعة.
3 – كان من المشكوك فيه استمرار العمل في المانيا في المستقبل. لهذا كان لا بد من تقسيم عمل دولي – وتقسيم الكلفة ايضا.
4 – ان انشاء اطار دولي سيساعد في حماية المواصلة في تنفيذ المشروع، حيث كان من المؤمل ان لا يعتمد المشروع على تغير الظروف في بلد ما.
وهكذا تم في خريف عام 1990 انشاء صندوق ماركس – انجلز الدولي في امستردام. وحددت لهذا الصندوق مهمة واحدة لا غير وهي مواصلة وانهاء العمل في المؤلفات الكاملة لماركس وانجلز.
لا بد من التنبيه الى ان تعبير "صندوق" ربما يؤدي الى سوء فهم. فحسب القانون الهولندي يحق لاي انسان انشاء صندوق. كل ما على

الشخص ان يفعله هو الذهاب الى كاتب عدل ليقدم طلبا متفقا مع القانون. وتعبير "صندوق" لا يشترط وجود اية اموال فيه.
المقر الرئيسي للصندوق كان في امستردام وهو يمثل شبكة دولية. له مجلس ادارة يتكون من افراد او معاهد متعاونة مع الصندوق، اضافة الى مكتب سكرتارية صغير لتمشية الامور اليومية، ومجلس تحرير دولي مسؤول عن تنسيق العمل في المشروع وضمان النوعية، وكان للصندوق ايضا مجلس مستشارين دوليين يضم ابرز الباحثين المختصين من جميع انحاء العالم، ومع ذلك لم يكن الصندوق يمتلك اي مبالغ تحت تصرفه.
كان من المؤمل عندما تم انشاء الصندوق عام 1990 ان يتمكن فريقا العمل في برلين وموسكو من الاستمرار في عملهما، وان تحاول الفرق الجديدة ان تمول نفسها ذاتيا. لكن الرياح سارت باتجاه آخر. ففي عام 1989 كان ثمة العشرات من الباحثين يعملون على مشروع المؤلفات في المعهد الماركسي – اللينيني في برلين، اضافة الى فرق اخرى تعمل في العديد من الجامعات في المانيا الديمقراطية. اما في موسكو فقد كان هناك اربعون باحثا. ولكن لم يتبق من جميع الفرق الا النزر اليسير بعد سنتين فقط. فبعد توحيد الالمانيتين انتهى عمل جميع الفرق الالمانية، وبعد فشل محاولة الانقلاب التي قادها يلتسين ضد غورباتشوف في آب 1991 جرى حل المعهد الروسي×. والحقيقة انه قسم الى ثلاثة معاهد جديدة، حيث وضع ارشيف اللجنة المركزية الذي كان يضم وثائق ماركس وانجلز تحت وصاية مفوضية الارشيفات لروسيا الفيدرالية، ووضعت المكتبة تحت وصاية وزارة الثقافة، واحتفظ القسم الثالث بنفسه بصيغة مؤسسة مستقلة. وكان الاخير قادرا على الاستمرار بالعمل بمشروع المؤلفات الا انه كان بحاجة الى التمويل.

تحقيق التقدم

ظل الحال ميؤس منه لفترة من الزمن. لكن صندوق المؤلفات في امستردام لم يكن مستعدا للاستسلام. فقد عمل ما في وسعه لاعلام وتحشيد الرأي العام وانشاء صلات مع السلطات المعنية. واستطاع ان يحصل على دعم شعبي واسع ودعم دولي ضم العديد من الباحثين والفنانين والسياسيين من المانيا، فرنسا، ايطاليا، بريطانيا، هولندا، دنمارك، روسيا، اليابان، ومؤخرا الولايات المتحدة الاميركية.
هكذا تمكن الصندوق من تحقيق بعض النجاح. وبقدر ما يتعلق الامر بالمانيا، وبعد فترة طويلة من التردد اصدر المستشار الالماني هيلموت كول قرارا بضرورة مواصلة العمل بمشروع المؤلفات، ولكن، طبعا، حسب الطرق المعمول بها في الدول الغربية في مشاريع من هذا النوع. فجرى تخصيص رواتب لسبعة موظفين دائمين، ثم جرى تنسيبهم عام 1993 الى اكاديمية العلوم في برلين – براندنبيرغ التي تأسست حديثا في برلين.
في نفس الفترة، وتحديدا في بداية عام 1992 تم انشاء فريق اخر الماني – فرنسي يضم اعضاء من بيت كارل ماركس، ومجموعة من الباحثين الفرنسيين المهتمين بالحضارة الالمانية في جامعة اكس بروفنس في جنوب فرنسا. واستقرت الحالة في نفس العام في موسكو. فقد بقي حوالي عشرين باحثا في المعهد المستقل، وانتقل القسم الآخر الى المركز الروسي للارشيف. وكان الفريقان يمولان من المعهد الدولي للتاريخ الاجتماعي في امستردام بمساعدة الحكومة الهولندية اولا ثم بمساعدة

الاتحاد الاوروبي ابتداء من عام 1995.
وبالتالي يمكن القول ان الاوضاع بدأت بالتحسن منذ عام 1992. واصبح بمقدور الصندوق الدولي ان يركز على انجاز مهمته الاساسية، تنفيذ مشروع المؤلفات الكاملة. وشعرت هيئة التحرير ان عليها اولا معاينة مبادئ عملية التحرير للمؤلفات. وعقدت لهذا الغرض مؤتمرا دوليا في جامعة اكس بروفنس الفرنسية. حضر المؤتمر العاملون في الصندوق، الاعضاء السابقون والجدد في مجلس التحرير وعدد من المختصين البارزين في مجال التحرير. وبعد مناقشات حيوية جرى تبني مبادئ جديدة واتفق على نشرها لاطلاع العامة من الناس المهتمة بالمؤلفات.
كما جرى الاتفاق على اعادة النظر في خطة نشر المؤلفات. فقد كانت الخطة الاولية تضم نشر 177 مجلدا، وهو عدد كبير جدا. وبعد محاولات عديدة لتقليل عدد المجلدات مع الاحتفاظ بمعنى تعبير "الكاملة"، الذي يمكن النظر إليه من زوايا مختلفة، فالكاملة يمكن ان تعني ما نشره المؤلف في حياته، لكن لا يمكن تطبيق ذلك على ماركس، فكما هو معروف كان لماركس خطط كبيرة لكنه لم يتمكن من تحقيق إلا قسم قليل منها، تاركا بعد رحيله كماً هائلاً من المسوّدات والملاحظات، لهذا لم تكن النقاشات التي شهدها القرن العشرون، حول كتاباته التي لم تنشر في حياته ولم تكن بشكلها الاصلي الذي خطط له هو بنفسه، محض صدفة، كما هو الحال بالمجلدين الثاني والثالث من رأس المال، وايضا "المخطوطات الاقتصادية – الفلسفية لعام 1844"، "الايديولوجيا الالمانية" و"الغروندريسة". لهذا فان واحدة من اهم الانجازات التي ستحققها المؤلفات الكاملة هي نشرها المجلدين الثاني والثالث لرأس المال بطبعتها المحررة من قبل انجلز مضافا اليها كل مسودات ماركس.
واقترح ايضا عدم نشر المقتبسات والملاحظات التي قد تحتل 30 مجلدا، ولم يؤخذ بهذا الاقتراح لان الاقتباسات والملاحظات تشكل جزءا مكملا، بل وهاما ايضا، كونها ستمكننا من متابعة الكيفية التي سار عليها ماركس لكتابة اعماله ولكونها توضح ما الذي وجده ماركس مهما في الكتب التي اقتبس منها ليضيفه الى مسوداته الاولى.
وكان هناك اقتراح بعدم نشر المراسلات التي يمكن ان تحتل قرابة 30 مجلدا ايضا. او على الاقل ان تحذف الرسائل الى ماركس وانجلز. لكن هذين المقترحين لما يحوزا على الموافقة. فمراسلات ماركس وانجلز مع حوالي 2000 شخصية. 4000 رسالة من ماركس وانجلز و10000 رسالة لهما قد احتفظ بها. كل هذه المراسلات تغطي قرابة ستين عاما (1835 – 1895) وتمثل مصدرا هاما للمعلومات حول تاريخ الحركة العمالية الالمانية والعالمية، وتاريخ الافكار والتاريخ الثقافي للقرن التاسع عشر. وتقريبا قد جرى نشر جميع الرسائل من ماركس وانجلز ولا تزال معظم الرسائل اليهما غير منشورة.
ثمة طريقة اخرى لتقليص عدد المجلدات وهي عدم نشر كل شيء بصيغته الكاملة اذ يمكن حذف القسم الذي يجري تكراره في اكثر من عمل مع الاشارة الى ذلك في الهوامش. وبهذه الطريقة وبغيرها تم تقليص العدد الى 114 مجلدا.

الوضع الحالي

عندما تأسس الصندوق الدولي لماركس وانجلز عام 1990، كان هناك 43 مجلدا او اجزاء مجلدات قد نشرت، وتصاعد العدد الى 55 مجلدا لغاية عام 2008.. واضافة الى الفرق الاربعة التي اشرنا اليها، نشأت اربع فرق

اخرى عام 1997، الفريق الياباني، الفريق الدانماركي، الفريق الالماني – الهولندي في برلين/امستردام، والفريق الاميركي. وهكذا يوجد اليوم ثلاثة عشر فريقا، موزعين على المانيا، فرنسا، روسيا،هولندا، الدانمارك، اليابان، النمسا، اميركا.

ولا يزال امام الفرق مهمة نشر المجلدات الباقية.

كل ما ذكرناه آنفا يتعلق بالمؤلفات الكاملة بلغتها الالمانية. اما بالنسبة للمؤلفات الكاملة باللغة الانجليزية فحكايتها كما يأتي:
كانت البداية عام 1975 حيث نشر المجلد الاول من المؤلفات "الكاملة" ووصل العدد المنشور منها الى 52 مجلدا. الا ان هذه المؤلفات الكاملة هي ليست كاملة لسببين: الاول انها اعتمدت "ما نشر من مؤلفات ماركس وانجلز خلال حياتهما" وقد وضحنا سابقا الاسباب التي تجعل مثل هذا المنهج لا يناسب شخصيتين كماركس وانجلز، وثانيا ان تعريف الطبعة ينص على انها "تشمل جزءا كبيرا من المخطوطات والرسائل".
ولتفاصيل اكثر سعة حسبي ان احيل القارئ الى ما نشره الدكتور فالح عبد الجبار كملحق لترجمته "نتائج عملية الانتاج المباشرة: الجزء المجهول من رأس المال" عام 1989.
كانت السعادة كبيرة لتوفر هذه الطبعة الانجليزية الكترونيا، حيث مكنت العديد من الاكاديميين والباحثين من متابعة الجذر الماركسي للوصول الى رؤى وطروحات جديدة تخدم الفكر الماركسي. الا ان الفرحة لم تستمر؛ اذ قامت دار لورنس اند ويشارت الانجليزية، بعد فترة من توقيعها اتفاقية مع دار التقدم في موسكو ودار انترناشونال ببلشرز الاميركية تقضي باصدار الطبعة الانجليزية كعمل مشترك، باحتكار النسخة الالكترونية التي كانت تصدر برعاية الارشيف الماركسي الالكتروني ابتداء من 30 ابريل 2014، واصبح على المهتمين بالطبعة الانجليزية ان يقتنوها بثمن يصل الى 2600 باون استرليني. ولم يبق في حوزة الارشيف الماركسي الالكتروني سوى 35 مادة يمكن للمهتمين الحصول عليها على الرابط الآتي:
https://www.marxists.org/archive/marx/works/download/index.htm
اضافة الى ذلك ثمة اجزاء من المجلدات، جرت ترجمتها الى الانجليزية ووضع مقدمات لها من قبل عدد من الباحثين الانجليز او الاميركان. ونخص بالذكر قيام الباحث الاميركي لورنس كريدر وبالتعاون مع المعهد الدولي للتاريخ الاجتماعي في امستردام في تحرير وكتابة مقدمة طويلة لـ"دفاتر الملاحظات الاثينولوجية لكارل ماركس" عام 1976. والكتاب الآن قيد الترجمة الى اللغة العربية، من قبل كاتب هذه السطور بالتعاون مع مركز لورنس كريدر للأبحاث، التابع لجامعة مكماستر الكندية في مدينة هاملتون.
اما الحديث عن المؤلفات الكاملة لماركس وانجلز باللغة العربية فهو حديث ذو شجون، وينطبق عليه القول بان من يريد قراءة ماركس فعليه بالالمانية، فأن لم يستطع فبالانجليزية او الفرنسية، فان لم يستطع فبالعربية وهذا اضعف الايمان. ففي دراسة للباحث فالح عبد الجبار نشرت في الثقافة الجديدة، العدد 162، سنة 1985، تمت الاشارة الى "ان نصف التراث الاقتصادي لماركس (وليس تراث ماركس وانجلز كاملا، ث.ص) لا يزال مجهولا للقارئ العربي".
وخدمة لاغراض البحث العلمي ندرج ادناه ثبتا بالاعمال المنشورة عربيا من المؤلفات معتمدين على ما في حوزتنا من معلومات ومتمنين على المهتمين ان يضيفوا اليه لاحقا:

عنوان الكتاب او المقالة	المؤلف	سنة الترجمة والنشر	ملاحظات
موجز رأس المال	أنجلز	٢٠٠٨	ترجمة فالح عبد الجبار
رأس المال	ماركس	٢٠١٣	ترجمة فالح عبد الجبار اول طبعة عربية كاملة تضم ثلاث مجلدات
الغروندريسة (المقدمة)	ماركس		ترجمة عصام الخفاجي
الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية	انجلز	١٩٨٥	دار التقدم
الاجوروالاسعاروالارباح	ماركس	١٩٧٥	دار التقدم
لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية	أنجلز	١٩٧٤	دار التقدم
انتي دوهرنغ	أنجلز	١٩٨٤	دار التقدم
اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة	أنجلز	١٩٧٥	دار التقدم
بيان الحزب الشيوعي	ماركس/أنجلز	١٩٧٤	دار التقدم
الاسرة المقدسة	ماركس/أنجلز	١٩٧٥	ترجمة رزق الله غيلان
مساهمة في نقد فلسفة الحق عند هيغل (المقدمة)	ماركس	١٩٨٨	دار التقدم
خطوط اوليو لنقد الاقتصاد السياسي	انجلز	١٩٨٨	دار التقدم
موضوعات عن فيورباخ	ماركس	١٩٨٨	دار التقدم
فيورباخ، التضاد بين العقيدة المادية والعقيدة المثالية (الفصل الاول من كتاب الايديولوجيا الالمانية)	ماركس/ انجلز	١٩٨٨	دار التقدم
بؤس الفلسفة	ماركس	١٩٨٨	دار التقدم
ماركس ورودبرتوس (مقدمة للطبعة الالمانية الاولى لكتاب بؤس الفلسفة)	أنجلز	١٩٨٨	دار التقدم
العمل المأجور ورأس المال	ماركس	١٩٨٧	دار التقدم
الثامن عشر من برومير لويس بونابارت	ماركس	١٩٨٧	دار التقدم
مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي	ماركس	١٩٨٧	دار التقدم
حرب الفلاحين في المانيا (المقدمة)	انجلز	١٩٨٧	دار التقدم
الحرب الاهلية في فرنسا	ماركس	١٩٨٧	دار التقدم
بصدد نشاط الطبقة العاملة السياسي	انجلز	١٩٨٧	دار التقدم
نقد برنامج غوته	ماركس	١٩٨٧	دار التقدم
مقدمة كتاب ديالكتيك الطبيعة	انجلز	١٩٨٧	دار التقدم
مسألة الفلاحين في فرنسا والمانيا	انجلز	١٩٨٧	دار التقدم
النضال الطبقي في فرنسا من ١٨٤٨ الى ١٨٥٠ (المقدمة)	انجلز	١٩٨٧	دار التقدم
رسائل مختارة ١٨٤٤-١٨٩٥	ماركس/ انجلز	١٩٨٢	دار التقدم
المخطوطات الفلسفية – الاقتصادية ١٨٤٤	ماركس		تُرجم ترجمة غير مرضية
نظام العمل الأجور	انجلز		دار التقدم
رسالة الى لودفيغ كوغلمان ١٢ نيسان ١٨٧١	ماركس	١٩٨٧	دار التقدم
رسالة الى لودفيغ كوغلمان ١٧ نيسان ١٨٧١	ماركس	١٩٨٧	دار التقدم
رسالة الى فردريك بولته ٢٣ تشرين الثاني ١٨٧١	ماركس	١٩٨٧	دار التقدم
رسالة الى اوغست بيبل ٢٠ حزيران ١٨٧٣	انجلز	١٩٨٧	دار التقدم
ملاحظات انتقادية على مقالة البروسي: " الملك البروسي والاصلاح الاجتماعي" (مقتطف)	ماركس	١٩٨٣	دار التقدم
كلمتان في البرفلد (مقتطف)	انجلز	١٩٨٣	دار التقدم
مبادئ الشيوعية (مقتطف)	انجلز	١٩٨٣	دار التقدم

رسالة اللجنة المركزية الى عصبة الشيوعيين	ماركس/انجلز	١٩٨٣	دار التقدم
بيان الى رئيس تحرير	ماركس	١٩٨٣	دار التقدم
فضائح محاكمة الشيوعيين في كولونيا (مقتطف)	ماركس	١٩٨٣	دار التقدم
النتائج المقبلة للحكم البريطاني في الهند (مقتطف)	ماركس	١٩٨٣	دار التقدم
رسالة الى البرلمان العمالي	ماركس	١٩٨٣	دار التقدم
كلمة في يوبيل " جريدة الشعب"	ماركس	١٩٨٣	دار التقدم
النظام الداخلي المؤقت لجمعية الشغيلة العالمية (مقتطف)	ماركس	١٩٨٣	دار التقدم
في السلطان	انجلز	١٩٨٣	دار التقدم
الباكونينيون في العمل: مذكرات عن الانتفاضة في اسبانيا صيف ١٨٧٣	انجلز	١٩٨٣	دار التقدم
ملاحظات على برنامج حزب العمال الالماني	ماركس	١٩٨٣	دار التقدم
رسالة الى هيئة تحرير " اوتيتشستفيني زابيسكي"	ماركس	١٩٨٣	دار التقدم
المناقشات في الرايخستاغ حول القانون ضد الاشتراكيين (مقتطف من مسودة)	ماركس	١٩٨٣	دار التقدم
مقابلة مع جريدة شيكاغو تربيون (مقتطف)	ماركس	١٩٨٣	دار التقدم
مقدمة لبرنامج حزب العمال الفرنسي	ماركس	١٩٨٣	دار التقدم
الطبقات الاجتماعية، الضرورية والزائدة	انجلز	١٩٨٣	دار التقدم
لمناسبة وفاة كارل ماركس (مقتطف)	انجلز	١٩٨٣	دار التقدم
رسالة الى برنشتين ٢٧ آب ١٨٨٣ (مقتطف)	انجلز	١٩٨٣	دار التقدم
مقدمة كراس بوركهيم " على ذكرى الوطنيين الصياحين في ١٨٠٦-١٨٠٧" (مقتطف)	انجلز	١٩٨٣	دار التقدم
مساهمة في نقد مشروع البرنامج الاشتراكي الديمقراطي لسنة١٨٩١ (مقتطف)	انجلز	١٩٨٣	دار التقدم
جواب الى المحترم دجوفاني بوفيو	انجلز	١٩٨٣	دار التقدم
رسالة الى بول لافارغ ١٢ تشرين الثاني ١٨٩٢ (مقتطف)	انجلز	١٩٨٣	دار التقدم
تحية الى المؤتمر العالمي للطلاب الاشتراكيين (مقتطف)	انجلز	١٩٨٣	دار التقدم
المسألة الاجتماعية في روسيا (مقتطف من الخاتمة)	انجلز	١٩٨٣	دار التقدم
الثورة الايطالية المقبلة والحزب الاشتراكي (مقتطف)	انجلز	١٩٨٣	دار التقدم
رسالة الى بول لافارغ ٦ آذار ١٨٩٤ (مقتطف)	انجلز	١٩٨٣	دار التقدم
مناقشات لاندتاغ الرين السادس (مقتطف)	ماركس	١٩٨٨	دار التقدم
تبربر المراسل الموزيلي (مقتطف)	ماركس	١٩٨٨	دار التقدم
نجاحات الحركة في سبيل التحويل الاجتماعي في القارة (مقتطف)	انجلز	١٩٨٨	دار التقدم
وضع انكلترا (مقتطف)	انجلز	١٩٨٨	دار التقدم
حال الطبقة العاملة في انكلترا (مقتطف)	انجلز	١٩٨٨	دار التقدم
المسألة الدستورية في المانيا (مقتطف)	انجلز	١٩٨٨	دار التقدم
الحرب الاهلية في سويسرا (مقتطف)	انجلز	١٩٨٨	دار التقدم
مناقشات برلين حول الثورة (مقتطف)	انجلز	١٩٨٨	دار التقدم
تقريظ اميل دي جيراردن " الاشتراكية والضريبة" (مقتطف)	ماركس/انجلز	١٩٨٨	دار التقدم
اضواء على مسألة السكن (مقتطف)	انجلز	١٩٨٨	دار التقدم
رسالة الى هنري مايرس هايندمان ٨ كانون الاول ١٨٨٠ (مقتطف)	ماركس	١٩٨٨	دار التقدم
المخطوطات الاقتصادية ١٨٦١-١٨٦٣ (مقتطف)	ماركس	١٩٨٨	دار التقدم

تأميم الارض (مقتطف)	ماركس	١٩٨٨	دار التقدم
الازمات الداخلية (مقتطف)	انجلز	١٩٨٨	دار التقدم
الحكومة والمعارضة في فرنسا (مقتطف)	انجلز	١٩٨٨	دار التقدم
حرية المناقشات في برلين (مقتطف)	ماركس/ انجلز	١٩٨٨	دار التقدم
مسالة يوم العمل من عشر ساعات (مقتطف)	انجلز	١٩٨٨	دار التقدم
دستور الجمهورية الفرنسية المتخذ في ٤ تشرين الثاني ١٨٤٨ (مقتطف)	ماركس	١٩٨٨	دار التقدم
الاسباب الفعلية لهمود البروليتاريين الفرنسيين النسبي في كانون الاول من السنة الماضية (مقتطف)	انجلز	١٩٨٨	دار التقدم
الوضع في بروسيا (مقتطف)	ماركس	١٩٨٨	دار التقدم
المجازر البلجيكية (مقتطف)	ماركس	١٩٨٨	دار التقدم
رسالة الى اوغست بيبل ٦ حزيران ١٨٨٤ (مقتطف)	انجلز	١٩٨٨	دار التقدم
رسالة الى اوغست بيبل ١٨ تشرين الثاني ١٨٨٤ (مقتطف)	انجلز	١٩٨٨	دار التقدم
مخطوطة دور العنف في التاريخ (مقتطف)	انجلز	١٩٨٨	دار التقدم
رسالة الى اوغست بيبل ١١-١٢ كانون الاول ١٨٨٤ (مقتطف)	انجلز	١٩٨٨	دار التقدم
المخطوطات الاقتصادية ١٨٥٧-١٨٥٩ الغروندريسة (مقتطف)	ماركس	١٩٨٨	دار التقدم
خطاب في ذكرى مرور سبع سنوات على الاممية (مقتطف)	ماركس	١٩٨٨	دار التقدم
خطاب عن مؤتمر لاهاي (مقتطف)	ماركس	١٩٨٨	دار التقدم
حزب العمال (مقتطف)	انجلز	١٩٨٨	دار التقدم

يتضح مما سبق ان القارئ العربي لم يطلع الا على بضعة اعمال كاملة، اما الباقي فهي مجرد مقتطفات لا غير. فهل نأمل يوما ان نصل الى مرتبة القارئ بالانجليزية او الفرنسية، دع عنك القارئ الالماني؟

• (في 19 آب/ أغسطس/ 1991 تم اعلان حالة الطوارئ في البلاد وانتقال السلطة إلى لجنة الدولة لحالة الطوارئ، وضمت ثمانية مسؤولين رفيعي المستوى لم يكن يلتسن من بينهم – المحرر).

مفهوم الحقوق السياسية للمرأة وتطوره

جاسم هداد

جاسم هداد خريج معهد الهندسة التطبيقية العالي - جامعة بغداد عام 1970، ماجستير في القانون الدستوري بإمتياز من معهد البحوث والدراسات العربية في القاهرة، صدر له "حقوق المرأة السياسية في الدساتير العراقية" عن دار الرواد المزدهرة، بغداد، 2015.

تمهيد وتقسيم:

أشارت المواثيق الدولية إلى حق المرأة وإلى دورها في الحياة السياسية، وما لبث أن قنن ذلك في دساتير البلدان كنوع من الحقوق المكفولة للمرأة في مزاولة الحياة السياسية، وإلزامية وجودها في المجالس والبرلمانات التشريعية، تمارس في ذلك مختلف حقوقها في الانتخاب والتصويت، إيماناً بأهمية حقها في المشاركة والتمثيل في الحياة السياسية باعتبارها نواة أساسية في المجتمع.

وسيتم تقسيم الدراسة الى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مفهوم الحقوق السياسية

اهتم الفقه الدستوري بالحقوق السياسية، وتنص عليها أغلب الدساتير، أو تشير إلى مضمونها، وتعتبر الحقوق السياسية من أهم الحقوق التي تضمنها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وأكدتها المواثيق الدولية، وتعتبر اليوم جزءاً مهماً من حقوق الإنسان (1).

مع الأخذ بالاعتبار أن توافر الحريات العامة كفيل بتحقق الحقوق السياسية، وهذه الحقوق خير ساند وضامن للحريات العامة (2)، وهي بنفس الوقت أفضل وسيلة شرعية للدفاع عن حقوق وحريات المواطنين عند تعرضها للتقييد (3)، كما أن نظام الحكم له دور أساسي في تحديد شكل التمتع بالحقوق السياسية وأسلوبه. وكما سبق، فإن بعض الدساتير تشير بوضوح إلى "التمتع بالحقوق السياسية" كدستور جمهورية العراق لسنة 2005؛ حيث نصت المادة (20) منه على أن: (للمواطنين رجالاً ونساء حق المشاركة في الشؤون العامة، والتمتع بالحقوق السياسية، بما فيها حق التصويت والانتخاب والترشيح) (4)، ودستور جمهورية مصر العربية لسنة 2014 نص على ذلك بمادة مستقلة؛ حيث نصت المادة (87) منه على أن: (مشاركة المواطن في الحياة العامة واجب وطني، ولكل مواطن حق الانتخاب، والترشح، وإبداء الرأي في الاستفتاء، وينظم القانون مباشرة هذه الحقوق ...) (5) .

أما دستور المملكة المغربية لسنة 2011، فنص في الفصل (19) على أنه: (يتمتع الرجل والمرأة، على قدم المساواة، بالحقوق والحريات المدنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والبيئية الواردة في هذا الباب من الدستور، وفي مقتضياته الأخرى، وكذا في الاتفاقيات والمواثيق الدولية، كما صادق عليها المغرب، وكل ذلك في أحكام الدستور، وثوابت المملكة وقوانينها، كما تسعى الدولة الى تحقيق المناصفة بين الرجل والنساء، وتحدث لهذه الغاية، هيئة للمناصفة ومكافحة كل أشكال التمييز) (6).

ودستور الجمهورية اللبنانية نص في المادة (7) على أن: (كل اللبنانيين سواء لدى القانون وهم يتمتعون بالسواء بالحقوق المدنية والسياسية ويتحملون الفرائض والواجبات العامة دونما فرق بينهم) (7).

هذا ويُعرِّف فقهاء القانون الحقوق السياسية بأنها: الحقوق التي يقننها القانون لتمكين المواطن من المشاركة في الحياة السياسية، كحق الإنتخاب والترشيح؛ فيعرّفها الأستاذ سالم البهنساوي بأنها: (حق المواطن في أن يشترك في إدارة شؤون الدولة، ويكون ذلك بطريق مباشر بالنسبة لمنصب رئيس الدولة ومنصب الوزير، وقد يكون ذلك بطريق غير مباشر، أي: يشترك المواطن في إدارة شؤون البلد عن طريق ممثلين عنه هم أعضاء المجالس المختلفة، كمجلس الأمة، والمجلس البلدي، وسائر المجالس المحلية؛ فالحق السياسي بالمفهوم العام هو الانتخاب، والترشيح، وحق تولي الوظائف العامة) (8).

أما الدكتور علي الباز، فيعرف الحقوق السياسية بأنها: (حقوق الإنسان في الاشتراك في إدارة شؤون مجتمعه) (9)، في حين ذهب الدكتور عبد الناصر توفيق العطار، إلى تعريفها بأنها: (الحقوق التي تتقرر للإنسان ليشارك في النظام السياسي للجماعة، وأهمها حق تولي الوظائف العامة وحق الانتخاب وحق الترشيح) (10).

ويعرفها د. حسني قمر بأنها: (هي التي تهدف إلى إشراك الفرد في حكم بلاده، بإعطائه الحق في تكوين الأحزاب والجمعيات السياسية، أو الدخول في عضويتها، والحق في الترشح لرئاسة الدولة، أو لأن يكون نائباً في المجالس النيابية، أو المجالس المحلية، والحق في الانتخاب وإبداء الرأي في الاستفتاء، والحق في تولي الوظائف العامة في الدولة) (11).

أما الدكتور محمود عاطف البنا، فيرى أن الحقوق السياسية تتضمن (مساهمة الأفراد في تكوين الإرادة الجماعية، سواء بالاشتراك في تكوين الهيئات الحاكمة عن طريق الانتخاب والترشيح، او بالاشتراك معها في صنع القرارات بالاستفتاء وغيره من مظاهر الديمقراطية شبه المباشرة، وحق تكوين الأحزاب، والانضمام إليها باعتباره متفرعاً ومترتباً عليها) (12).

والدكتور محمد أنس قاسم جعفر يعرف الحقوق السياسية بأنها: (الحقوق التي يقرها القانون ويعترف بها للشخص على اساس الإنتماء الوطني) (13).

أما أستاذنا الدكتور صلاح الدين فوزي، فيرى، أن الحقوق السياسية تتعلق بـ (حق المواطن في الممارسة السياسية

بالطريق المباشر) (14)، وأنها تتفرع إلى ثلاثة فروع:

أ. حق تكوين الأحزاب السياسية، والانضمام إليها، والانسحاب منها.

ب. حق الترشيح للمجالس المختلفة.

ج. حق المساهمة بالرأي والكلمة في الاستفتاء والانتخابات.

وأرى إضافة حق التظاهر السلمي، لما تم ذكره أعلاه.

وبناءً على التعريفات السابقة يمكن القول بأن الحقوق السياسية هي: حق المشاركة في إدارة الشؤون العامة، بشكل مباشر أو غير مباشر، من خلال الانتخاب أو الترشح أو تولي الوظيفة العامة.

ولقد اعتبر الدستور المصري الحقوق السياسية من الحقوق العامة، وكما ذهبت المحكمة الدستورية العليا المصرية في أحد أحكامها إلى:

(إن الحقوق السياسية ومن بينها حق الترشيح الذي عني الدستور بالنص عليه صراحة مع حق الانتخاب وإبداء الرأي في الاستفتاء، اعتبرها الدستور من الحقوق العامة التي حرص على كفالتها، وتمكين المواطنين من ممارستها؛ لضمان إسهامهم في اختيار قياداتهم وممثليهم في إدارة دفة الحكم، ورعاية مصالح الجماعة، وذلك بطريق الانتخاب، ولم يقف الدستور عند مجرد ضمان حق كل مواطن في مباشرة تلك الحقوق، وإنما جاوز ذلك إلى اعتبار مساهمته في الحياة العامة أهمية؛ لاتصالها بالسيادة الشعبية التي تعتبر قواماً لكل تنظيم يرتكز على إرادة هيئة الناخبين، ومن ثم فإن القواعد التي يتولى المشرع وضعها تنظيماً لهذه الحقوق يتعين أن لا تؤدي إلى مصاهرتها أو الانتقاص منها، كما يتعين ألا تخل القيود التي يفرضها المشرع في مجال هذا التنظيم بمبدأي تكافؤ الفرص والمساواة لدى القانون الذي تضمنهما الدستور بما نص عليه في المادة (8) من أن "تكفل الدولة تكافؤ الفرص لجميع المواطنين" وفي المادة (40) من أن "المواطنين لدى القانون سواء، وهم متساوون في الحقوق والواجبات العامة لا تمييز بينهم في ذلك بسبب الجنس أو الأصل أو اللغة أو الدين أو العقيدة (بما مؤداه امتناع فرض قيود على مباشرة الحقوق السياسية التي نص عليها الدستور في غير مقتضى من طبيعتها أو متطلبات ممارستها)" (15).

والمشاركة السياسية تتيح للمواطنين فرصة المشاركة في إدارة الشؤون العامة لبلادهم؛ لذا فإنها تعتبر رافعة أساسية لبناء أي مجتمع، وعاملاً مهماً في تطوره، وتجدر الإشارة إلى أن الوعي الانتخابي للمواطنين ومعرفتهم بحقوقهم وواجباتهم له تأثير كبير على دور المشاركة السياسية، وما تحققه من أهداف مرجوة منها.

كما إن أنظمة الحكم تحدد شكل وحدود حق المشاركة السياسية، وهذه الأخيرة تكون مقياساً حقيقياً لمدى ديمقراطية نظام الحكم وأدوات المشاركة السياسية هي الانتخاب والترشيح والاستفتاء (15).

والمشاركة السياسية تترك تأثيرها على الأفراد وعلى السياسة العامة للدولة؛ حيث تنمي في الفرد روح الشعور بالمواطنة، وتقوي فيه الإحساس الذاتي بكيانه، وتربي فيه الشعور بالمسؤولية،

وتغرز فيه حب الوطن والذود عنه، كما يزيد من ارتباطه بالمجتمع الذي يعيش فيه.

أما على صعيد السياسة العامة للدولة فإن المشاركة تعني عكس رغبات المواطنين عند صياغة القرار السياسي الذي يجب أن يكون نتاج مشاركة جماهيرية حقيقية، وليس تعبيراً عن إرادة القلة المسيطرة سياسياً.

وللمشاركة السياسية دور كبير في نقل مطالب الجماهير إلى الحكومة والجهات الرسمية في البلد، وبذلك تكون عاملاً مساعداً للسلطات الرسمية في تحقيقها، وكما تلعب دورها في الضغط على الجهات الحكومية لذلك، مما يمكنها من تأدية دورها في تقليل استغلال السلطة للمواطنين وتحقيق قيم المساواة والحرية (17).

وقرر العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية لسنة 1966 خمسة مبادئ عامة في مجال الحقوق السياسية، هي:

1 ـ حق المشاركة في سير الحياة العامة والخدمة العامة دون تمييز.
2. حق الانتخاب.
3. حق الترشيح.
4. حق الإقتراع العام.
5. حرية الانتخابات ونزاهتها.

المبحث الثاني
التطور التاريخي للحقوق السياسية

تعد الحضارة الفرعونية من أقدم الحضارات البشرية إن لم تكن أقدمها في تجسيد الفكر القانوني لحماية حقوق الإنسان، وقد كان المجتمع السياسي في مصر القديمة يتمثل في شخص الملك الذي يجمع بين يديه جميع السلطات تشريعية وقضائية وتنفيذية، وكذلك سلطته سلطة مطلقة غير مقيدة بدستور أو بقانون، وكان الملك يحتل مركز الكاهن الأعظم، ويقوم بدور الوسيط بين الآلهة والبشر (18)، ويرى أكثر الباحثين أن تاريخ الفكر السياسي في مصر الفرعونية يبدأ بعصر الأسرات (19)؛ حيث أصبح تعيين الملك وراثياً، وقد تميز نظام الحكم الفرعوني بعدم إشراك المصريين في شؤون الحكم بأية صورة من الصور، ولم يتمتع المصريون بحقوق سياسية؛ حيث لم تكن لهم مجالس سياسية أو نيابية، ولكنهم متساوون أمام القانون؛ فهم يخضعون لقانون واحد وقضاء واحد هو قضاء الدولة (20).

أما في بلاد الرافدين فكانت هناك حضارات عريقة حثت على وجوب احترام حقوق الإنسان، والحقوق السياسية جزء مهم من هذه الحقوق، وإن تطبيق العدالة يعتبر من الحقوق المهمة في منظومة حقوق الإنسان. ففي المجتمع العراقي القديم لمحة لحقوق سياسية، حيث دلّت الاكتشافات الأثرية في عصر دويلات المدن السومرية، (الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد) أن نظام الحكم لم يكن حكماً مطلقاً، وكان الملك مقيداً بقواعد دينية وعرفية وقانونية تلزمه بإتباع ما تأمر به العدالة والقانون، وهناك مجالس عامة تشارك الحكام مهام الحكم خاصة في الأمور ذات الأهمية البالغة. وهذه المجالس العامة كانت تقوم بوظائف هي أقرب ما تكون إلى عمل المجالس النيابية في وقتنا الحالي، وتعتبر أول برلمان في العالم، وكان مكوناً من مجلسين، هما:

مجلس الشيوخ ويضم في عضويته أشراف القوم وكبار موظفي المدينة، وممن لهم خبرة وحنكة في أمور الحياة العامة، ومعروف في الوسط الاجتماعي، ومجلس المحاربين، ويضم الرجال القادرين على حمل السلاح والدفاع عن الدويلة.

وقد نادت التشريعات القانونية في العراق القديم بحقوق الإنسان، وبذلك سجلت سبقاً في هذا المجال بآلاف السنين، حيث قنن أوركاجينا (21) في إصلاحاته القوانين التي وفرت للشعب الحرية والعدالة (22)، ويعود تاريخ هذه الإصلاحات إلى عام 2355 ق.م ولقد ظهرت كلمة "الحرية" لأول مرة في التاريخ البشري في هذه الوثيقة العراقية القديمة.

ومنذ قيام حضارة الإغريق في مدنهم، عرفت البلاد نظام المدن السياسية، ولقد عرف المواطن الإغريقي المشاركة في الحكم، أي: المشاركة في الأمور السياسية، ولقد ظهرت أصول علم السياسة على ألسنة فلاسفة ومفكري الإغريق، وكانت لآرائهم تأثير كبير على الفكر الأوربي، الذي استقى منها نظرياته وأسس عليها مذاهبه، ومدينة أثينا تقدم مثالاً جيداً للنظام الديمقراطي في العصر الإغريقي، واعتبرت الديمقراطية المباشرة هي الأسلوب الأمثل للحكم.

أما روما فلقد مرّت بتطورات سياسية واجتماعية واقتصادية، فمن مدينة إلى نظام ملكي فجمهوري فإمبراطوري. ونتيجة للتطور الحضاري للمجتمع الروماني، والذي ترك تأثيره على القانون، تنوعت مصادره، فإضافة إلى العرف ظهر التشريع والفقه، وصدر عام 451 ق.م قانون الألواح الأثني عشر، ونتيجة لتحول روما إلى مركز تجاري، تكونت قواعد عرفية أطلق عليها قانون الشعوب، ويعتبر القانون الروماني المصدر التاريخي للكثير من القوانين الأوربية، ومنها القانون المدني الفرنسي، الذي له تأثير كبير على القوانين المدنية لكثير من الدول العربية، ولو بدرجات متفاوتة.

أما في العصر الحديث، فمن أهم إنجازات الثورة الفرنسية التي أطاحت بالنظام الملكي المطلق الذي حكم فرنسا لعدة قرون: نشر مبادئ المساواة في الحقوق والمواطنة والحرية، والتي لم يقتصر تأثيرها على فرنسا، بل انتقل إلى جميع أوربا، ثم عمَّ العالم أجمع.

ويُعتَبر الإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان والمواطن من الوثائق الأساسية للثورة الفرنسية، وقد تمت صياغته من قبل "الماركيز دي لافايت"، وهو أحد المشاركين في حرب استقلال أمريكا الشمالية، وتبنته الجمعية الوطنية في 26 آب/ أغسطس 1789، ولقد تأثر الإعلان بنظرية العقد الاجتماعي لـ "جان جاك روسو"، والذي يعتبر منظر الثورة الفرنسية، وبما جاء بإعلان الاستقلال الأمريكي الصادر في 3 أيار/ مايو 1776، وإعلان فرجينيا للحقوق في 12 حزيران/ يونيو 1776، ولقد نادى الإعلان بسلطة الشعب وتساوي الفرص.

ونصت المادة الأولى منه على أنه: (يولد الناس أحراراً ومتساوين في الحقوق، ولا يجب أن تقوم الميزات الاجتماعية إلا على أساس النفع العام) (23).

كما نصت المادة الثانية من الإعلان

الفرنسي على حقوق خمسة؛ حيث أكدت: (أن هدف كل مجتمع سياسي هو صيانة حقوق الإنسان الطبيعية الخالدة، وهذه الحقوق، هي: الحرية والملكية والمساواة والأمن والحق في مقاومة الإستبداد والظلم) (24)، وتعتبر الحرية السياسية في مقدمة الحريات التي أكدها إعلان حقوق الإنسان والمواطن الفرنسي في مادته الثانية.

أما المادة السادسة فقد نصت على أنه (يجب أن يكون هذا القانون واحداً للجميع، أي: أن الجميع متساوون لديه. ولكل واحد منهم الحق في الوظائف والرتب وبحسب استعداده ومقدرته، ولا يجوز أن يفضل رجل على رجل في هذا الصدد إلا بفضيلته ومعارفه) (25).

وبموجب دستور الجمهورية الفرنسية الخامسة الصادر في 4 تشرين الأول/ أكتوبر 1958 أصبحت للإعلان مكانة دستورية.

وبعد نهاية الحرب الثانية، وتشكيل هيئة الأمم المتحدة بعد توقيع 51 دولة على ميثاق سان فرانسيسكو في 26 حزيران/ يونيو 1945.

اعتمدت الجمعية العامة للأمم المتحدة في 10 كانون الأول/ ديسمبر 1948 الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، والذي أكدت المادة الأولى منه على مبدأ الحرية والمساواة؛ حيث نصت على أنه:(يولد جميع الناس أحراراً متساوين في الكرامة والحقوق، وقد وهبوا عقلاً وضميراً، وعليهم أن يعامل بعضهم بعضاً بروح الإخاء) (26). كما نصت المادة الثانية منه على أن: (لكل إنسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات المذكورة في هذا الإعلان، دونما تمييز من أي نوع، ولا سيما التمييز بسبب العنصر، أو اللون، أو الجنس، أو اللغة، أو الدين، أو الرأي سياسياً أو غير سياسي،أو الأصل الوطني أو الاجتماعي، أو الثروة، او المولد أو أي وضع آخر...) (27)، والمادة 20 منه نصت على أنه: 1ـ (لكل شخص حق في حرية الاشتراك في الاجتماعات والجمعيات السلمية).

2 ـ (لا يجوز إرغام أحد على الانتماء الى جمعية ما) (28).

كما نصت المادة 21 منه على أن: 1. (لكل شخص حق المشاركة في إدارة الشئون العامة لبلده، إما مباشرة أو بواسطة ممثلين يختارون في حرية).

2 . (ولكل شخص، بالتساوي مع الآخرين، حق تقلد الوظائف العامة في بلده).

3. (إرادة الشعب هي مناط سلطة الحكم، ويجب أن تتجلى هذه الإرادة من خلال انتخابات نزيهة تجري دورياً بالاقتراع العام، وعلى قدم المساواة بين الناخبين وبالتصويت السري، أو بإجراء مكافئ من حيث ضمان حرية التصويت) (29).

وبذلك يكون الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، قد خطَّ خطوطاً واضحة نحو إرساء قواعد حق المشاركة في الحياة السياسية، فقرر لكل فرد حق الاشتراك في إدارة الشئون العامة لبلاده، إما مباشرة، أو بواسطة ممثلين يُختارون اختياراً حراً (30).

وقد ترك الإعلان العالمي لحقوق الإنسان تأثيره على كثير من الدول الوطنية، التي اقتبست دساتيرها أحكامها العامة

في تعداد حقوق المواطنين، وتحديد مفاهيمها منه، ما أضفى عليه طابع القانون الدولي العرفي.

وفي 16 كانون الأول/ ديسمبر 1966 أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة الاتفاقية الدولية للحقوق المدنية والسياسية، ووضعت موضع التنفيذ اعتباراً من 23 آذار / مارس 1976. وقد نصت المادة 25 من الاتفاقية على ما يأتي: (يكون لكل مواطن، دون أي وجه من وجوه التمييز المذكور في المادة الثانية، الحقوق التالية التي يجب أن تتاح له فرصة التمتع بها دون قيود غير معقولة:

أ. أن يشارك في إدارة الشؤون العامة، إما مباشرة وإما بواسطة ممثلين يختارون في حرية.

ب. أن يَنتخب ويُنتخَب في انتخابات نزيهة تجري دورياً بالاقتراع العام، وعلى قدم المساواة بين الناخبين، وبالتصويت السري، تضمن التعبير الحر عن إرادة الناخبين.

ج. أن تتاح له، على قدم المساواة عموماً مع سواه، فرصة تقلد الوظائف في بلده) (31).

وبذلك فإن نص المادة 25 من الاتفاقية المذكورة يقرر خمسة مبادئ عامة في مجال الحقوق السياسية، هي (32):

1 – حق المشاركة في سير الحياة العامة والخدمة العامة، دون تمييز.

2 – حق الانتخاب.

3 – حق الترشيح.

4 – حق الاقتراع العام.

5 – حرية الانتخابات ونزاهتها.

أما في أوربا فقد تم توقيع الإتفاقية الأوربية لحماية حقوق الإنسان والحريات الأساسية عام 1950، وأضيفت للاتفاقية عدة بروتوكولات تضمنت إضافة بعض الأحكام عليها، أو الإقرار بمزيد من الحقوق، كالبروتوكول الأول والبروتوكول الرابع، أو تعديل بعض موادها، كالبروتوكولين الثالث والرابع، أو منح المحكمة الأوربية صلاحيات إضافية، كالبروتوكول الثاني، أو إلغاء عقوبة الإعدام، كالبروتوكول السادس، أو إدخال تعديلات جذرية على آلية الاتفاقية كالبروتوكول الحادي عشر، وآخر بروتوكول حمل الرقم 14، والذي دخل حيز التنفيذ في 1 حزيران/ يونيو 2010؛ حيث تضمن أحكاماً خاصة بتحسين عمل المحكمة الأوربية لحقوق الإنسان، والإسراع في الإجراءات أمامها، وتقصير مهلة إصدار أحكامها (33).

ونصت المادة العاشرة الفقرة الأولى من الاتفاقية على أن: (لكل إنسان الحق في حرية التعبير ...) (34)، و المادة الحادية عشرة ـ الفقرة الأولى نصت على أن: (لكل شخص الحق في ممارسة حرية التجمع السلمي وتكوين الجمعيات مع آخرين، بما في ذلك حق إنشاء النقابات والانضمام إليها من أجل حماية مصالحه) (35).

ونصت المادة 14 من الاتفاقية على أن: (يكون التمتع بالحقوق والحريات المنصوص عليها في هذه الاتفاقية بدون تمييز لأي سبب، كالجنس أو العرق أو اللون أو اللغة أو الدين أو الرأي السياسي أو غيره أو الأصل القومي أو الاجتماعي أو الانتماء إلى أقلية قومية أو الثروة أو المولد أو غير ذلك من الأسباب) (36).

لم تقتصر الاتفاقية الأوربية لحقوق الإنسان بالنص على الحقوق والحريات الأساسية للإنسان، بل سعت لحماية هذه الحقوق والحريات والسهر على تطبيقها من خلال تشكيل المحكمة الأوربية لحقوق الإنسان؛ حيث كرَّست الاتفاقية المواد من 19 إلى 51 للبحث في تأليف هذه المحكمة وصلاحياتها واختصاصاتها ونشاطاتها.

في 12 حزيران 1776 صدرت لائحة فرجينيا للحقوق، والتي أكدت مادتها الأولى على (أن البشر جميعا متساوون وأحرار وغير تابعين ويتمتعون بالحقوق الذاتية والفطرية ...) (37)، ثم صدر الإعلان الأمريكي لحقوق الإنسان وواجباته في 2 أيار/ مايو عام 1948 في مدينة بوغوتا، وظل هذا الإعلان منسياً إلى 22 تشرين الثاني/ نوفمبر 1969، وهو تاريخ صدور الاتفاقية الأمريكية لحقوق الإنسان، والتي تم التوقيع عليها من قبل اثنتا عشرة دولة من دول أمريكا اللاتينية في كوستاريكا، والتي دخلت حيز التنفيذ في 18 تموز/ يوليو 1978 بين ست وعشرين دولة هي غالبية الدول الأمريكية، وتعد الاتفاقية الأمريكية لحقوق الإنسان معاهدة دولية لحماية الحقوق السياسية للإنسان على أساس إقليمي، في إطار التنظيم الدولي الأمريكي، وقد نصت المادة 23 من الاتفاقية على ما يلي:

1 ـ يتمتع كل مواطن بالحقوق والفرص الآتية:

أ. أن يشارك في إدارة الشئون العامة إما مباشرة، أو بواسطة ممثلين يختارون بحرية.

ب. أن ينتخب ويُنتخَب في انتخابات نزيهة تجري دورياً بالاقتراع العام، وعلى قدم المساواة بين الناخبين وبالتصويت السري، وتضمن التعبير الحر عن إرادة الناخبين.

ج. أن تتاح له، على قدم المساواة مع الجميع، فرصة تقلد الوظائف العامة في بلده.

2. يمكن للقانون أن ينظم ممارسة الحقوق والفرص المذكورة في الفقرة السابقة، فقط على أساس السن والجنسية والمسكن واللغة والثقافة والأهلية المدنية والعقلية وقناعة القاضي المختص في دعوى جزائية) (38).

المادة الأولى من الميثاق الإفريقي لحقوق الإنسان والشعوب نصت على أن: (الدول الأعضاء في منظمة الوحدة الإفريقية الأطراف في الميثاق تعترف بالحقوق والواجبات والحريات الواردة فيه، وتتعهد باتخاذ الإجراءات التشريعية وغيرها من أجل تطبيقها) (39)، كما نصت المادة الثانية على أن (يتمتع كل شخص بالحقوق والحريات المعترف بها) (40).

أما المادة 13 فلقد نصت على أن: 1 ـ (لكل المواطنين الحق في المشاركة بحرية في إدارة الشئون العامة لبلدهم سواء مباشرة، أو عن طريق ممثلين يتم اختيارهم بحرية، وذلك طبقاً لأحكام القانون).

1. (لكل المواطنين الحق أيضاً في تولي الوظائف العمومية في بلدهم).

2. (لكل شخص الحق في الاستفادة من الممتلكات والخدمات العامة، وذلك في إطار المساواة التامة للجميع أمام القانون) (41).

ويمكن ملاحظة أن الميثاق الإفريقي لحقوق الإنسان والشعوب جاء فيه نص المادة المتعلقة بالحقوق السياسية متناغماً مع الميثاق الدولي المتعلق بالحقوق المدنية والسياسية والاتفاقيتين الأوربية والأمريكية .

ولقد أصدر مؤتمر رؤساء دول وحكومات منظمة الوحدة الإفريقية المنعقد في 30 تموز/ يوليو 1979 قراراً بإعداد مشروع لميثاق افريقي لحقوق الإنسان والشعوب

وتم اعتماد الميثاق الإفريقي لحقوق الإنسان والشعوب في مؤتمر القمة الإفريقية الثامن عشر المنعقد في نيروبي عاصمة كينيا يوم 26 حزيران/ يونيو 1981، وقد دخل الميثاق حيز التنفيذ يوم 26 /10 /1986 بعد تصديق ست وعشرين دولة إفريقية عليه.

والميثاق العربي لحقوق الإنسان الذي تم اعتماده من قبل القمة العربية السادسة عشرة المنعقدة في تونس، وبتاريخ 23 آيار/ مايو 2004، نص في المادة 24 على أن: (لكل مواطن الحق في:

a. حرية الممارسة السياسية.

b. المشاركة في إدارة الشئون العامة إما مباشرة، أو بواسطة ممثلين يختارون بحرية.

c. ترشيح نفسه أو اختيار من يمثله بطريقة حرة ونزيهة، وعلى قدم المساواة بين جميع المواطنين، بحيث تضمن التعبير الحر عن إرادة المواطن.

d. أن تتاح له على قدم المساواة مع الجميع فرصة تقلد الوظائف العامة في بلده على أساس تكافؤ الفرص.

e. حرية تكوين الجمعيات مع الآخرين والانضمام إليها.

f. حرية الاجتماع وحرية التجمع بصورة سلمية.

g. لا يجوز تقييد ممارسة هذه الحقوق بأي قيود غير القيود المفروضة طبقاً للقانون، والتي تقتضيها الضرورة في مجتمع يحترم الحريات وحقوق الإنسان لصيانة الأمن الوطني أو النظام العام أو السلامة العامة أو الصحة العامة أو الآداب العامة أو لحماية حقوق الغير وحرياتهم) (42).

مع ملاحظة أن جامعة الدول العربية تخلفت كثيراً عن اللحاق بركب العالم المتحضر، وعن ثقافة حقوق الإنسان، فبرتوكول الإسكندرية الذي تم التوقيع عليه في 7 تشرين الأول/ أكتوبر 1944، وتم التوقيع عليه من قبل سبع دول عربية، هي: مصر، العراق، السعودية ، لبنان، اليمن، الأردن، فلسطين، قد خلا من أية إشارة إلى حقوق الإنسان، وبعد حوالي ربع قرن من تشكيل جامعة الدول العربية، تكونت اللجنة العربية لحقوق الإنسان، وكان ذلك عام 1968، وعقدت هذه اللجنة أول مؤتمر عربي لحقوق الإنسان في بيروت في كانون الأول / ديسمبر 1968.

المبحث الثالث

التطور التاريخي لحقوق المرأة السياسية

كانت المرأة في العصر الفرعوني تقف على قدم المساواة مع الرجل في كافة العصور؛ اذ تمتعت بنفس الحقوق وخضعت لذات الإلتزامات، فعند بلوغها سن الرشد تكون في نفس المركز القانوني للرجل سواء كانت متزوجة أم غير متزوجة، فقد كانت تتمتع بأهلية كاملة،

وكان لها الحق في تملك الأموال، وإبرام التصرفات القانونية، وقد تمتعت المرأة المصرية في العصر الفرعوني بوضع قانوني لم تتمتع به المرأة لدى أي شعب من شعوب العالم القديم (43).

وفي العراق القديم تمتعت المرأة بمركز قانوني ممتاز وكان لها شخصية قانونية كاملة؛ فشريعة حمورابي (1686 – 1728 ق.م) والتي تعتبر أحد أقدم المدونات القانونية في العالم، فمن بين 282 مادة في الشريعة كان منها 92 مادة تتعلق بالمرأة وحقوقها وواجباتها (44).

كانت المرأة عند الإغريق والرومان محرومة من جميع الحقوق الإنسانية، وليس لها حق في إبداء رأي أو كلمة في أبسط خصوصياتها. وكانت عديمة الأهلية القانونية وتعامل معاملة العبيد، رغم أنها تشكل نصف الخليقة منذ بدئها.

فالمجلس الشعبي الذي يقوم عليه النظام السياسي في مدينة أثينا يضم جميع المواطنين الذكور الذين بلغوا سن العشرين عام، ويعتبر هذا المجلس السلطة الأساسية للحكم، أي: أنه بمثابة السلطة التشريعية، وكان يجتمع عشر مرات في السنة (45)، ولقد تم حرمان المرأة من التمثيل فيه.

أما مجلسي الشيوخ والشعب في مدينة روما، فكذلك اقتصرت عضويتهما على الذكور، فالأول ضم رؤساء العشائر، والثاني ضم المواطنين الأحرار القادرين على حمل السلاح.

وفي العصر الحديث؛ فلقد نصت المادة الأولى الإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان والمواطن 1789 على أن: (يولد الناس أحراراً ومتساوين في الحقوق، ولا يجب أن تقوم الميزات الإجتماعية الا على أساس النفع العام) (46).

وأكد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي أصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة 1948 في مادته الأولى على أن: (يولد جميع الناس أحراراً متساوين في الكرامة والحقوق وقد وهبوا عقلاً وضميراً، وعليهم أن يعامل بعضهم بعضا بروح الإخاء) (47).

كما نصت المادة 21 منه على أن: 1. (لكل شخص حق المشاركة في إدارة الشئون العامة لبلده، إما مباشرة أو بواسطة ممثلين يختارون في حرية...) (48).

وبذلك يكون الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، قد خط خطوطاً واضحة نحو إرساء قواعد حق المشاركة في الحياة السياسية، فقرر لكل فرد حق الاشتراك في إدارة الشئون العامة لبلاده، إما مباشرة، أو بواسطة ممثلين يختارون اختياراً حراً (49).

وأصدرت الجمعية العامة للامم المتحدة "إعلان القضاء على التمييز ضد المرأة" في 7 تشرين الثاني/ نوفمبر 1967، الذي أكد على إن التمييز ضد المرأة يشكل إهانة للكرامة الإنسانية (50)، كما أكد على إتخاذ التدابير التي تكفل مساواة المرأة بالرجل، في حق التصويت والترشيح والاستفتاء وتقلد المناصب العامة (51).

وبحق تعتبر أوربا نموذجاً في تنظيم وتطبيق واحترام حقوق الإنسان وحرياته الأساسية؛ حيث يرجع الاهتمام الأوربي بتقنين الحماية لحقوق الإنسان إلى أيار/ مايو 1948

عندما دعت اللجنة الدولية لتنسيق الحركات الأوربية الداعية إلى وحدة أوربا، والتي أنشئت في كانون الأول/ ديسمبر 1947 إلى عقد مؤتمر لاهاي، والذي طرحت فيه فكرة اتفاقية أوربية لحماية حقوق الإنسان. ومجلس أوربا هو أول منظمة دولية إقليمية تضع حماية حقوق الإنسان وحرياته الأساسية هدفاً أساسياً لقيامها، ولقد أنشئ المجلس الأوربي كنتيجة لمعاهدة لندن عام 1949، وضم في بداية إنشائه عشرة دول فقط، ويضم في عضويته الآن 47 دولة، وبعد فترة لم تتجاوز الثلاثة أعوام من إنشائه عقدت الدول الأعضاء الاتفاقية الأوربية لحماية حقوق الإنسان والحريات الأساسية، والتي تم التوقيع عليها في مدينة روما في 4 تشرين الثاني/ نوفمبر 1950، والتي دخلت حيز التنفيذ اعتباراً من 3 أيلول/ سبتمبر 1953.

ونصت المادة 14 من الاتفاقية على أن: (يكون التمتع بالحقوق والحريات المنصوص عليها في هذه الاتفاقية بدون تمييز لأي سبب، كالجنس أو العرق أو اللون أو اللغة أو الدين أو الرأي السياسي أو غيره أو الأصل القومي أو الاجتماعي أو الانتماء إلى اقلية قومية أو الثروة أو المولد أو غير ذلك من الأسباب) (52).

المادة الثانية من الميثاق الإفريقي لحقوق الإنسان والشعوب 1981 تنص على أن: (يتمتع كل شخص بالحقوق والحريات المعترف بها) (53)، والمادة 13 منه تنص على أن: 1. (لكل المواطنين الحق في المشاركة بحرية في إدارة الشؤون العامة لبلدهم سواء مباشرة أو عن طريق ممثلين يتم اختيارهم بحرية وذلك طبقاً لأحكام القانون...) (54).

ومن جهته فإن الميثاق العربي لحقوق الإنسان 2004 أكد في المادة 24 على أن: (لكل مواطن الحق في: 1 . حرية الممارسة السياسية...) (55).

أما دساتير الدول الوطنية، فالإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان والمواطن أصبح المصدر الأساسي لدساتير الدول الأوربية، كما استندت إليه العديد من الدساتير غير الأوربية، كالدستور المصري.

وتضمنت مقدمات دساتير الدول العربية نصوصاً عن حقوق الإنسان (56)، وتضمنت الدساتير المختلفة مبدأ المساواة في الحقوق السياسية لجميع المواطنين بدون تفرقة، وخاصة الحق في التصويت، رغم أن هناك تفاوتاً واضحاً في الأسلوب الذي تتبعه كل دولة لتنظيم المشاركة والنطاق الذي تشمله (57)؛ فالدستور المصري لسنة 2014 نص في المادة 87 على أن:

(مشاركة المواطن في الحياة العامة واجب وطني، ولكل مواطن حق الانتخاب والترشيح وإبداء الرأي في الاستفتاء وينظم القانون مباشرة هذه الحقوق...) (58).

الهوامش:

(1) مروج هادي الجزائري، الحقوق المدنية والسياسية وموقف الدساتير العراقية منها، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة بغداد، كلية القانون، 2004، ص22.

(2) د. فاروق عبد البر، دور مجلس الدولة المصري في حماية الحقوق والحريات العامة، ج1، 1988، ص 417.

(3) محي شوقي أحمد، الجوانب الدستورية لحقوق الإنسان، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس، كلية الحقوق، 1986، ص134، د. حسني قمر، الحماية الجنائية للحقوق السياسية، دار الكتب القانونية، القاهرة، 2006، ص4.

(4) دستور جمهورية العراق لسنة 2005، المادة 20.

(5) دستور جمهورية مصر العربية لسنة 2014، المادة 87.

(6) الدستور الجديد للمملكة المغربية، دار الإنماء الثقافي، المغرب – الرباط، ط2، 2013، ص25.

(7) موقع نقابة المحامين السورية الإلكتروني بتاريخ 16/2/2013.

http://www.syrianbar.org/index.php?news=133

(8) سالم البهنساوي، مكانة المرأة بين الإسلام والقوانين العالمية، دار القلم، الكويت، ص 133.

(9) د. علي الباز، الحقوق والحريات والواجبات العامة، دار الجامعات المصرية بالإسكندرية، ص 130.

(10) د. عبدالناصر توفيق العطار، حقوق المرأة في السنة النبوية، جامعة أسيوط، كلية الحقوق، مجلة الدراسات القانونية، العدد 26، حزيران 2007، ص 144.

(11) د. حسني قمر، الحماية الجنائية للحقوق السياسية، مصدر سابق، ص 3.

(12) د. محمود عاطف البنا، الوسيط في النظم السياسية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1994، ص 465.

(13) د. محمد أنس قاسم جعفر، الحقوق السياسية للمرأة في الإسلام والفكر والتشريع المعاصر، دار النهضة العربية، القاهرة ، ص 32.

(14) أستاذنا د. صلاح الدين فوزي، المحيط في النظم السياسية والقانون الدستوري، دار النهضة العربية، 1995، ص 70.

(15) الدعوى رقم 23 لسنة 8 ق دستورية عليا جلسة 15 /4 /1989.

(16) د. محمد عبدالله الفلاح، الحقوق الدستورية للإنسان في الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية، بدون دار نشر، 2012 ، ص 162

(17) د. رغد نصيف جاسم السراجي، المشاركة السياسية الحزبية للمرأة العراقية بعد العام 2003، دار الكتب العلمية للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد، ط1، 2012، ص10.

(18) د. حسني قمر ، حقوق الإنسان في مجال نشأة الحقوق السياسية وتطورها وضماناتها، دار الكتب القانونية، القاهرة، 2006، ص 13.

(19) د. بطرس بطرس غالي، د. محمود خيري عيسى، المدخل في علم السياسة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط7، 1989، ص 15.

(20) أحمد حمدي يوسف عفيفي، حقوق الإنسان بين النظم القديمة والمواثيق الدولية المعاصرة، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس، كلية الحقوق، 1997، ص74.

(21) أوركاجينا 2365ـ2357 ق.م: احد ملوك سلالة لكش الأولى السومرية وصاحب أقدم الإصلاحات الإجتماعية

والإقتصادية، والتي تم اكتشافها في مدينة لكش عام 1878، ويعتبر أول مصلح اجتماعي في التاريخ.

(22) د. عامر سليمان، القانون في العراق القديم، ج1، مطبعة جامعة الموصل، 1977، ص26.

(23) الإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان والمواطن، المادة الأولى.

(24) د. حسني قمر، حقوق الإنسان في مجال نشأة الحقوق السياسية وتطورها وضماناتها، مصدر سابق، ص 135.

(25) الإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان والمواطن، المادة السادسة.

(26) الإعلان العالمي لحقوق الإنسان المادة الأولى، عطا علي حمود الوائلي، المعاهدات والصكوك الدولية لحقوق الإنسان، منشورات الأكاديمية العربية المفتوحة في الدانمارك، كلية القانون والسياسة، 2007، ص 19.

(27) الإعلان العالمي لحقوق الإنسان المادة الثانية.

(28) الإعلان العالمي لحقوق الإنسان المادة 20 .

(29) الإعلان العالمي لحقوق الإنسان المادة 21.

(30) د. طه السيد أحمد الرشيدي، حق المشاركة السياسية في الفقه الإسلامي والقانون الروماني، مكتبة الوفاء القانونية، الإسكندرية، ط1، 2011، ص 7.

(31) العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية، المادة 25، عطا علي حمود الوائلي، المعاهدات والصكوك الدولية لحقوق الإنسان، مصدر سابق، ص 32.

(32) د. حسني قمر، حقوق الإنسان في مجال نشأة الحقوق السياسية وتطورها وضماناتها، مصدر سابق، ص 153.

(33) د. محمد أمين الميداني، الآلية الأوربية لحماية حقوق الإنسان والدفاع عن المنظمات الإنسانية والخيرية. بتاريخ 18 /3 /2013.

http://www.humanitarianibh.net/conferences/midani.htm

(34) الاتفاقية الأوربية لحقوق الإنسان، المادة 10/1.

(35) الاتفاقية الأوربية لحقوق الإنسان، المادة 11/1.

(36) الإتفاقية الأوربية لحقوق الإنسان، المادة 14.

(37) لائحة فرجينيا للحقوق، المادة الأولى.

(38) الإتفاقية الأمريكية لحقوق الإنسان، المادة 23.

(39) الميثاق الأفريقي لحقوق الإنسان والشعوب، المادة الأولى.

(40) الميثاق الأفريقي لحقوق الإنسان والشعوب، المادة الثانية.

(41) الميثاق الإفريقي لحقوق الإنسان والشعوب، المادة 13.

(42) الميثاق العربي لحقوق الإنسان، المادة 24 .

(43) د. مشوط شبعان عامر الهاجري، تطور الحقوق الدستورية للمرأة العربية، دار النهضة العربية، القاهرة، 2012، ص19

(44) شعيب احمد الحمداني، قانون حمورابي، بيت الحكمة، بغداد، 1987، ص 107.

(45) فاروق عبدالحميد محمود، حق الإنتخاب وضماناته، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس، كلية الحقوق، 1998، ص51.

(46) الإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان والمواطن، المادة الأولى.

(47) الإعلان العالمي لحقوق الإنسان المادة الأولى، عطا علي حمود الوائلي، المعاهدات والصكوك الدولية لحقوق الإنسان، مصدر سابق ، ص 19.

(48) الإعلان العالمي لحقوق الإنسان المادة 21.

(49) د. طه السيد أحمد الرشيدي، حق المشاركة السياسية في الفقه الإسلامي والقانون الروماني، مصدر سابق، ص 7.

(50) إعلان القضاء على التمييز ضد المرأة، المادة 1: (إن التمييز ضد المرأة، بإنكاره أو تقييده تساويها في الحقوق مع الرجل، يمثل إجحافاً أساسياً ويكون إهانة للكرامة الإنسانية).

(51) إعلان القضاء على التمييز ضد المرأة، المادة 4: (تتخذ جميع التدابير المناسبة التي تكفل للمرأة، على قدم المساواة مع الرجل ودون تمييز، الحقوق الاتية:

أ ـ حقها في التصويت في جميع الانتخابات وفي ترشيح نفسها لجميع الهيئات المنبثقة عن الانتخابات العامة.

ب ـ حقها في التصويت في جميع الاستفتاءات العامة.

ج ـ حقها في تقلد المناصب العامة ومباشرة جميع الوظائف العامة.

وتكفل هذه الحقوق عن طريق التشريع).

(52) الإتفاقية الأوربية لحقوق الإنسان، المادة 14.

(53) الميثاق الفريقي لحقوق الإنسان والشعوب، المادة الثانية.

(54) الميثاق الإفريقي لحقوق الإنسان والشعوب، المادة 13.

(55) الميثاق العربي لحقوق الإنسان

(56) د. محمد عبدالله الفلاح، الحقوق الدستورية للإنسان في الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية، مصدر سابق، ص 198.

(57) د. طه السيد أحمد الرشيدي، حق المشاركة السياسية في الفقه الإسلامي والقانون الروماني، مصدر سابق، ص 8.

(58) دستور جمهورية مصر العربية لسنة 2014، المادة 87.

الدستور بين المجتمع المتمدن والمجتمع المتخلف

الدكتور محمد الهماوندي

وثيقة الدستور (1)، ليست ترفا فكريا، ولا لعبة سياسية، ولا هبة حزبية، ولا هدية من ينصبون أنفسهم أوصياء على الدولة والمجتمع، ولا شعر الشعراء (2). بل هي كتاب الدولة والشعب، فيه امتيازات والتزامات السلطة العامة وحقوق وواجبات الفرد. هذا وكثيرا ما نجد في مؤلفات وكتب الفقه الدستوري العربي وغيرها، في الغالب عندما يكتبون عن تعريف الدستور وشكله ونوعه وتأريخه، يشيرون الى الواقع الأوربي، كأن العرب وأهل المنطقة يعيشون في أوربا، بيد أن الحقيقة غير ذلك. على الأقل لا شك هناك فرق واضح بين سلطة الحاكم وقيمة الدستور في الدول المتقدمة، وبين الدول والمجتمعات المتخلفة – لا شك أن هناك بونا شاسعا، حضارياً بين المجتمعين من النواحي المدنية، الثقافية، البيئية، والفكرية – ومن الصعب وضع مقارنة سليمة بينهما. وكتب الكثير في هذا الموضوع قديماً وحديثاً. وعليه يختلف نشوء ومفهوم الدستور من الدول المتقدمة والمجتمعات المتخلفة:

أولا/ مفهوم الدستور في الدول المتقدمة، بعد تطور تأريخي سياسي واجتماعي مرير، بدأت حركة فكرية وثقافية تبنت المبادىء العامة في حقوق الانسان، والسلطة المقيدة، وسيادة القضاء وحكم القانون، والفصل بين السلطات، واعمال العقل والعمل والعلم. ومن هنا بدأت مرحلة المطالبة بحق الانسان من الحاكم المستبد، عن طريق وثائق واعلانات سميت بوثائق حقوق الانسان، وحق تقرير المصير، ومن ثم دونت بنودها في وثيقة الدستور، التي بدأت تنشأ بتوافق الارادات الواعية الثلاثة:

أ/ ارادة الحاكم الخادم بعقد مؤقت مكتوب بدورة أو دورتين رئاسية أو ملك مقيد بقانون.

ب/ ارادة اللجنة المكلفة بكتابة وصياغة الدستور، وهي قد تكون نخبة برلمانية، او لجنة سياسية أو لجنة جامعية وفي جميع الأحوال تكون لجنة مشتركة.

ج/ ارادة الشعب، بمعنى أخذ رأي الأكثرية من الشعب، ويكون ذلك عن طريق الاستفتاء العام، نضيف، اذا ما اتفقت الارادتان الأولى والثانية بحسن النية، فلا تكون الحاجة اللجوء الى الاستفتاء.

ومن الثابت، أنه بمفهومه في هذه الدول، يكون الدستور هو القانون الأعلى والأسمى والأولى في الدولة. هو يقييد الحاكم في حدوده، بل أكثر من ذلك يعين تأريخ وجغرافية وسلطة الحاكم بالنسبة لوظيفته وخدمته. ويحدد الاختصاصات الوظيفية للمؤسسات الدستورية العليا، فضلا عن بيان الحقوق والحريات العامة والخاصة للأفراد في الدولة. هذا ويحدد الدستور في هذه المجتمعات بنصوص واضحة، حدود الحاكم والمحكوم، سواء يكون النظام

السياسي في الدولة ملكياً أوجمهورياً؛ اذ يلاحظ في النظم الملكية، أن شخص الملك، لا مصون ولا مسؤول؛ ففي السويد مثلا، الملك هو "رأس الدولة دون سلطة رسمية... لا يمارس أية سلطة سياسية. ولا يشارك كذلك في الحياة السياسية. كرئيس للدولة، يمثل البلاد ككُل، ويؤدي بهذه الصفة مهام وواجبات بروتوكولية – تتعلق بالمراسيم – أساساً. ومن بين واجبات عاهل السويد ترؤس المجلس الاستشاري للشؤون الخارجية" (3). والحال كذلك في الدنمارك (4)، انه وفق ج/2 فق/8 "يتعين على الملك، قبل اعتلائه العرش، أن يقدم إعلانا رسميا خطيا أمام مجلس الشورى يعلن فيه أنه سوف يلتزم بكل أمانة ووفاء بقانون الدستور...". وفي تلك المجتمعات، يكون القائد هو القانون وليس الشخص هو القائد، هذا ويكاد لا يكون أحد من المسؤولين ومن الدرجات السيادية خارج دائرة القانون. وكل مسؤول مهما على مركزه ووظيفته، يدخل في دار القضاء في حالة مخالفته لمبدأ الشرعية، فهذه "شقيقة ملك اسبانيا أمام القضاء بتهمة الاحتيال والفساد، ووفاء بقانون الدستور...." (5).

والحال ذاته، هو المتبع دستورياً في نظم الجمهوريات الديمقراطية، حيث يلاحظ أن مدة رئاسة الدولة معلومة ومعينة بتأريخ البدء والنهاية، لذا لا يحتاج الى التفسير والخلاف والتأويل واللجوء الى القضاء وحكمه وقراره. وكما أنه درأ أن لا يكون نصف الباب مفتوحا والنصف الآخر مغلقا. أصبح النص في الدستور شديد الوضوح؛ اذ تحدد فترة ولاية الرئيس في الحكم بفترة زمنية محددة لا تتجاوزها، في أن يتولى الرئيس المنصب لمدة معينة، ويسمح باعادة الترشيح لفترة الولاية التالية مباشرة لمرة واحدة فقط. لقد وجد هذا الشرط – الحاجز ليكون مانعا لنشوء شكل من الجمهوريات الديكتاتورية.

أيضا تكون هنا السيادة لمبدأ الشرعية الى حد كبير، من هنا طلبت النيابة العامة – الادعاء العام – في البرازايل اطلاق ملاحقات قضائية في حق الرئيس البرازيلي السابق لويس ايناسو لولا دا سيلفا الذي استجوب في أواسط شهر آذار عام 2016، في اطار تهمتين: أ/ يتعلق بفضيحة الفساد في العقود النفطية "بتروبراس". ب/ ثبوت امتلاكه شقة من ثلاثة طوابق بدون سند شرعي (6).

ثانياً: الدستور في المجتمعات المتخلفة (7)، أما عن وضع نشوء ومفهوم الدستور وقيمته، في هذه المجتمعات (8)، اذ تنظر اليه كانجاز شخصي أو حزبي أو حكومي، وحالة رمزية غير تطبيقية وهو ليس كتابا للتطبيق وللحياة، بل هو "زينة الحياة"، فهو مُلك للحاكم يضعه على رف مكتبته، ولا علاقة للشعب به. واذا كان النظام السياسي في الدولة ملكياً أو أميرياً، فان من الثابت، تدعمه نظريات الحق أو التفويض الالهي في الحكم. ويكون الملك، هو الشخص المسؤول والرئيس الأعلى لجميع المؤسسات الدستورية العليا في الدولة ومكوناتها "أرضاً، جواً، وبحراً". ورغم كل ذلك، فهو مصان وغير مسؤول! اذ ان هؤلاء من عائلات عتيقة من السادة وورثة الأنبياء والرسل "صلى الله عليهم وسلم". ومن خيرة الناس حيث قبلهم الشعب بطريقة العقد الاجتماعي القديم، بمعنى انه وليد اسلوب المنحة وتحت ارادة الحاكم. ذلك مقابل أن يؤمن للشعب لقمة العيش والأمن والأمان والاستقرار. وأما أن يكون النظام جمهورياً، فان الدستور هو للحاكم وورثته

وأهله، ومن سلطته نقضه أو الغاؤه أو تعديله وحتى عدم تطبيقه أو الالتزام به أصلا، وله حق التصرف في وجوده وعدمه (9)، ذلك لأنهم قادة ورؤساء من جيل الثورة والكفاح المسلح والنضال السياسي. والدستور هنا هو عقد من عقود الإذعان بين الحاكم والمحكوم؛ فالحاكم له ولورثته حق أن يمارس سلطة مطلقة مستمرة ودائمة. وكما يتحول المجتمع الى مجتمعات أبوية (10)، وعليه لا تجد تماماً أية قيمة معتبرة يحملها الفعل الدستوري في خدمة المجتمع والفرد.

صحيح أن النظام الديمقراطي ووجود دستور مدني، يضمنان حالة تشاركية سياسية حزبية واسعة في الحكم والادارة، لكن الوصول الى نظام مدني مقبول كهذا لا يتم بقرار سياسي أو بقرار من الأعلى، ومن دون تشكل عقد اجتماعي متطور أي بمعنى وجود الحاكم المقيد بالقانون واقرار حق الأمان والاستقرار للمحكومين، وذلك في شكل وثيقة الدستور ينظم بين الحاكم أو الحكومة الحزبية، وبين المواطن المحكوم؛ فمقارنة تجربة الحكومات والدول القانونية بالدول والحكومات غير القانونية، تؤكد أن الأولى كانت أكثر تمثيلا للشعوب المحكومة وأن شعوبها أكثر سعادة ورفاها؛ اذ في النظم الدستورية الصادقة تحافظ على العقد الاجتماعي الدستوري بين الحاكم والمحكوم. فيما الثانية تفرض عقدا اجتماعياً ثورياً، يطلق عليه الشرعية الثورية التي تستخدم جميع أجهزة الدولة أو الاقليم في خدمة الخطاب الحزبي الثوري لدغدغة مشاعر الناس، ويمتزج فيه تضييق المجال العام بتدخل في الحيز الخاص الحزبي. ومن هنا نصل الى أن الفرق التأريخي بين الحالتين، تختصر في المجتمع الأول المتقدم، هناك نخبة من السياسيين والمفكرين كانوا عظماء حين فكروا ونفذوا الفكرة. أما في المجتمع الثاني المتخلف، فهذه النخبة لم يكن اعضاؤها عظماء وحتى لم يتبنوا الفكرة، بل جاءتهم الفكرة من السماء والأرض، بيد أنهم لم يحاولوا أن يفهموها أو ينفذوها، ومن الصعب أن ينفوذها، لأن القطار قد فاتهم ومن الصعب أن يعود.

كركوك – لندن/ 2016

الهوامش:

(1) يكاد أن يكون لجميع الدول في العالم دستورها المكتوب، ما عدا بريطانيا، التي تعتمد على تراثها الديمقراطي، والقانون العام والعرف الدستوري. وكذلك اسرائيل، التي تستند على قانونها العام وتراثها الديني "التوراة"، الذي هو العائق في كيفية تعيين جغرافية الدولة. وأما المملكة العربية السعودية، فانها أصلا لا تعترف بلفظ الدستور لذا يستخدمون لفظ "النظام" ×، بدلا منه لأن القانون والدستور عندهم هو "القرآن الكريم". وأما بالنسبة للأقاليم الفيدرالية فيكاد لا توجد اقليم فيدرالي محروم من الدستور، حتى نجد أن الكرد في غرب كردستان (روز ئافا) تمكنوا في غضون شهر 6/ 2016 من طرح مسودة دستور لفيدرالية الاقليم، وهي تتضمن 85 مادة. ويعتمد هذا الدستور قبل ربط مناطق الاقليم وهي الجزيرة وعفرين وكوباني وعاصمته مدينة قامشلو ـ نرجو ألا يكون مصيره كمصير دستور جنوب كردستان ـ هذا ويكاد يكون الاقليم الفيدرالي لجزء من جنوب كردستان، هو الاقليم الوحيد الذي ليس له الدستور حتى اليوم أواخر عام 2016.

• الغريب لدينا الوثائق الدستورية للدولتين المسلمتين؛ احداها تعترف بلفظ الدستور كما هو، والثانية لا تعترف باستخدام لفظ الدسستور. يلاحظ أن دولة ايران، تأخذ بالدستور لفظاً ومعنى؛ اذ جاء عنوان الوثيقة الدستورية في ايران، بعنوان "دستور ايران الصادر عم 1979 شاملا تعديلاته عام 1989"؛ اذ ورد في م/2 منه "يقوم نظام

الجمهورية الاسلامية على أساس: -1 الايمان بالله الأحد (لا اله الا الله) وتفرده بالحاكية والتشريع ولزوم التسليم لأمره...". أما الحال في السعودية فهو غير ذلك، فانه يعرف الدستور بمصطلح النظام، ولا يأخذ بلفظ الدستور ولا بمعناه الا في شكل "النظام"، والدليل، انه جاء في النظام الأساسي للحكم في المملكة العربية السعودية ما يأتي: "المملكة العربية السعودية دولة عربية اسلامية، ذات سيادة تامة، دينها الاسلام ودستورها كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم" م/1. وورد في هذا النظام بوضوح أكثر أنه "يستمد الحكم في المملكة العربية السعودية سلطته من كتاب الله تعالى وسنة رسوله. وهما الحاكمان على هذا النظام وجميع أنظمة الدولة"، م/7.

(2) كتب الشاعر الكبير معروف الصافي "الجباري" – نسبة الى عشيرته الجباري الكوردية في كركوك:

علم ودستور ومجلس أمة كل عن معنى الصحيح محرف

أسماء ليس لنا سوى ألفاظها أما معانيها فليس تعرف.

وفي الوقت ذاته، كتب أمير الشعراء العرب "أحمد الشوقي" ـ ذا أصل كوردي – هذه الأبيات عن الانقلاب العثماني، قال فيها مشيراً الى سلطان محمد رشاد:

الباعث الدستور في الاسلام من حفر القبور

أودي معاوية به وبعثته قبل النشور

أنظر، المرحوم هادي العلوي، في السياسة الاسلامية، ط2، صحارى للصحافة والنشر، سنة 2000، ص43.

(3) حقائق عن السويد/ الحكومة، الناشر المعهد السويدي، www.sweden.se

(4) الدستور الدنماركي للعام 1953، constiuteproject.org

(5) لا تزال الدعوى في اطار "التهمة" وربما ينشر هذا البحث. والقضية تروح وتأتي في أروقة القضاْء. أنظر وكالات الأنباء، وصحيفة الحياة الدولية، العدد/ 19334 في 3/12/ 2016.

(6) صحيفة الحياة اللندنية، العدد/ 19275، في 1/12/ 201.

(7) في قمة الدول العشرين، التي عقدت في لندن، في شهر نيسان، عام 2009، كان الفائز الكبير هو العالم النامي، حيث تقدم الولايات المتحدة وأوربا واليابان الى خمس دول نامية، وهي: الصين والبرازيل وروسيا والمكسيك والهند، نفوذاً كبيرا غير مسبوق في القرارات المالية العالمية. فاذا كانت هذه الدول الخمس هي قبيل الدول النامية، تكون معرفة هوية الدول المتخلفة معلومة؟ الحياة الدولية، العدد/ 11082 في 1/4/ 2009.

(8) يرى رئيس الجمهورية المصرية السيد عبد الفتاح السيسي في شأن الدستور المصري الجديد عام 2013 – 2014، ومريديه، بأن فيه مواد "تقلص صلاحيات الرئيس"، وفي خطاب له، وهو الصاحب الحقيقي للدستور بالطبع، له رأي فيه، هو "أن الدستور كتب بحسن نية، والبلاد لا تحكم بحسن النوايا" لذا يريد تعديله ليتفق الدستور مع رغابته الشخصية ليدير البلاد بسوء النوايا. لكن يرد عليه السيد عمرو موسى، رئيس مجلس أمناء "المؤسسة المصرية لحماية الدستور" بأن الدستور، هو"الوثيقة الأساسية لممارسة السلطات وتطبيق النظام في البلاد"، ويقال "أن الدستور... ملك للشعب والأمة كلها لأنها اعتمدته". هذا هو الفرق بين عقلية وثقافة رئيس خلفيته الوظيفية "ضابط مخابرات"، وبين مثقف خلفيته الوظيفية المدنية وهو دبلوماسي سابق. أنظر، صحيفة الحياة الدولية، العدد 19335 في 3/12/ 2016.

(9) الدكتور محمد أحمد عزيز "هماوندي"، مبدأ المشروعية، المرجع السابق.

(10) في بعض الجمهوريات في البلدان النامية، تعتبر حالة الثورة هي غاية في ذاتها، وليست هي حالة حركية وانفجار تحصل عندما تتعذر سبل الاصلاح السياسي والاجتماعي. وهي وسيلة مشروعة لتحسين الحال، من سوء حال الى أحسن حال؛ اذ بعد انتظار دام 17 سنة/ "أنجز الرئيس الجزائري الثوري عبد العزيز بوتفليقة ما وعد، بتمريره دستوراً جديداً، أبرز ما تضمنه هو تقييد فترة تولي المنصب الرئاسي بولايتين، الأمر الذي سينطبق على خليفته بعدما كان بوتفليقة فتح الولاية الرئاسية في دستور 2008 ليترشح لولايتين ثالثة ورابعة على التوالي.....". وهو اليوم مريض معوق على المعقد، ومع هذا هو وزير الدفاع والقائد الاعلى للقوات المسلحة، وفضلا عن ذلك، وضع جهاز الاستخبارات العسكرية تحت الاشراف المباشر للرئيس بمديرياته "الأمن الخارجي + الداخلي + التقني"، أنظر صحيفة "الحياة الدولية"، العدد/ 19303 في 9/2/2016، والعدد/ 19304 في 10/2/2016.

قراءة في كتاب
العالم العربي بين الحداثة والماضوية

عرض: عبد الرحيم الرحوتي، أستاذ الألسن وعلم الترجمة، المعهد العالي الدولي للسياحة، طنجة، المغرب

- **عنوان الكتاب: العالم العربي على المدى البعيد، «الربيع» العربي؟**
- **عنوان الكتاب باللغة الأصلية:**

Le Monde Arabe dans la longue durée، «le printemps» arabe ?

- **المؤلف: سمير أمين**
- **الناشر، مكان النشر وتاريخه:** Le Temps Des Cerises، باريس، 2015
- **الرقم المعياري الدولي للكتاب:** 978-2370710567

كتاب سمير أمين الصادر حديثا في طبعة ثانية مزيدة ومنقحة بعنوان: العالم العربي على المدى البعيد، «الربيع» العربي؟ يضع لنفسه هدفا محددا بدقة منذ العنوان، غايته توضيح العلاقة بين الربيع العربي وتاريخ العالم العربي على المدى البعيد. يتعين أن نفهم هنا المدى البعيد بمعناه الحرفي الدقيق، باعتبار أن المؤلف يحاول أن يرسم صورة للعالم العربي والإسلامي على امتداد القرون الخمسة والعشرين الأخيرة. وهذا ما يشكل بالضبط الأهمية الأساسية للكتاب. نجد به صورة متكاملة للعالم العربي والإسلامي تفسر، ليس فقط المكان المركزي الذي كان يحتله هذا العالم في النظام العالمي القديم، ولكن أيضا انحطاطه وتخلفه عن اللحاق بركب الحداثة والعالم الحديث وهو ما ساعد على ظهور أنظمة سياسية فاسدة وغير ديمقراطية انتفضت ضدها الشعوب العربية بعد أن طفح الكيل.

مع ذلك، إذا كان الهدف الذي وضعه المؤلف نصب عينيه للكتاب واضحا تماما، فإن التحليل الذي يقدمه يفتقر للانسجام أحيانا. وعلى الرغم من أن اهتمامه مركز في الغالب على مصر، إلا أن سمير أمين يحاول، مع ذلك، أن يقدم تحليلا اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا يريد له أن ينسحب في نهاية المطاف على مجموع البلدان العربية. مهما كان، فإن موضوعا بهذه السعة تتطلب معالجته كتبا عدة وليس كتابا واحدا، كما أنه من الصعب إن لم يكن من المستحيل إنجاز تحليل بهذا الحجم ما عدا في حال التوفر على أدوات إجرائية فعالة من شأنها أن تسمح باستخراج موضوعات مشتركة عبر التباين الكبير في تاريخ البلدان التي تشكل موضوع الدراسة. وهذا ما لا يبدو أن الكتاب أفلح في تحقيقه، ما عدا في محورين اساسيين؛ أولهما، عن الإمبريالية. والثاني، عن الماضوية الإسلامية. تجدر الإشارة إلى أن الكتاب لا يقدم أي خيط ناظم واضح، وهو الأمر الذي سيترتب عنه

وجود بعض الاختلالات مثل صياغة مواقف متناقضة أحيانا عن نفس الحركة السياسية.

الربيع المصري، 2011 – 2015: الإخوان المسلمون

الفصلان الأولان من الكتاب تفصلهما عن بعضهما أربع سنوات كاملة. يحاول المؤلف في الفصل الأول الذي حرره بعد مضي وقت قليل على انتفاضة الشعب المصري في 2011، تحديد الأسباب التي جعلت المصريين ينتفضون على نظام مبارك. أما الفصل الثاني فيخصصه بالكامل لتفسير الأسباب التي دفعت الشعب المصري للنزول مرة أخرى إلى الشارع، ولكن هذه المرة ضد حكومة الرئيس مرسي والإخوان المسلمون.

يحلل المؤلف أولا، الشروط السياسية والاقتصادية التي قادت إلى الربيع العربي، موضحا بأنه لم يكن في كل ذلك أي شيء غير متوقع. يركز بشكل خاص على كون أنه في العالم العربي، نجد في كل مكان تقريبا أنظمة رأسمالية لا يتطلع قادتها إلى أي شيء آخر غير الحصول من شركائهم الأمريكيين والأوربيين على أفضل العقود لصالحهم ولصالح من يحيطون بهم، وهو ما لا يمكن إلا أن يقود إلى تمرد الشعوب في نهاية المطاف. بحسب سمير أمين، إذا كان الإسلاميون هم الذين فازوا في الانتخابات بعد سقوط مبارك، فذلك لأنهم كانوا قد تلقوا دعما ثمينا من النظام الذي سمح لهم بإدارة ثلاث مؤسسات رئيسية: التربية والعدل والتلفزيون وهو ما سيعبد الطريق للإسلاميين لكي يحصلوا على ثقة الشعب. يركز المؤلف كذلك على الدعم المادي والإديولوجي الذي قدمته لهم العربية السعودية؟

لا يسع المرء إلا أن يسجل أن التطورات اللاحقة

التي حصلت في مصر، أي الانقلاب العسكري المدعوم من العربية السعودية، ضد حكومة الرئيس مرسي في 2013، لا تسير في اتجاه التحليل الذي يقدمه سمير أمين ولا تدعم رأيه بهذا الخصوص. يقدم المؤلف الانقلاب الذي قاده المشير السيسي في 30 يونيو باعتباره استجابة من لدن المؤسسة العسكرية لرغبة الشعب المصري الذي انتفض على حكم الإخوان المسلمون، وهو بذلك يرفض أطروحة الانقلاب العسكري. يلتمس حججه في الدعم الذي قد يكون وفره الأمريكيون وحلفاؤهم في أوربا للإخوان المسلمين، بهدف حجب الحقيقة واستقطاب الثورة. يسجل في نفس السياق القبول الإرادي للإسلام السياسي الرجعي في وصفات السياسات الاقتصادية الليبرالية لأسباب عدة، بشكل خاص كون أن الإسلام يقدس الملكية الفردية. إذا كان الشعب المصري قد انتفض على حكومة مرسي فذلك يرجع، بحسب وجهة نظر المؤلف، إلى أنه اطلع عن قرب على طبيعتها الرجعية وتواطؤها مع

القوى الخارجية.
من جهة أخرى، يتضح من خلال قراءة الكتاب أن الأسباب التي جعلت السعودية تقطع علاقاتها مع حكومة مرسي تبقى من دون إضاءة من شأنها مساعدة القارئ على فهم مرمى الكاتب من وراء الطرح الذي يتبناه. يقف سمير أمين عند حدود التأكيد على أن النظام السعودي يدعم بصفة عامة الإسلاميين ما دام هؤلاء يتحاشون التعرض لمسألة الوصاية الملكية على المؤسسة الدينية. بعبارة أخرى، الوحدة التي أقامها منذ القرن الثامن عشر مؤسس الوهابية وعشيرة آل سعود في البلدان العربية الواقعة في منطقة الخليج ستصبح موضع تهديد في حال ما إذا وضع الإسلاميون نصب أعينهم إقامة أنظمة يقودونها هم أنفسهم وبشكل مباشر، على شاكلة ما حصل في إيران خلال ثورة 1979. ولكن هذا التحليل لا يسمح بإبراز الأسباب التي جعلت السعودية تدعم على الأقل في البداية الدولة الإسلامية في العراق والشام، هذا في الوقت الذي يسعى فيه هؤلاء أيضا إلى إقامة نظام إسلامي يقوده مباشرة إسلاميون.
يبدو أن سمير امين يقلل من أهمية التطورات النظرية والسياسية التي حدثت داخل حركة الإخوان المسلمون خلال العقود الأخيرة. كل التيارات الإسلامية، في رأيه، على الأقل في العالم السني، بغض النظر عن الزوايا الصوفية، هي تيارات غارقة في الرجعية. لدعم هذه الأطروحة يقدم عددا من الأمثلة، اقتبسها من التاريخ القريب للشرق الأوسط، حيث دعمت الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل والعربية السعودية الجماعات الإسلامية المتطرفة بهدف تقويض الحركات التقدمية والعلمانية (مثلا، دعم طالبان في أفغانستان، حماس في فلسطين على الأقل بداياتها). مع ذلك، فإن المسارات التاريخية المتباينة بشكل كامل لمختلف الجماعات الإسلامية قادت، ربما على الرغم منها، إلى تطوير ممارسات، وفي وقت لاحق تأويلات للإسلام متباعدة بشكل كبير عن بعضها البعض. القراءة التي يقدمها سمير أمين للإسلام السياسي يطغى عليها نزوع يلغي كل منظور تاريخي وهو ما يمنعه من اقتراح فهم معمق للمشكل الذي يطرحه الإسلام في المجتمعات العربية والإسلامية. يتغاضى كذلك عن كون أن البلد الإسلامي الوحيد الذي يعد أغلب سكانه من ذوي النزوع العلمانية، يعني إيران، هو بالضبط البلد الإسلامي الذي يلاحظ به الناس حقيقة لا تتغير على امتداد عقود عدة تتمثل في كون أن نظاما إسلاميا يخلق الكثير من المشاكل الاجتماعية قياسا بالحلول التي يجدها لأخرى.
هذا لا يعني بطبيعة الحال أن جميع الدول الإسلامية يجب عليها أن تكرر أو تمر بنفس التجربة الإيرانية. ولكن بدل اقتراح قراءات تلغي التاريخ وتضع الإسلام خارج الزمان والمكان، قد يكون من الأجدى ربما بالنسبة للدول الإسلامية أن تتبنى من بين التجارب الإسلامية تلك التي تتجاوز في مرماها المؤامرات المتكررة من لدن الثلاثي المشكل من العربية السعودية، الولايات المتحدة وإسرائيل. بعد ثورة 1979 في إيران، فإن حماس وحزب الله والإخوان المسلمين في مصر شكلت أمثلة من هذا النوع. فقط باقتراح قراءة نقدية صارمة ولكن لا تخرج بهذه التجارب عن إطار الزمان والمكان حيث يمكننا أن نأمل ألا تتكرر تجارب شبيهة في جهات أخرى من العالم الإسلامي...

النظام العالمي القديم

لكي يقدم تحليلا تاريخيا للعالم العربي والإسلامي، ينكب سمير أمين على ما ينعته باسم «النظام العالمي القديم»، الذي يبدأ في

500 وينتهي في 300 قبل الميلاد ليقوم على أنقاضه نظام آخر امتد إلى حين بزوغ شمس الحداثة الرأسمالية في أوربا مع القرن الخامس عشر. يتكون هذا العالم أساسا من ثلاثة مراكز: منطقة الشرق الأوسط التي تتمدد في اتجاه وسط آسيا، ومنطقة شبه القارة الهندية ثم الصين. بحسب المؤلف، فإن النظام السياسي والإيديولوجي هو الذي كان يسيطر في هذا العالم القديم على النظام الاجتماعي، خلافا للعالم الحديث الذي يلعب فيه الاقتصاد هذا الدور. ما يميز العالم القديم للحقبة السابقة هو ظهور عدد من الحركات الفلسفية والدينية والكونية التي شكلت «الموجة الكبرى الأولى من الثورات في التاريخ الكوني، والتي عبرت عن ذاتها عبر رؤية ذات نزوع كوني متجاوزة بذلك آفاق الفكر المنحصر في مجاله الترابي كما كان عليه الحال في السابق».

الشرق الأوسط كان له دور حاسم في التجارة بين الشرق والغرب، وذلك حتى القرن الخامس عشر، حيث ستتمكن الدول الأوربية من تجاوز دور المنطقة لإقامة خطوط بحرية تربطها مباشرة ببلاد الشرق الأقصى الأسيوي، الهند والصين وباقي العالم. هكذا، ستفقد منطقة الشرق الأوسط تدريجيا من أهميتها الاستراتيجية كمنطقة مركزية في العالم. على العكس من ذلك، فإن أوربا كان لها دور هامشي في قلب العالم القديم. ولكن هذا هو بالضبط الذي سمح في القرن الخامس عشر، كما يقول الكاتب، بتحقيق قفزة نوعية لتأسيس نظام اجتماعي جديد. التضاد بين مرونة الهامش وتصلب المركز يسمح لنا بتكوين رؤية عن تحولات تاريخية مختلفة كثيرا عن تلك التي تقترح عادة في الإطار الماركسي الكلاسيكي، حيث أن التاريخ مطبوع بتغيرات تدريجية وكمية تفسح المجال، عندما تطأ عتبة معينة، لتغيرات كيفية. بحسب الرؤية التي يقدمها سمير أمين، لا يبدو أن وجود أو غياب التحولات الكمية هو الذي يسمح بتحقيق القفزات النوعية.

العالم العربي بين الحداثة والماضوية

ينكب المؤلف بعد ذلك على الأسباب التي أدت إلى انحطاط العالم العربي والإسلامي. يركز على أنه في مواجهة عالم رأسمالي لم يعد يلعب فيه الشرق الأوسط دورا مركزيا، فإن المجتمعات الإسلامية لم يعد في إمكانها التحول إلى مجتمعات حداثية حقيقية مع إصرارها على التمسك بتقاليدها وأعرافها وأفكارها المتوارثة، لأن «الحداثة قائمة على مبدأ يفيد أن الناس، أفرادا وجماعات، هم الذين يبنون تاريخهم ولتحقيق ذلك من حقهم التجديد وعدم احترام التقاليد المتوارثة». بحسب سمير أمين، ما نعته العرب باسم «النهضة» في القرن التاسع عشر، لا يشكل خطوة حقيقية نحو الحداثة لأنها تختزل هذه الأخيرة في المظهر الأني لما ينتجه: «التقدم التقني». هذا الفهم السيء للحداثة، فضلا عن دخول الإمبريالية الأوربية إلى العالم العربي، ترتب عنهما «أن هذا الأخير سيدمج بشكل كامل في النظام العالمي ولكنه يُخضع ويُطوع بشكل مستمر حتى يساير متطلبات إعادة إنتاج النظام في مراكزه المهيمنة».

ومع ذلك، يرى سمير أمين أن العالم العربي والإسلامي مرّ ببعض التجارب التي كان من شأنها أن تساعده على تجاوز آثار هذه الحقيقة البئيسة. عرفت مصر على عهد محمد علي أو مع القومية الناصرية بعض النجاحات المهمة ولكنها انتهت في خاتمة المطاف بالفشل. نفس الشيء يمكن أن يقال عن تجارب أخرى مثل تلك التي عاشتها كل من العراق واليمن والسودان إذ سجل التقدم الثوري في كل

واحد من هذه البلدان تطورا ملحوظا، ولكن هذه التجارب، شأنها شأن التجربة المصرية، انتهت هي الأخرى إلى الفشل. كل ذلك بسبب تدخل القوى الإمبريالية الكبرى بأكثر ما يمكن من القوة والعنف، ولكن أيضا بسبب الصعوبات التي واجهتها الأحزاب الشيوعية في إدماج بعض شرائح الطبقات الوسطى، وأخيرا، بسبب الطبيعة الجزئية لماركسية هذه الأحزاب وهو ما منعها من التوفر على رؤية واضحة للظرفية ولمتطلباتها الخاصة.

في الفصل الختامي، يتناول سمير أمين الأسباب التي جعلت التجارب التجارب التي عرفتها عدد من الدول العربية والإسلامية تفشل، وهي أسباب يمكن اختزالها في إثنين أساسيين قد يتعين البحث عنهما في توسع المشروع العسكري للولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها (إسرائيل على الخصوص) وفي تطور الإسلام السياسي الماضوي والرجعي، بشكل خاص في تياراته الوهابية والسلفية التي تتلقى الدعم والتمويل اللازم من قبل العربية السعودية وهو ما يرجع بنا إلى التحليل الذي قدمه المؤلف في الفصول الأولى من الكتاب. يكتب سمير أمين أنه «في مواجهة شراسة الحداثة الرأسمالية وتهميش العالم العربي في المشروع الحداثي العالمي سيرفع الإسلاميون شعارا يحمل تضادا مغلوطا الحداثة/ الأصالة الذي سيشكل المحور الكبير للهجوم الظلامي وهو المحور الذي استغله الإسلام السياسي ووجد لنفسه من خلاله موطئ قدم في الساحة السياسية والاجتماعية والفكرية».

يبذل سمير أمين مجهودا محمودا في العمل على تصور عدة حلول لهذه الوضعية المعقدة والبئيسة التي تعيشها مختلف الدول العربية والإسلامية. يمكن تصور تطوير رأسمالية مستقلة، ظهور نوع من البرجوازيات القومية، وهو ما سيسمح لهذه البلدان برفض التقويم الأحادي الجانب لطلبات القوى الإمبريالية ويمكنها هكذا تدارك تأخرها. يشكك المؤلف في صدقية هذا المسار وقابليته للتحقق، باستثناء في حالة إيران.

المخرج الثاني يتمثل في نوع من الاستبداد المتنور. يركز المؤلف مرات عديدة على أن هذا الاختيار أفضل بكثير إذا ما قيس باستبداد ظلامي أو استبداد فحسب.

المسار الثالث بالنسبة لهذه الدول هو مسار الاشتراكية، أي الرفض المتزامن للحداثة الرأسمالية والماضوية الإسلامية. هذا في الواقع هو التصور الذي يفضله المؤلف. يبقى أنه لكي يتسنى تحقيق ذلك، يجب القيام بتحليلات أكثر دقة وعمقا للمشاكل الراهنة في منطقة الشرق الأوسط.

خلاصة القول، يشكل كتاب سمير أمين بالرغم من بعض الهفوات التي تعتريه إضافة نوعية إلى المكتبة التي تتناول القضايا العربية، كتاب يحمل هموم ومعاناة شعوب هذه المنطقة المأزومة ويحاول في خضم ذلك أن يحلل ليفهم ثم يقترح ما يراه مناسبا من حلول للمعضلات المطروحة.

تعريف بالمؤلف: ولد سمير أمين لأب مصري وأم فرنسية سنة 1931، قضى طفولته وصباه بمدينة بور سعيد. بعد حصوله على الثانوية العامة انتقل لمتابعة دراسته في فرنسا حيث نال عدة شهادات جامعية في العلوم السياسية والإحصاء والعلوم الاقتصادية. التحق بمجرد وصوله إلى فرنسا بالحزب الشيوعي الفرنسي ولكنه ما لبث أن ابتعد عنه لينضم إلى بعض الحلقات الماوية. من بين مؤلفاته العديدة: مصر الناصرية (1964)؛ اقتصاد المغرب العربي (1966)؛ المغرب العربي الحديث (1970)؛ التنمية غير المتكافئة (1973)؛ الإمبريالية والتنمية غير المتكافئة (1976)؛ الأمة العربية (1978)؛ العراق وسوريا 1960 – 1980 (1982)؛ إمبراطورية الفوضى (1991)؛ تحديات العولمة (1996)، الشيوعيون في العالم العربي (2006).

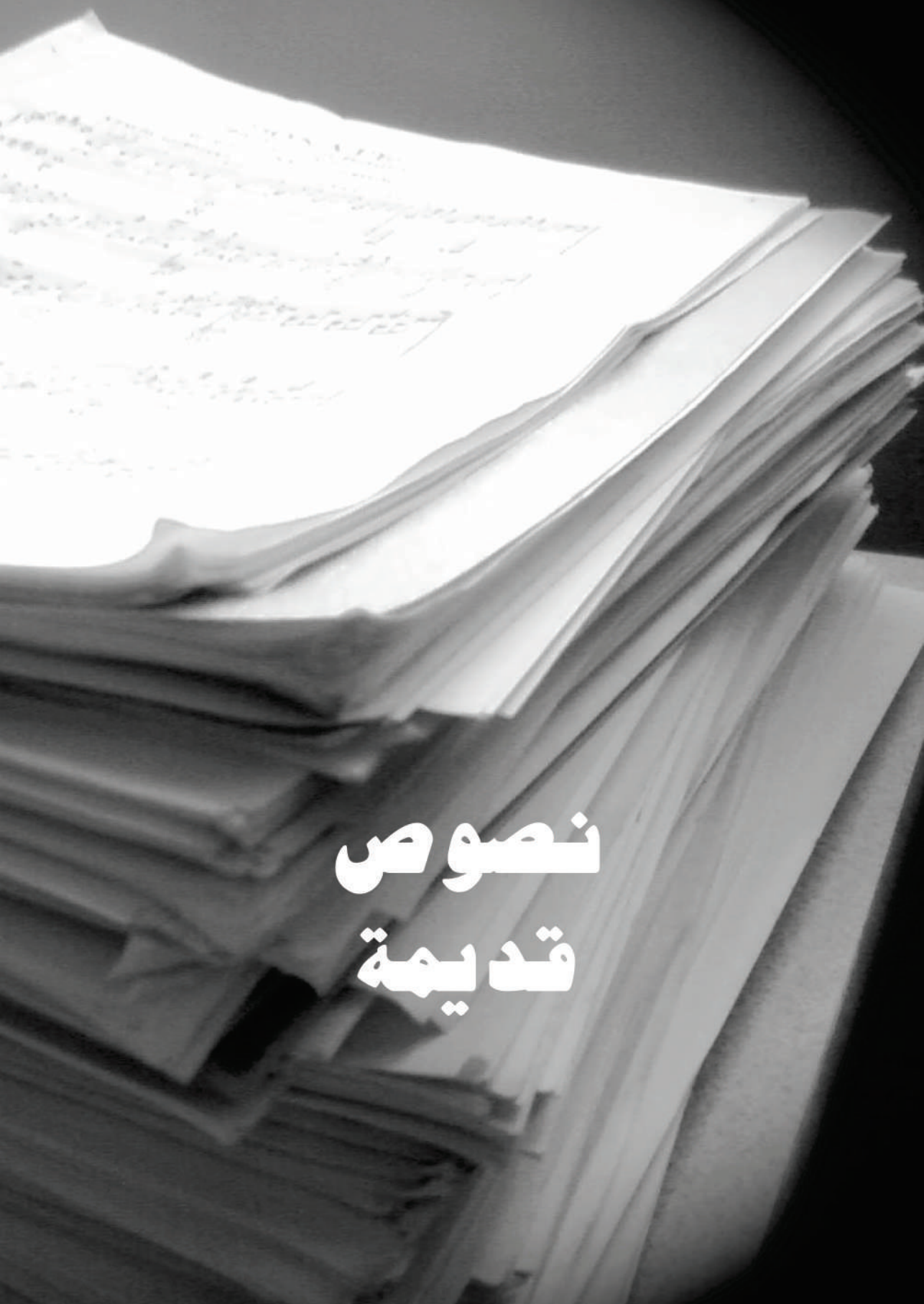

نصوص قديمة

مع الشهيد فهد *

محمد علي الزرقة

كان المناضل محمد علي الزرقة قد استجاب لطلب صديقه الرفيق (ابو زياد) فكتب ذكرياته عن الرفيق فهد كمناضل وإنسان. وطبعت في كراس صغير عام 1993. ووافق مشكورا على اعادة نشرها في الملف الذي اصدرته (الثقافة الجديدة) ضمن ملف صدر في العدد 303/ ايلول – تشرين الاول 2001 وذلك بمناسبة مئوية يوسف سلمان يوسف (فهد). وها نحن نعيد نشر المادة احتفاء بمرور 115 عاما على ميلاد الرفيق الخالد فهد، حيث ولد في 8 - 7 - 1901.

اخي العزيز ابو زياد

تحية وبعد:

منذ سنة وأنت تلح عليّ ان اكتب لك بعض ما عرفته عن القائد الشهيد الرفيق فهد. فكيف استطيع ذلك ومعرفتي بالحزب الشيوعي العراقي، الذي كان يقوده الرفيق فهد بصلابة ووعي وشجاعة، لم تدم أكثر من أربع سنوات (1942 – 1946)، وإقامتي في العراق كلها لم تتجاوز سبع سنوات ونصف؟ وكان ارتباطي بهذا المنظم الماركسي الفذ عابرا، وغير مباشر، في معظم الأحيان؟ وإن إقامتي معه في بيت سري واحد، مع مطبعة "القاعدة" وأجهزتها، لم تدّم أكثر من أشهر معدودة، من عام 1946، وانتهت في حزيران باعتقالي ثم طردي من العراق. فلم يعد لي، بعدها، من علاقة مباشرة به أو الحزب إلا من خلال ما كان يوافيني به الرفيق الشهيد محمد زكي بسيم، من ملاحظات ووصايا يسجلها على هوامش الصحف اليومية التي كان يرسلها لي بين أسبوع وآخر من بغداد.

وقد علمت أن القيادة في الحزب قررت فور اعتقالي نقل المطبعة والجريدة من بيتي إلى أماكن أخرى أجهلها. وهذا تدبير احترازي طبيعي في كل عمل سري.

أما ما عرفته عن الرفيق فهد فلا يعدو أن يكون صفحة واحدة من مجلد ضخم كان قد سطره بنضاله البطولي خلال عشرات السنين قبل قدومي للعراق وبعد تركي له.

لذلك اعتذر إذا جاءت هذه الأسطر التي أسجل فيها لمحات من تجربتي القصيرة في العراق مختصرة وعادية. وإذا كانت أحكامي فيها شخصية وسريعة قد لا ترضي غيري، غير أنها كانت بالنسبة لي جدية كل الجدة، ومهمة في اعتقادي، ومجدية لي، من حيث أنها فتحت أمامي نوافذ للمعرفة وحوارا للفكر، جديدة كنت أجهلها.

وقد أسرني هذا الرفيق العالي المستوى لا بلطفه وحسن استقباله لي ورعايته.. بل ما كنت أكتشفه فيه من عمق ودقة وخبرة وحسن تصرف، ما دفعني لأن أكبر فيه العمق والصدق والشجاعة وشمول المعرفة. والقيادة الناجحة، لا تستقيم عادة إلا لمن توفرت فيهم هذه الصفات مجتمعة، وذلك نادر وقليل.

ولم تتزعزع عقيدتي هذه به حتى يومنا هذا، رغم ما طرأ على تفكيري وأحكامي العامة من

تبدلات، أفرزتها الظروف العربية والعالمية المتجددة، التي لم تكن معروفة منا جميعا حينذاك.

حين قدمت إلى العراق في 15 /1 /1939، كنت هاربا من الاحتلال التركي لبلدي. كنت – آنذاك – عضوا نشيطا في حزب (عصبة العمل القومي) العروبية النزعة، الميال لعراق فيصل الأول، وخليفته غازي، صاحب الميول الوحدوية والذي كان يشارك – كما قيل – في إذاعة قصر الزهور، الموجهة إلى العالم العربي. وقيل أيضا إنها كانت سبب اغتياله. وكنا – نحن – أبناء لواء الاسكندرونة ننظر إلى العراق نظرة القوميين الألمان إلى روسيا حتى توحيدها على يد بسمارك.

ومنذ وطئت قدماي أرض (الكرخ) في سيارة عابرة للصحراء، لم أتوقف عن الاتصال بمن كان يمثل الاتجاه الوحدوي (في نظرنا). التقيت بوزير الدفاع السيد طه الهاشمي في مكتبه بتوصية من المجاهد فوزي القاوقجي. والتقيت بالعقيد صلاح الدين الصباغ في منزله في شارع طه على طريق الأعظمية، فقال لي وهو يصافحني بيده البضة: "إننا إذا لم نحقق الوحدة العربية خلال أربع سنوات نكون خونة لهذا الوطن". وتعرفت على صغار الضباط الشباب في لواء العروبة، الذي كان يقوده العقيد فهمي سعيد، احد العقداء الأربعة الذين كانوا يحكمون العراق بتوجيه من السيد أمين الحسيني، والذين عرفوا بالمربع الذهبي. وقابلت السيد يونس السبعاوي خريج جامعة دمشق في منزله، وحاورت خلال السنة الأولى من وجودي الكثير من ذوي النزعات المختلفة (اليمينية واليسارية). وحضرت اجتماعات نادي المثنى بن حارثة ونقلت إلى المرحوم محمد سعيد ثابت وساطع الحصري أحلام اللوائيين الوحدوية. ولطالما دخلت في حوارات مع الشبان اليساريين الذين كنت أحاججهم. وكان يبدو لي أن منطقي وحججي قد أقنعتهم في حين كنت اعترف – بيني وبين نفسي– أن هذه الحجج لم تقنعني. وقام صراع في نفسي يتناول كل قناعاتي السابقة. فتتضاءل وتتراجع أمام قناعاتي الجديدة التي تنمو وتتجذر في غلائل عقلي، وأحتفظ بها سرا في مكنونات عقلي الباطن.

عشت في لواء الإسكندرونة في غمرة الصراع العنصري (التركي العربي). وكان العدو الفرنسي الحاكم يمالئ الأتراك ضد العرب. فمن الصعب على شاب خارج لتوه من دور المراهقة أن يتجاهل مأساة قومه، فلا ينحاز بكليته إلى قضيتهم. وهكذا كنت.

أنا – أصلا – من عائلة فقيرة. مكانها في أسفل السلم الاجتماعي. وترعرعت في حي شعبي من أفقر الأحياء وأكثرها إهمالا وصخبا. وكنت أقرأ أحيانا بعض نشرات الشيوعيين السوريين عن العمال والفلاحين، أي عن طبقتي. فكنت أتمنى أن تتولى قيادة حزبي مثل هذا النهج. لذلك حينما أنهيت دراستي الإعدادية وبت عنصرا فاعلا في الحزب وفي جريدته (العروبة) في عامي 1937 و1938 بدأت أجتمع بالعمال والفلاحين ونقابات البحارة والصيادين، أكتب لهم عرائضهم وانشر عنهم المقالات الضافية في العروبة حتى غدا 80% مما كتبته في العروبة هو عنهم. وكان قادة حزبي يشجعونني على هذا النهج.. لذلك كنت – في حواراتي القومية – أنحو نحوا إنسانيا كنت أقول: إذا كان من حق العرب أن يتحرروا فلماذا لا يكون ذلك من حق الآخرين.

كنت في اللواء شابا ضئيل المعرفة، ثوريا نزقا. وكذلك صرت في العراق عندما كنت طالبا داخليا

في دار المعلمين العالية. وكنت قد اكتسبت

الجنسية العراقية اعتمادا على قرار فريد أصدره رئيس وزراء العراق في أواسط الثلاثينيات المرحوم ياسين باشا الهاشمي (من يدخل العراق من العرب ويعيش فيه خمسة عشر يوما يحق له اكتساب الجنسية العراقية). ولم يكن هذه القرار وهما، فقد حصلت على الجنسية به. وقد عاونني مثلما عاون جميع اللوائيين، المرحوم السيد حمدي الباجه جي الذي ظل له الفضل الأول على كل من درس من اللوائيين في العراق.. أقول كنت نزقا، فقادني هذا النزق إلى تزعم الطلبة في أعمال التمرد على إدارة القسم الداخلي وما يصيب مواده من ضياع، فاكتشف بعض الطلاب الشيوعيين في المعهد صلاح خامتي للترويض فتقربوا مني وساندوني ضد الإدارة. وكان من أهم هؤلاء طالب مستجد يقارب سني (السيد كاظم حمدان) فصادقني وحدب علي وأمن لي الكثير من الكتب، ثم صارحني بأنه شيوعي من جماعة الرفيق فهد، وأخذ يحضر إلى القاعدة بانتظام.

لم أكن حتى عام 1940 قد قرأت شيئا أساسيا أو مهما من الأدب اليساري، عدا ما تكتبه الصحف وكان العداء بين التيارين (اليساري واليميني) واضحا. وكانت إذاعة برلين وصوت مذيعها (يونس بحري: حي العرب) تجد لدى الكثيرين إذنا صاغية. فبعد فشل ثورة رشيد عالي الكيلاني وإعدام قادتها وسيطرة الإنجليز اشتد العداء ضدهم وتغنى الشعراء برفضهم.. قال الشاعر الرصافي قبل وفاته عن هذه الكارثة وعودة الوحي من ركاب العدو:

زفت إلينا العروس وزوجها الإنجليس
زفت إلينا زفافـا فيه الشقا والنحوس
المهر منـا دماءً والعرس يوم عبوس

وكان صراع التيارين في الجامعات واضحا أيضا، ولم أكن بعيدا عنه.

في هذا الجو المكفهر انتشر الأدب اليساري بكثرة، وتنوعت مجلاته القادمة من بيروت أو من القاهرة أو من القدس. وأصبح الشيوعيون يعتبرون الحرب العالمية القائمة حربا تحريرية ضد النازية بعد أن دخلها الاتحاد السوفياتي. وصار من حق الشيوعيين أن ينشطوا وكثرت مراجع هذا الأدب اليساري في المكتبات وبين أيدي الطلاب. وكانت الهزيمة المدوية للجحافل الألمانية في ستالينغراد بداية التراجع الألماني في جميع الجبهات، وعاملا مؤثرا في انتشار الأدب الماركسي الذي يمثل هذا الفوز، وكذلك الأمر في توسيع وتعداد المنظمات اليسارية التي يدعي كل منها أنه الأحق بتمثيل الحركة الشيوعية. وكان بعضها معاديا لفهد وحزبه. وقد وضح لي صديقي الجديد (كاظم حمدان) الكثير من هذا الجدل وشرح لي ما أمكنه من أسراره وأسبابه، وإن كل جماعة تمثل شريحة اجتماعية لها مصالحها. وقد بدأت أتعمق في دراسة بعض القضايا الشيوعية البارزة بجدية ورغبة كصراع الطبقات ودور البروليتارية وكفاحها للوصول إلى الحكم، وفرض دكتاتوريتها لمنع استغلال الإنسان للإنسان وإزالة النزاع الطبقي ومعه الدولة ومؤسساتها.

وكانت الخيبات التي أصابت العرب في النصف الأول من هذا القرن، وفقدان الفكر العقائدي المحلل والمعالج لهذه الخيبات، قد أبعدني تدريجيا عن المعسكر القومي المترنح الذي انتمي إليه. وبدا لي كأنه مركب تائه تتقاذفه أمواج عشوائية عاتية، وتضلله شعارات مثالية لا أجد لها تجسيدا في الواقع عند أي حزب أو جماعة أو مخطط فكري، ممن كان يقود هذا المعسكر. وقد قربني هذا

التباعد الذي أخذ عقلي يتوه في تضاعيفه الغامضة من التيارات اليسارية الجديدة التي تغمر أسواق العراق. وكان أول ما قرأت رواية (الأم) لمكسيم غوركي التي ترجمت أسوأ ترجمة، وطبعت كذلك أسوأ طبعة. ومع ذلك قد انفعلت – أيما انفعال– مع الأم وولدها (باول) وبالجو الروسي الذي أحسنت الرواية رسم خطوطه العامة. ففتحت شهيتي لقراءة أي شيء يصلني من هذا الأدب. فلما أمعنت في قراءة الكثير مما كانت تخرجه المطبعة العربية عن هذا الأدب بأبعاده الشعبية والعقائدية وآرائه المستمدة من جدلية ماركس وأنجلز وإضافات لينين وستالين، استطاعت أن تحفر في أعماقي أخاديد عميقة لفكر جديد، ولتفاسير فلسفية لم تخطر لي على بال.

وتساءلت – بيني وبين نفسي – عن حقيقة ما يقال عن الصراع الطبقي، وعن جدلية الحياة وصراع المتناقضات وولادة الجديد من قلب القديم لتقويضه؛ عن التفسير المادي للتاريخ وقوانين الطفرة وبقاء الأصلح، ومن هو الأسبق المادة أم الفكر؟ وكيف تم نمو النظام الاقتصادي وتطوره منذ المجتمعات البدائية وحتى انتصار البرجوازية وسيطرة رأس المال وتحوله إلى وحش إمبريالي يلتهم كل شيء؟ وهل يصح ما اكتشفه ماركس وانجلز، وكف تحول نظام الأجور إلى قيود حديدية طوقت العمال ووضعتهم على ضفاف القوت الذي لا يحمي حتى من الموت، وكيف ينمو التناقض في رحم هذا التطور، عندما يتكتل العمال ويتحولون إلى قوة جديدة قادرة على تفويض النظام القديم، وهل يمكن أن يتم ذلك فعلا.. متى وكيف؟ وهل يستطيع التنظيم – أي تنظيم – أن يحمي نفسه، وأن يحرر جماهيره فعلا حتى من قادته – البشر – الذين تستبعدهم السلطة وتحولهم – أحيانا – من أنبياء مصلحين إلى مشعوذين وسراق وقتلة؟

كانت أسئلة متنوعة وكثيرة تتصارع – بدورها – في خيالي.. كنت أجيب على بعضها وأعجز عن الإجابة على بعضها الآخر. إلا أن معظم إجابتي كانت تقربني أكثر فأكثر من المنطق الماركسي، رغم كل ما كان يخالج نفسي من مخاوف أو أوهام. وبحثت عن كل كتاب حتى الممنوعات وحتى المعادة وكان (كاظم حمدان) يساعدني مشكورا، وكثيرا ما كنت أدخل معه في حوارات. كان يفوقني في تحليلها بحكم انه كان منظما ويعرف ما يريد. أما أنا فكان تبلبل فكري المبتدئ يتحول تدريجيا إلى يقين يتبلور في عقلي ويثير الشكوك في كثير من المسلمات التي كانت تتملكني وأنا في العشرينيات من عمري، وكم كنت أدافع عنها بكل حرارة الإيمان والألم. ثم ما لبثت قراءتي الجديدة أن هزمتها، واتاحت لي أن أتقبل أفكارا جديدة تناقضها ثم ما لبثت أن تجذرت في نفسي.

وتساءلت كثيرا – سرا – ألا يمكن أن نكون – نحن العرب – قد ضللنا الطريق إلى التحرر؟ ألا يمكن أن تكون الأفكار الجديدة التي تعززها الماركسية والنضال الشيوعي عندما يتجذر في النفوس العربية الطموحة أقوم من غيره وأجدر بالإتباع، وأقرب إلى بلوغ الهدف المطلوب من التحرر؟

وانضويت – عمليا – الى حلقة يوجهها صديقي (كاظم حمدان)، وبدأت أقرأ في حلقتي هذه بعض الأفكار الماركسية الأساسية ونناقش – دوريا – ما تنشره القاعدة ونتحدث عن أهمية ما يحيط بها من أحداث. وأيقنت أني أحسنت الاختيار وكان اختياري أن أكون عضوا عاملا في الحزب الذي يقوده الرفيق فهد الذي لم أعرفه إلا من خلال ما اقرأه له في (القاعدة) وما يتحدث به الرفاق عنه.

ومضت أشهر تخرجت فيها من الجامعة بامتياز يؤهلني لأن أصبح معيدا فيها. وقبل أن تفتتح المدارس أبلغت أن الإدارة قد حرمتني من هذا الحق (فالدوائر الخفية لم يعجبها سلوكي)، وعينت مدرسا في العمارة (جنوب شرق العراق)، ونفذت هذا القرار. وقبل ذلك جاءني مرة (كاظم حمدان) وصارحني بتردد أنه تخلى عن الرفيق فهد، وأن ثمة انشقاقا في الحزب قاده رفيق آخر ارتبط به كاظم، وطالبني بأن انضوي معه، فسكت قليلا.. ثم أفهمته بحزم إنني لست بيدقا في لعبة. وأنني أكره الانشقاقات. ومع أنني ضد الخطأ فلا أرى أن إصلاح الخطأ يكون بالانشقاق، وانفصمت علاقتي به ولا أدري ما حل به بعد ذلك. ولن أنسى فضله ولطفه رغم اختلافي معه.

تعرفت خلال نشاطي الحزبي الجديد على العديد من الرفاق الواعين الذين لم أكن اعرف عنهم شيئا ثم أكتشف أنهم من القادة، منهم ابن صفي في دار المعلمين العالية الرفيق يهودا صديق الودود ودمث الخلق الهادئ الذي يتمتع بعقل واضح. وتعرفت إلى شاب آخر موظفا، كان مناضلا جادا يجبرك على احترامه، هادئ الأعصاب قليل الكلام، كثير العمل، عميق التفكير شديد الود.. ومنظما خلاقا في هذا الباب هو الشهيد محمد زكي بسيم الذي كان يكاد لا يمر يوم دون أن أراه. وتعرفت إلى شاب نجفي، أديب، وشاعر شديد الحساسية، مشبوب العاطفة هو الشهيد حسين محمد الشبيبي. وكان على دماثته وخلقه الرفيع، شديد الثورة سريع الاندفاع، شديد الحرص أيضا على القراءة والتأليف. وكان حماسه يبلغ أحيانا حد الاندفاع وكنت أحب فيه هذه الصفات. وتعرفت إلى عدد آخر من النقابيين وزعماء العمال والفلاحين، منهم رئيس نقابة السكك الحديدية علي شكر، والنقابي صلب العود والريفي (فعل ضُمد) وغيرهم. كما تعرفت على المحامَي الكاظمي الشهيد محمد حسين أبو العيس الفارع الطول الذي يبدو كأنه مصارع بطل، والمحامي العاني الودود سالم عبيد النعمان.

وفي منزل الرفيق محمد زكي بسيم قدمني إلى رفيق جديد لم أعرف عنه شيئا. كان ربع القامة في الخامسة والأربعين – حسب تقديري – هادئ الطبع قليل الكلام، يحسن الاستماع ولا يشارك إلا بكلمة أو كلمتين، ولكنه كان يحسم بهما الحديث الذي نناقشه بأفضل واصح صورة، وعرفت أخيرا أنه الرفيق فهد.

كنت أعرف انه من أصل عمالي (يوسف سلمان)، من منطقة الناصرية، وانه تدرج في صفوف العمال وزار الاتحاد السوفياتي ورافق ديمتروف في الكومنترون، والتقى هناك خالد بكداش. لذلك كانت آراؤه وأحكامه قوية إلى درجة لم تبهرني فقط بل أدهشتني. لقد أتيح لي مرارا – حتى وأنا طالب – في الأشهر الأخيرة من دراستي أن التقي به. كان لقائي الأول – الآنف الذكر – في منزل الشهيد محمد زكي بسيم، الكائن في زقاق ضيق من أزقة الحيدرخانة القريبة من دار الحكومة. فكان الحديث عاما، وكنت معروفا بأنني من الطلاب المهتمين بالدراسة، فسألني عن مدرستي وعن دروسي وعن المدرسين، وعن أهمية ما يلقونه من دروس. سألني: ما هو اختصاصك؟ قلت: الاجتماع. وكان علم الاجتماع واسعا يشمل حتى الجغرافية والتاريخ. فأضاف: وما هو الكتاب الذي يكون مدار دراستكم في علم الاجتماع؟

قلت: كتب علم الاجتماع، لـ (ماك إيفر) وهو كتاب كبير وشامل.

قال: فقط ؟.... قلت: أهمها أنه جامع وشامل.

قال: كيف يعرّف ماك أيفر الدولة.. مثلا؟
واجمعت فكري وقلت: يعرّف الدولة، بأنها المؤسسة الاجتماعية الأكبر التي تضم جميع المؤسسات، تنسق بينها بحيث تستقيم في ظلها الأمور.
قال: لخدمة من؟ قلت: لخدمة المجتمع ككل، لضمان استمراره ونموه وبقائه.
فابتسم وأردف: ألم تدرس في حلقتك الحزبية النظام الطبقي في المجتمع، وصراع الطبقات، وتباين مصالحها؟ فلمن تقدم الدولة – وهي المؤسسة الأكبر – خدماتها من هذه الطبقات؟ ومن تمثل – أصلا – من هذه الطبقات المتصارعة؟
قلت: تمثل الطبقة الأقوى... وفي مجتمعاتنا الحالية: تمثل البرجوازية مالكة الرأسمالية وتنظم العمل لخدمة مصالحها هي، حتى لو تجاوزت على مصالح غيرها من الطبقات.
قال: أحسنت فهي إذن (أي الدولة) بقوانينها وأنظمتها، ليست أكثر من مقرعة تقرع ظهور العمال والكادحين، تنظم المجتمع وتديره للوصول إلى هذا الهدف الذي يدعم سلطتها ويحميها. ألم تكن كذلك في جميع العصور، منذ ظهرت الملكية الخاصة وانقسم المجتمع إلى طبقات مالكة (أي حاكمة) وطبقات مستغَلة (أي محكومة)؟ الدولة مجرد (عصا) في يد الحكام.
أليست القوانين والنظم والقواعد والمؤسسات أسلحة لها.. لا تتردد عن استخدامها في حروبها.. (في صراعها الطبقي)؟ هذه هي مهمتها الأساسية. وهي – إذن – ليست للمجتمع – لكل المجتمع – كما يقول كاتبك الكبير، بل لخدمة الطبقة الحاكمة.
كان كل ما قاله صحيحا. ومقنعا وكان علي أن أوافق دون أن يكون لأحكامي أو لآراء (ماك إيفر) القوة القادرة على الصمود أمام المنطق الماركسي كما عبر عنه الرفيق فهد حينذاك. وسار الحديث هكذا بقية الجلسة وتضاءلتْ أمام أقواله السديدة كل معلوماتي الجامعية، وبدت سطحية أمام تفسيرات هذا القائد العمالي الفذ. وبدا لي – في أول لقاء لي معه – عملاقا وعالما متفوها تفوق عليّ بسهولة، وأدرى بعلومي الاجتماعية الكلاسيكية التي كنت أعتقد أنني قد أحسنت دراستها. فاستوعبت قشورها ولم أستطع الغوص إلى أعماقها، إلى مضامينها وحقيقة مدلولاتها كما فعل.
لم يخبرني أحد من الرفاق الحاضرين أنه الرفيق فهد، ولكن منطقه عرفني به. وافترقنا يومها دون أن يصرح لي بشخصه ولكن مجرد مقارنتي المنطقية بين معلومات هذا العامل الواعي، القادر على إلقاء أضواء فلسفية على أقواله وتفسير القوانين والأحداث على أساليبها بشكل عجز عن مجاراته طلاب الجامعة من أمثالي، كما عجز عنه حتى المثقفون الذين عرفتهم ممن يحملون الشهادات في اختصاصاتهم أقنعتني بما ذهبت إليه. اكتشفت فيه من اللقاء الأول أنه جدير بأن يكون القائد الفعلي للحزب. اكتشفت فيه رجلا حاد الذكاء كبير المعرفة، لماحا، عميق الفكر، سديد الرأي. وكنت اعرف من الأحاديث العابرة عنه أنه زار الاتحاد السوفياتي ودرس في الكومنترن ولطالما حدثني – بعد ذلك – وفي لقاءات أخرى عن هذه الفترة من حياته المبكرة وعن نضاله.
وعندما تحدد سفري إلى العمارة، للالتحاق بوظيفتي مدرسا فيها لعدة علوم، سُعدت للتعرف إلى هذا الجزء النائي من العراق، والذي لم يسبق لي معرفته. وكانت وصية الرفيق فهد لي أن أتصل بمعلم صابئي أسمه (مالك سيف) وأن انضم إلى حلقته. كان قد مضى عليّ أكثر من سنة وأنا اعمل في حلقة من حلقات الحزب، وأتعرف ببعض كوادره،

في شتى المناسبات. وكنت أعتقد أنني قد أصبحت شيوعيا عربيا يناضل في صفوف حزب قوي مدرب، منظم، وواع لأهدافه الكبرى ومهامه اليومية.. وله في جميع طبقات الشعب وفئاته العرقية والدينية والمنطقية (من منطقة) جذوره الشعبية الواسعة ذات الفعالية والأثر الواضح الذي يراه المراقب جليا في كل مناسبة ولاسيما في عمق الطبقات العربية الكادحة في الريف والمدن.

قلت: (شيوعيا عربيا) لأنني لم أجد ضرورة للانفصال نفسيا عن مثلي التحررية العربية، ولا عن قناعتي الراسخة في أعماق الضمير بإنسانية النضال العربي، ومجافاته لكل تلك الدعاوى الفجة التي كان يطلقها بعض العنصريين باسم القومية العربية وهم منها براء ومعظمهم من أبناء الموظفين الأتراك الذين تخلوا عن مواقفهم بعد انهيار الدولة العثمانية، أو الذين يدفعهم العداء للإنجليز إلى الانحياز للنزعات المتشبهة بالنازية. كنت أؤمن في أعماقي بأني عربي أولا، وأن العروبة هي عائلتي الأولى الأقرب، وان خدمتي لها لا تفترض فيّ معاداة بقية العوائل أو عدم التكاتف والنضال معها في سبيل تحقيق الأهداف الأبعد والأكبر. وان ما ارتبط به من عائلة هي الدائرة الداخلية الأقرب، لا تفترض بعدي عن الدوائر الأخرى الأوسع التي تحيط بها دائرة بعد أخرى. وأن الوشائج بين هذه الدوائر قوية، لا تعطل فهمي الجديد للفكر الماركسي الذي لا يطلب مني قط أن أبتعد عن عائلتي الأولى. ذلك أن عائلتي الأولى وما يليها من حي أو مدينة أو قطر يحيط بعضها بعض، إن هي إلا أجزاء متصلة متوافقة لا متنافرة. تلك هي القضية في نظري.. وإن نسيج الإنسانية بكامله إنما يتألف من هذه الدوائر ولو أن الدائرة الأكبر التي تضم جميع الدوائر هي الإنسانية.

ومن المعجب والمفيد أن أعلن أنني وجدت في نظريات الرفيق فهد وتفسيراته الفلسفية المستمدة من الفكر الماركسي، أنها كانت تدعم هذه النظرة الاشبه بالعقيدة ولا تخالفها.

وبعد سنة ونصف من نشاطي هذا، وفي اجتماع رسمي للحلقة التي أنتمي إليها، فوجئت بالمسؤول عن الحلقة يقدم لي ورقة أمليها وأوقع عليها فيه طلب مني بقبولي الانتساب للحزب. فدهشت وقلت للمسؤول بشيء من الاحتجاج والعتب: ماذا كنت إذاً طوال هذه المدة؟

قال – بابتسامة لطيفة – كنت صديقا، آزرتنا واستطعت خلال ذلك، أن تفهمنا جيدا، وان نفهمك، وأن نتأكد من أنك عنصر واعد، جدير بأن تكون منا، وأن نخوض معا بقية معارك وطننا. وتلقيت أجابته الرصينة برضا ورحابة صدر، ولم أعلق. وبعد أيام بلغت أنني قبلت عضوا عاديا في صفوف الحزب. وبدأت أواظب – كعادتي – على اجتماعات حلقتي ثم انتقلت إلى غيرها من الحلقات الأقرب من القيادة.

لم أكن اهتم بالتفاصيل الشخصية التي يتناولها الأعداء أو المعارضون، أو المنافسون للحزب، أو الذين يجدون أنهم أجدر بالقيادة من الرفيق فهد. فكل تلك التفاصيل كانت تبدو لي وكأنها غريبة عني، لا أستوعبها جيدا ولا أعيرها التفاتا وكثيرا ما كنت أنساها فورا.

لم اهتم بماضي الحزب فأنا مواطن جديد وطارئ. ولست قديرا على التغلغل في أعماق الماضي الداخلي لأحزاب العراق. كذلك لم أهتم بقادته وكوادره العليا، بأسمائهم الحقيقية أو جذورهم الطبقية أو انتماءاتهم العرقية أو الدينية أو المذهبية. فكل هذه أيضا كانت غريبة عني. كنت مجرد عنصر طارئ بينهم ولا خلافات لي مع أحد منهم، فلا أستطيع – والأمر كذلك – أن أخوض

في هذه الأمور. كنت – فعلا – قد حصلت على الجنسية العراقية. ولكن هذا لم يكن كافيا لأن يجعلني جزءا طبيعيا من النسيج العراقي الشعبي. كنت اشعر أحيانا بالغربة رغم ما يحيطني به الرفاق والقائد من رعاية وحب.

كان رفاقي الذين أحاورهم متعددي الأصول واللغات والمذاهب. كانوا عربا وأكرادا وتركمانا وآشوريين وكلدانا وصابئة ويهودا. كان المسلمون منهم سنة وشيعة، وكان المسيحيون كذلك. كان اليهود كثيرين بين الرفاق وكانت لقاءاتي معهم كثيرة وخاصة بعد إنشاء دار الحكمة للطبع والنشر، وتأسيس حزب التحرر الوطني، وتأسيس عصبة مكافحة الصهيونية. وقد استشهد بعضهم في المظاهرات.

لم التفت إلى هذه التفاصيل كنت أناقش أنشطة كل فرد من هؤلاء ومدى صدق تعامله مع القضية التي توكل إليه ومع الحزب، ومدى استعداد أصحابها للعمل الجدي والشجاع وللتضحية، مما يجعلني أثق بمعظمهم وأتعاون معهم بلا تلكؤ ولا عقد، مما كان يحفل به مجتمع العراق حينذاك. وأغلقت أذني عن كل تلك المقولات المعارضة أيا كان مصدرها.

أسعدني مجتمع العمارة فقد منحني المدير الطيب غرفة من غرف القسم الداخلي مع مجموعة من المدرسين المصريين الذين منحهم غرفا أخرى. وبدا لي مجتمع العمارة أكثر نقاء وتجانسا من مجتمع بغداد. واتصلت بالمعلم (مالك سيف) فضمني إلى حلقته الحزبية وكنا ثلاثة: هو وزميلي في الثانوية السيد علي السامرائي مدير المكتبة (الشاب الظريف الطيب الكريم) وأنا. ولم أنسجم قط مع مالك سيف، كان محدثا أشبه بالجاهل يقرأ علينا كراسا "أسس اللينينية" بقلم ستالين، مترجم للعربية، ومنقول بخط اليد، فكان يقرا وكأنه نائم فيدب النعاس إلى عينيّ، وكنت ضحية النعاس الذي أغالبه مضطرا، فلا أفهم شيئا مما يقرأ. فإذا ما انتهينا وخرجنا إلى مقهى شعبي نتناول "استكانا" من الشاي أشعر كأنني قد تحررت من كابوس.

وكما في بغداد تعرفت في العمارة الى شوارعها وأسواقها وأصنافها وسكانها الكرماء الطيبين، وأصبح لي فيها عدد وافي من الأصدقاء، وخاصة بين المتعلمين محامين أو مهندسين أو معلمين أو حتى من طلاب الصفوف العليا الذين لمست فيهم حبا أدهشني.

وعرف عني في المدينة وبين الطلبة والمعلمين أنني مدرس يساري متطرف. وكانت مشاكل الثانوية كثيرة، وخلافات الإدارة التعليمية مع الطلاب لا تنتهي. ونما لمدير المعارف (أظن أن أسمه الطالباني أو الطالقاني) أنني مدرس مشاغب، وأن الطلاب يتأثرون بي، وربما كنت محرضا لهم. فطلب من إدارة المعرف في بغداد نقلي من العمارة. ولما تأخر ذلك ثار وهدد بالاستقالة قائلا: أما أنا أو هو في العمارة. ولم يكن قد مضى على وجودي الأشهر الخمسة. ثم نقدم بشكوى إلى دوائر الأمن يتهمني، فصدر القرار بنقلي وتوقيفي وتقديمي للمحاكم في العمارة. ومر هذا القرار السري على أصدقائي فأنبؤوني به، وهيأوا لي وسيلة سرية للنقل إلى بغداد قبل الصباح وقبل تنفيذ القرار. وهكذا عدت إلى بغداد متخفيا. ولما كنت قد منعت من التدريس في مدارس الحكومة لجأت إلى المدارس الخاصة في بغداد لتأمين معاشي خلال السنتين التاليتين. ولم تحول إدارة العمارة الدعوى إلى بغداد فلم أوقف فيها، وتنوسي الأمر حتى عام 1945. وكنت بحاجة إلى الحصول على

جواز سفر ولا بد من تسليم نفسي في العمارة ومحاكمتي، ولجأت إلى ضابط كبير كان قد تزوج فتاة لوائية فأتصل بزملائه فأنهوا هذه المشكلة بسلام.

وفي عام 1945 كانت قد بدأت في العراق حركة شبه ديمقراطية في وزارة أرشد العمري والوزير سعد صالح فأجيزت بعض الأحزاب الديمقراطية كالحزب الوطني الديمقراطي بقيادة السيد كامل الجادرجي صاحب جريدة الأهالي، وحزب الشعب بقيادة السيد عزيز شريف وحزب الاستقلال. وبدا للرفيق فهد أن الظرف مناسب للمطالبة بإنشاء حزب يساري (أي واجهة علنية للحزب الشيوعي) هو حزب التحرر الوطني. وطلب الرفيق فهد مني أن انضم إلى عدد من الرفاق محامين وأساتذة ومهندسين وقادة نقابيين وفلاحين فوضعنا نظاما لهذا الحزب، وتقدمنا بطلب إجازة كغيرنا ولكن السلطة لم ترخص لحزبنا العمل. وظللنا ننتظر موافقتها بدون جدوى ونصدر البيانات والكتب ونعقد الاجتماعات الشعبية باسم "الهيئة المؤسسة لحزب التحرر الوطني"، وكنت من أعضاء هذه الهيئة وربما من أنشطهم.

كما كلفت أن أنشئ شركة تجارية مساهمة للطباعة والنشر باسم (دار الحكمة) على أن أكون مديرها المسؤول، وجمعنا خلال شهرين أكثر من (6000) دينار تبرعات لقاء أسهم أعطيت للمتبرعين، وما زلت أملك (150) سهما موقعة باسمي بصفتي مديرا لها. واشترينا مطبعة كبيرة مستعملة وصرنا نطبع عليها كتبنا وكتب حزب التحرر، وكتب عصبة مكافحة الصهيونية وجريدتها (العصبة)، (وقد اهديتك مجموعة أعدادها وربما كانت المجموعة الوحيدة الباقية). وتحولت مكاتب (دار الحكمة) إلى ما يشبه بالنادي السياسي يؤمه الكثيرون من الحزبيين حتى الكوادر العليا، والعديد من الشعراء والأدباء والصحفيين والنقابيين ومندوبو المناطق. كما أصدرنا – بأمر من الرفيق فهد – مجلة شهرية باسم (واسط) كنت أتولى إصدارها وأكتب العديد من مقالاتها بأسماء مستعارة أو باسمي الشخصي. (كنا نكتب حتى المقال الذي يصدر باسم صاحبها). وقد نشرت المجلة مقالة لفهد ذاته عنوانها: "نحن نكافح في سبيل من؟ وضد من نكافح؟" نقلتها عما كانت تنشره جريدة العصبة من افتتاحيات بقلمه دون أن يذكر أسمه. وكان الرفيق فهد حريصا على الإطلاع يوما بيوم على معظم ما ينشر من مقالات أو كتب، فيصحح بعضها ويعدل بعضها، وقد يضيف إليها فصلا يرى ضرورة لنشره. وعندما كتبت كتابي (اقتصادنا الوطني) أضاف إليه بقلمه فصله الأخير. وكذلك فعل بالنسبة للكتاب الذي أصدرته الدار للدكتور يوسف عبود، العائد من ألمانيا، وصاحب مشروع إنشاء مصنع الصابون. وكان عنوان الكتاب (مستقبل العراق الصناعي) فأضاف إليه الرفيق فهد بقلمه وبموافقة المؤلف فصله الأخير عن الصناعة الثقيلة. ومن المهم أن اشهد بأن هذه الإضافات كانت تتناول أبعادا جديدة أهملها الكتاب، تعطيه قيمة أكبر، وتمكن القارئ من كسب فوائد جديدة. وكذلك نشرنا بنصيحة منه كتاب (تنظيم العمل والحركة الستخانوفية)، وكتاب (القنبلة الذرية)، وكتاب الرصافي (على أبواب سجن أبي العلاء) وقد كتبت مقدمة طويلة له. وكنت قد اشتريت كل المخطوطات التي خلّفها الرصافي بعد وفاته من خادمه، بقصد نشرها، وقد نشرت مخطوطة واحدة منها وظلت المخطوطات الباقية ملكا لدار الحكمة، حتى استولت الشرطة الجنائية على الدار ومحتوياتها ومنها مكتبتي الخاصة

وكانت تضم ما يقرب من خمسة آلاف كتاب جمعتها خلال إقامتي في العراق، ومنها هذه المخطوطات التي نهبت وضاع أثرها. كذلك ترجمنا كتاب أنجلز (اصل العائلة) ونشرناه بمقدمة طويلة لي. كانت الكتب المهيأة للنشر كثيرة، تتجاوز العشرات حين أغلقت الدار ونهبت شرطة التحقيقات الجنائية محتوياتها.

كما تسلمتُ تنظيم طلاب الجامعات في بغداد. وأتذكر أن الشاعر العراقي الكبير المرحوم بدر شاكر السياب كان في بداية انطلاقه من هؤلاء المرتبطين بي حزبيا. وقد جاءني في نيسان من عام 1946 وقدم لي قصيدة طويلة لنشرها في (واسط) وكانت عمودية قيمة، تتحدث عن فيضان دجلة والفرات. فقلت له سأنشرها في هذا العدد طبعا ولكن بشرط قال: ما هو؟ قلت أن تضيف إليها بضعة أبيات انشرها في وجه المجلة كعنوان للقصيدة ودعاية لها. على أن تكون هذه الأبيات خطابا موجها إلى شعب العراق، تتساءل فيه: متى يحين فيضك أيها الشعب العظيم، مثلما فاض دجلة والفرات، ومتى تكسر قيودك مثلما كسر النهران سدودهما. فجاءني بعد يوم يحمل إلي الأبيات المطلوبة فنشرتها في صدر المجلة فعلا وكما وعدته.. وكانت تمثل الهدف الذي طلبت منه إضافتها من اجله. وهي هذه الأبيات والمجلة موجودة في مكتبتي....

رب ناج من الردى، خلّف الأنباء صرعى من المائج الهدّار
مثقل الظهر، بالسنين الطويلات، وبأشلاء بيته المنهار
لاح لي فانطلقت أزجي إليه الشعر حرّان قاذفــا بالشـــرار
أيها المبتلى وأدعو بك الشعب وقد همّ غيظه بانفجـــــــار
ذلك النهر فاض بعد احتباس، عاصفا بالــدود عصف أقدار
نبئني: أي ساعة أبصر الشعب وقد فاض بعد طوال الأسار
ساحقا في اندفاعه ما أقام الظلم في دروبه من الأسوار

ونشرت القصيدة كما وعدت.

وكان في الحلقات الجامعية التابعة لي شاب أرمني عرفوه علي باسم (اصطفان)، ولا أعرف إذا كان هذا هو اسمه الحقيقي أو انه اسم حركي. وكان أديبا يحب الشعر الأرمني الثوري ويرويه بافتخار. وكان يقضي معي الساعات الطوال يقرأ عليّ قصائد ارمنية ثورية تحرض العرب على غاصبيهم نظمها الشاعر الأرمني (أزادفشدوني) فيترجمها لي بلغة بغدادية عامية، فصرت أصوغها له بلغة عربية فصيحة. ونشرت له بعضها في مجلة واسط باسم مستعار آخر (أرمو)، وكونت منه دفترا صغيرا ما زلت أملك مخطوطته.

وعندما قرأتها على زميلي المدرس الأرمني في حلب في الخمسينيات، السيد (أوديك اسحاقيان) سرّ بها وأهداني ديوان الشاعر أزادفشدوني بالأرمينية وترجم لي قصيدة أخرى ضممتها إلى دفتري ولا أعرف الآن مصير الرفيق أصطفان الذي طالما أسعدني حسه الأدبي الشاعر.

وهكذا كنت جم النشاط طوال أعوام (1943 و1944 و1945 و 1946) بقيادة فهد والكثير من توجيهاته المباشرة. ولذلك رشحني الرفيق فهد للاتصال بالحزب الشيوعي (اللبناني السوري) باسمه وطلب إليّ أن أسافر في العطلة الصيفية لعام 1943 إلى بيروت وأن أحمل إليها مطبوعات الحزب وأدبياته، ولاسيما أعداد القاعدة ونظم الرفيق الشهيد محمد زكي بسيم لي حقيبة

فنية فيها أرضية سرية جمعت فيها كل تلك المطبوعات، واخترت السفر على عربة شحن للبضائع كمساعد للسائق اللطيف الودود (عدنان)، وكانت هذه الشاحنات تنقل السلع العسكرية من بيروت إلى بغداد فطهران فالاتحاد السوفياتي وتعود فارغة. وكان أجرها زهيدا لي وممكنا، وكانت سفرتي معه ممتعة سجلتها لنفسي في عشر صفحات. ولم يفطن لما في الحقيبة رجال الجمارك لما تضمه حقيبتي الحقيرة. وقابلت في بيروت الرفيق الشهيد فرج الله الحلو فسلمته، فسرّ بها، وحدثته عن العراق والحزب وفهد وكل شيء، وكان متعاطفا، حملني تحياته وإعجابه، وتمنى عليّ أن أنقل إلى الرفيق فهد ضرورة اللقاء مع الكتل المعارضة وتسهيل عودتها للحزب. وقد فعلت ذلك وأسعدني أنني شهدت عودة الكثير من هؤلاء وتعاونت معهم في أعمال النشر ونشاطات حزب التحرر الوطني، وأصبح منهم أصدقاء لي لن أنسى عمق صداقتهم.

وفي عام 1945 طلب مني الرفيق فهد أن استأجر منزلا بأسمى، يظل سريا لا يعرف به أحد. ولا أتخلى عن مكاني المعروف وهو غرفة في منزل في عقد النصارى، ظللت اتردد عليه ولم أقطع صلتي به. واستأجرت المنزل المطلوب، وهو منزل عربي واسع نسبيا، فيه عقد كبير تحت مستوى ارض المسكن، في حي الشيخ عمر على مقربة من جامع الولي الشيخ عبد القادر الكيلاني. أقمت فيه طوال عام 1945 ومعظم عام 1946، حتى تم اعتقالي في حزيران من العام نفسه، ثم طردت في أواخر آب. فتكون إقامتي في المنزل سنة ونصف وفي العراق سبع سنوات وسبعة أشهر. ولم أعرف بعد اعتقالي كيف تم التنازل عن المنزل، وتسليمه لأصحابه، ومتى، ولو أنني عرفت فورا أن مطبعة الحزب وجريدته قد نقلتا من المنزل فورا إلى مكان سري آخر، أجهل كل شيء عنه.

لقد استخدمت هذا المنزل لإقامتي "المزعومة" لكن الرفيق فهد هو الذي أقام فيه. وكنت معه مجرد رفيق يحضر بعض اجتماعاته ويغيب عن أكثرها. وقد نقل إليه مطبعة القاعدة واتخذ من العقد (القبو) الواسع مقرا لها. وخزن فيه الورق والأعداد وكل لوازمها. وأخذت القاعدة تطبع في هذا المكان وتخزن فيه أعدادها وترزم وتوزع منه على جميع أنحاء العراق. وكان موقع البيت المنزوي بين الأزقة، وقدسية الحي المجاور للجامع الكبير وكثرة الأغراب الذين يؤمون الحي عاملا مفيدا لصرف الأنظار عنه.

كان الذي يدهشني في سلوك الرفيق فهد أنه لم يكن قائدا منظما فذا وموجها فكريا عميق النظر وبعيده، قادر على التنظير الفكري وتحليل الأحداث وفلسفة أسبابها ووضع الشعارات المنطقية المقبولة للمرحلة وأسلوب نشرها فحسب، بل كان إلى جانب ذلك عاملا بارعا كأكثر عمال الطباعة مهارة.. كان يصلح أجزاء المطبعة ويهيئ حروفها ويكتب مقالاتها ويصفّها مهيأة للطبع ويقوم بنفسه بطبعها ورزمها، يفعل كل ذلك معا وبمنتهى البراعة والدقة والتنظيم. وكنت أتقدم لمساعدته أحيانا.. ولكن كل مساعدة له كانت تبدو ضئيلة بالنسبة لعمله الكبير الذي لا يتوقف لا في الليل ولا في النهار. كان يعيش الرفيق فهد في هذا البيت معيشة المتصوفين والرهبان. وكنت ألحظ كيف كان يكرس كل لحظة من لحظات الليل والنهار، لإنجاز القضية التي وهب نفسه لها، على أكمل وجه.

كان الرفيق فهد في حدود الخامسة والأربعين – كما حددت ذلك من وجهة نظري – هكذا كان يبدو لي كالشاب النشيط المقبل دائما

على العمل بكل أشكاله الفكرية والتنظيمية واليدوية. وكان قوي البنية – كما كنت أراه – جم النشاط. والغريب انه في جميع حواراته وأحاديثه العادية التي حضرتها في بعض سهراته مع الرفاق، أو في تصرفاته الشخصية، لم يشر إلى الجنس أو الكحول أو يقرب من ذلك بحسب علمي ورفقتي شبه الدائمة له في هذه الشهور من عامي 1945 و1946. وكان ذلك يثير فيّ المزيد من الإعجاب به وإكباره. كنا نأكل ما يتيسر أو بعض ما يحضره بعض الرفاق أو ما نشتريه من الأزقة التي تحيط بنا.

وفي عام 1945 رشحني الرفيق فهد لحضور المؤتمر المصغر للحزب (الكونفرنس) الذي عقد في يومين متتاليين في منزل أحد الرفاق في حي (العلوازية) فحضرته كعضو منتدب واستمعت فيه إلى تقرير الرفيق فهد، وتقارير بقية الرفاق من القادة. وحين جرى انتخاب اللجنة المركزية الموسعة، فوجئت أن الرفيق فهد قد رشحني لعضويتها، وانتخبت فعلا وحضرت اجتماعين من اجتماعاتها التي كانت تعقد مرة كل ستة أشهر.

وقد تعرفت بسب نشاطي الفكري بالكثير من الأدباء والشعراء الحزبيين وغيرهم. وكان الرفيق فهد كثيرا ما ينتدبني – بصفتي عضوا مؤسسا في حزب التحرر الوطني – للقاء بعض السياسيين والقادة المسؤولين. قد نبتُ عنه مرتين في مفاوضات مع السيد كامل الجادرجي، ومع السيد عزيز شريف ومع الشاعر محمد مهدي الجواهري في مكتب جريدته (الرأي العام) وكثيرا ما كنت أقرب من وجهات النظر بين الحزب وهؤلاء أو أخفف من نقاط الخلاف.

كان الهم الأكبر هو المشاركة في الدفاع عن الديمقراطية وعن حرية الأحزاب وعن مطالبة الآخرين بمناصرة حزب التحرر الوطني للحصول على الإجازة بالتنظيم والعمل، ورد الافتراءات عن عصبة مكافحة الصهيونية التي كانت تعلن عداءها العميق ضد الصهيونية. وقد نشرت دار الحكمة لأحد أعضائها (يوسف هارون زلخة) كتابا ضافيا في هذا الباب عنوانه (الصهيونية عدوة العرب واليهود). وقد التقيت في السجن بهذا المثقف اليهودي المعادي للصهيونية ولم أسمع منذ طردي من العراق أي خبر عنه، مع ما عرف عنه أو لمسته فيه من عمق وإخلاص في ما يعتقد ويقول.

كان يساعدني في عملي في دار الحكمة معظم الرفاق، حتى القادة منهم. كان الرفيق الشهيد محمد زكي بسيم يحاول أن يدربني على تنظيم أعمال الشركة وإدارة المكتب. كان لا يختلف عن المساهمة بجدية وإخلاص في كل عمل حتى الأعمال اليدوية كتنظيم الكتب والمقالات والمقاعد معا. كان في سلوكه يعلمنا بدون أوامر وبالمشاركة الفعلية. رأيته مرة يساعد خادم المكتب (عبد الزهرة) في تنظيم الكراسي وتنظيف المكتب. كان يشعر الآخرين – أيا كانوا – بأنهم أندادا محترمون، فيكتسب بذلك احترامهم وطاعتهم إذا كانوا حزبيين. وكان الرفيق الآخر حسين محمد الشبيبي لا يقل حرصا على الحضور والنشاط عنه، والمشاركة الفعالة وكأنه عنصر أساسي من عناصر المكتب. وكان يساعدني المحامي الكاظمي الشهيد محمد حسين أبو العيس، والمحامي العاني الصديق سالم عبيد النعمان وغيرهما.

كنا نؤلف عائلة واحدة يشارك الجميع فيها، كل فرد بما هو مؤهل له أو يستطيعه.

كانت القضية العربية الأهم – المثارة على نطاق العراق والأقطار العربية – وهي قضية فلسطين. وكان خطر التقسيم قد بات واضحا في عام 1946. وكان الحزب الشيوعي

العراقي بقيادة الرفيق فهد ضده، وكانت مبادئه وأحكامه قد نشرت على النطاقين العربي والعالمي. وكانت جميع المنظمات والأحزاب قد أدلت بدلوها في بحث جوانبه مؤيدة أو معارضة. وكان الاتحاد السوفياتي في أول الأمر معارضا، وكان رفض الشيوعيين له مبررا. ولكن الإتحاد السوفياتي بدل من رأيه فيه وصار يرى في التقسيم حلا وحيدا ممكنا. وتابعته الأحزاب الشيوعية في تأييده لا من الغرب فحسب بل في الوطن العربي (في مصر والقدس وبيروت والشام) – ربما متابعة منها للإتحاد السوفياتي على أساس انه قائد المعسكر الاشتراكي – والمسيرة الماركسية برمتها. أيده الجميع إلا فهد والحزب الشيوعي العراقي. وجريدة القاعدة والجرائد الأخرى التي تسير معها كالعصبة وواسط، ونشرات حزب التحرر الوطني. وظلت هذه القوى العراقية الكبرى تطالب كما كانت دائما بزوال الانتداب الإنجليزي نصير الصهيونية في فلسطين وإعطاء الشعب الفلسطيني، و80% بالمئة منه عربي، حق تقرير المصير لإقامة دولة ديمقراطية يتساوى فيها جميع السكان عربا ويهودا. أو بكلمة أوضح: إقامة دولة عربية ديمقراطية في فلسطين.

ولم يكن هذا الكلام وهماً يمكن إنكاره؛ فقد سجلت صحف الحزب هذه المبادئ علنا ولاسيما بقلم القائد فهد ولم يبدل رأيه حتى استشهاده ولو أن من خلفوه في القيادة قد خانوا نهجه واعترفوا بما رفضه. (كان الحزب يثقف ويناضل ضد تقسيم فلسطين، وعندما أيد الاتحاد السوفيتي قرار التقسيم في هيئة الأمم، استقبل الرفيق فهد ومن معه من قياديي الحزب القرار بتحفظ، وطلبوا من قيادة الحزب خارج السجن التداول مع الاحزاب الشيوعية في سوريا ولبنان وفلسطين والاردن بهذا الشأن واتخاذ موقف موحد. فصدر بيان هذه الاحزاب بتأييد قرار التقسيم، جراء تقديرها بأن تطبيق القرار يمكّن الشعب العربي الفلسطيني من حقه في إقامة دولته المستقلة على جزء من أرضه – الثقافة الجديدة). ومن يريد تحري هذا الموقف الفريد، عليه أن يعود إلى افتتاحيات الرفيق فهد في جريدة العصبة (نحن نكافح في سبيل من) والتي نشرت بعد ذلك في كتيب خاص. ففيها الجواب الصحيح على الموقف العربي الواضح للرفيق فهد، وعندك أعداد الجريدة فعد إليها. كذلك عندي العدد الثالث من مجلة واسط التي نشرت في صفحتها الـ 14 فصلا من هذه المقالات (عم نكافح) يقول في أحد مقاطعها: (على الحكومات العربية أن تعرض فورا قضية فلسطين على مجلس الأمن، وتطالب بتأليف حكومة ديمقراطية) أي عربية لأن أغلبية السكان كانت في عام 1946 من العرب، وكان اليهود فيها أقلية لا تتجاوز العشرين بالمئة.

وكنت متأثرا بهذا الرأي ومساندا له. لذلك جاء في خطابي المنشور في العدد الخامس من مجلة واسط في الصفحة الثالثة بتاريخ 20 أيار 1946، تحت عنوان (ماذا يعني الانتداب في فلسطين) الكلمات الآتية: (إن حل مشكلة فلسطين لا يكون إلا بإلغاء الانتداب، وبإعطاء شعبها حق تقرير المصير، حق تأليف حكومتهم الوطنية الديمقراطية الحرة. ولكن من حق شعبنا العربي في فلسطين، وهو يكّون الأكثرية فيها، لأن يأخذ بيده المبادرة. فتتألف – بمعونة اليهود – حكومة عربية ديمقراطية تحقق لجميع السكان على السواء العدل الاجتماعي والتقدم)، وذلك في الصفحة السادسة من العمود الأول لذلك العدد.

إن من حقنا – اليوم – وقد مضى على

استشهاد الرفيق فهد عشرات السنين، إن نبرز هذه الحقيقة لأنها الحقيقة الوحيدة التي تتفق مع العدل الإنساني ومع الشرع الدولي، وبخاصة مع الفكر الماركسي الصحيح، الذي كان يؤمن به فهد على حقيقته وبدون عقد عرقية أو دينية أو مذهبية أو غيرها. كان يؤمن بذلك كحق طبيعي ليس للعرب فحسب بل لكل الشعوب. ولأنه عربي فللشعب العربي بصورة خاصة. لا أقول أن الرفيق فهد كان قوميا عربيا بالمفهوم الخاطئ لهذا المصطلح ومعظمه مشوب بالشوفينية والعنصرية والتطرف وكراهية الغير. لم يعادِ العرب ولم يحارب نزوعهم الوحدوي، بل كَان مؤيدا لحركات التحرر العربية. لأن ذلك التأييد كان من طبيعة فكره العلمي الماركسي.. الم يخاطب البلاشفة بعد عام 1917 جميع الشعوب المجاورة بالحب والتأييد دافعين بها للتحرر؟ أكان البلاشفة في سلوكهم هذا مخطئين؟ ذلك ما فعله الرفيق فهد. لقد فهم الوضع العربي على حقيقته واكتشف أن المرحلة التي يجتازونها هي مرحلة تحرر.. ولن يكون هذا التحرر ممكنا إلا بتوحيد نضالهم.

كان من طبيعة الفكر العلمي الماركسي في الأربعينيات أن تتكتل كل القوى العربية وأن تطالب بحق تقرير مصيرها، أي حقها في الوصول إلى حكم بلادها حكما ديمقراطيا عادلا. ومن الممكن بموجب هذا المنطق العلمي أن يكون التحرر القومي الإنساني غير المعادي للشعوب رديفا طبيعيا للكفاح الأممي.. هذا ما كنت اعتقد فهد يؤمن به.

وكان – كما عرفته – ينتقد – برفق طبعا – ودون تهجم أو شتيمة.

وعندما عدت الى دمشق في عام 1946 واجتمعت بالرفيق بكداش ومجموعة من كوادر الحزب أتذكر منهم السادة نجاة قصاب حسن، إبراهيم البكري، رشاد عيسى، ورفيق آخر نسيت اسمه من آل الشلق.. في مكتب الحزب في المزرعة.. طلبوا مني الحديث عن العراق وعن الرفيق فهد.

وحين اشتدت الدعوة لتقسيم فلسطين في أواسط 1946.. وبدأ البعض يأخذون بأضاليلها، وكنا في العراق نعاديها علنا وندعو جماهير شعبنا لمناهضتها، دعانا الرفيق فهد إلى التكتل مع بقية القوى الوطنية وأن تؤلف مجموعة من المثقفين (محامين ومهندسين وأطباء ومعلمين ونقابيين) لإصدار بيان صريح ضدها، ولدعوة الشعب للتجمهر أمام بناء كلية الهندسة والمسيرة في مظاهرة شعبية سلمية تندد بهذا القرار، على أن نطبع البيان وتنشره الصحف بأسماء واضعيه الصحيحة. وصدر البيان ونشرته الصحف وحدد يوم 26 حزيران موعدا لهذا التظاهر.

وبما أن العراق كان يعيش منذ عشر سنوات – منذ انقلاب بكر صدقي – في ظل الأحكام العرفية وكان التظاهر جريمة يعاقب عليها القانون، فقد اعتبر بياننا جريمة توجب الاعتقال والمعاقبة، وقبض على جميع الموقعين إلا إياي فقد كنت في بيتنا السري الذي تجهله الحكومة، ودوهمت غرفتي في عقد النصارى فلم يعثروا علي. وقد رأى الرفيق فهد أن عدم اعتقالي وأنا أمثل الحزب تقريبا نوعا من الهرب. وأن علينا أن نواجه الحكومة ومحاكمها وأن نحول محاكماتنا إلى مظاهرات. وطلب مني الرفيق فهد أن أسلم نفسي وجمعت حاجياتي الضرورية في حقيبة يد وذهبت إلى الشرطة طائعا أسال عن سبب بحثهم عني.... فاستشاطوا غضبا وحولوا التحقيق إلى البحث: أين كنت أختفي؟ فقلت لهم: لم أغب عن غرفتي إلا مرارا للطعام وتأمين الحاجيات. سجنت مع الباقين وتمت المظاهرة والتجمعات

في مواعيدها الأمر الذي ضاعف من غيض الحكومة، فلم تقدمنا للمحاكمة وحوكمنا شكليا وصدرت براءة جماعية لنا وخرجنا على وليمة أقامها لنا رفيق، كانت نوعا من الشوربة لعدم إرهاق معدنا الخاوية. وعندما ذهبت إلى مطعم العاصمة لأتناول طعاما، جلس إلى قربي شرطي سري، وقال لي عليك أن ترافقني إلى مدير الشرطة، وأدركت أنه اعتقال آخر. وبعد أن شتمني المدير وتفرس في هويتي العراقية ضمها إلى أوراقه، وقال لقد سحبنا منك الجنسية وعليك مغادرة العراق. وسنسلمك بأنفسنا باعتبارك من مواليد إنطاكية. ولم يفد احتجاجي بأنني سوري. ونقلت إلى موقف قسم الشرطة في (العباخانة)، وهو أسوأ سجن للشرطة في بغداد، مكثت فيه خمسة عشر يوما. قدمت لي فيه فتاة طيبة اعرفها باسم (نورية) فراشا وبطانية ومخدة. ثم نقلت إلى سجن قسم الكرخ، وهو أرقى وأفضل من سابقه. وبعد خمسة عشر يوما نقلت مكبلا بالحديد إلى محطة السكك الحديدية المتجهة إلى الموصل. وهنالك – في المحطة – وعلى بعد أمتار مني شاهدت عددا من الرفاق وعلى رأسهم الرفيق الشهيد حسين محمد الشبيبي، يودعونني بابتسامة رقيقة... ونهد القطار إلى الموصل. وبعد أيام في سجنها نقلت بسيارة من سيارات الشرطة مكبلا إلى مدينة زاخو حيث مكثت في سجنها أسبوعا. كان مدير السجن إنسانا شريفا أكرمني، وجنبني بعض الأذى. وعندما نقلت إلى الحدود التركية رفض الترك قبولي فأعادوني إلى زاخو، فالموصل، ومنها إلى محطة تلكوجك السورية. وسلمت لرجال الدرك السوريين مكبلا بالحديد دون أوراق، فلما سئل العراقيون عن الجريمة قالوا لا نعرف. وحينما رويت لهم السبب قالوا هذا موقف يوجب الثناء عندنا لا العقوبة. وبعد يومين حررت من القيود ونقلت إلى حلب وأمام موظف الإدارة السياسية المثقف السيد فؤاد اسود قبل مني أن اكفل نفسي وأن أذهب إلى دمشق للحصول على أوراق شخصية ففعلت وأصبحت مواطنا أبحث عن وظيفة.

ولم تنقطع صلتي الأدبية برفاقي في بغداد. كان الرفيق الشهيد محمد زكي بسيم يراسلني سرا بإرسال صحف بغداد إلي، يشحن هوامشها بتوصياته وأخباره حتى تم اعتقالهم بخيانة احد قادة الحزب. وبناء على توصياتهم ظللت صديقا للشيوعيين السوريين.

وأنني إذ أعيد ذكرياتي عن الفترة الثرية بالنشاط والفكر وصدق العمل المطوقة بغلائل الحب والاحترام والثقة التي طوقني بها الرفيق الشهيد فهد ورفاق العراق الطيبين، لا يسعني بعد مرور نصف قرن إلا أن انحني بكل إجلال أمام هذه الذكريات الحية في النفس... وأثمن من جديد مواقفه الواعية الشجاعة ومواقف رفاقه الشهداء الأبرار.... وشكرا.

دمشق 10 /10/ 1993

* (الثقافة الجديدة)، العدد 303/ ايلول – تشرين الاول 2001، ص 59 – 73.

نصوص مترجمة

من أرشيف الكومنترن (6)
رسائل في أرشيف الحزب الشيوعي العراقي في الكومنترن *

ترجمها عن الروسية د .عبد الله حبه

رسالة أودعت في الارشيف بتاريخ 14 يناير/ كانون الثاني 1937 وهي كاملة: تبدأ من الصفحة الأولى وحتى الخامسة. انظر الصفحات الآتية: يدور الحديث عن الاخوان المجربين والذين يعوزهم التدريب فقط ونريد ارسالهم الى الوالد لتدريبهم وتثقيفهم، فنرى مساعدتنا بالتوسط لدى الوالد لقبول العدد الكافي مع ملاحظة احتياجهم الشديد الى عدد منهم كما لا يخفى عليكم.

البند 5 – أما ما يتعلق بالمجلة الشهرية التي تصدر في الشام فاني شخصياً اجمع لها الاشتراكات وأقوم بملاحظة بيعها وترويجها وبعد يومين ارسل لناصر مقدار سبعة دنانير. وارجو ان تعلم ان ما يقارب الخمسة دنانير صرفت على شؤون العائلة المهمة جداً في أوقات مختلفة.

البند 6 – اننا الآن نتدخل بصورة مباشرة في تحرير جريدتي الأهالي والحارس حسب الأفكار، ونحن نسعى لاصدار جريدة يومية اذا أمكن. ارسلت الجرائد الى العناوين التي ذكرتها ونشكرك على الكراسات والمطبوعات المرسلة الينا. ونرجو تزويدنا بكل ما يصدر منكم سواء أكانت امكانيات أدبية أو من التي ارسلت أخيراً وما يمكن نشره في الصحف الوطنية عندنا.

ارجو تزويدي بعنوان الرابطة لنكتب فيها. وسنعمل كل ما في وسعنا لمساعدة المجلة الشهرية من أدبيات وغيرها.

البند 7 – نرتأي تبديل عناوينكم قدر الامكان، تجنباً من مراقبة البريد التي نخشى حدوثها وان تستعملوا لغة تجارية في مراسلاتكم المقبلة، مهما أمكن، ونحن بدورنا سنخاطبكم بها من الرسالة القادمة.

سنجهزكم بعنوان جديد لارسال الادبيات غير العلنية. عليه نرجو ان لا ترسلوا أي شيء مسبقاً الى غير العنوان الذي نرسله لكم. كما نرجو ان تجهزونا بأقرب فرصة ممكنة بقرارات المؤتمرين العربي والعالمي، لاننا في أشد الحاجة اليها، لنسترشد بها في عملنا، وان تجهزونا على الأخص بما يتعلق بالبلاد المستعمرة.

التوقيع اخوك سوسو

ظرف داخلي يرجى تسليمه الى الأخ يوسف

ملاحظة: صدر العفو الخاص عن البقية من اخوننا المسجونين ممن لم تنته محكومياتهم بعد:

بداية الرسالة 3 /12 /36

وصلني كتابك المؤرخ في 24 /11 /36 وقد

سرنا اهتمامكم الشديد بقضيتنا.
البند 1 – لقد سمينا اخانا المعروف لديكم بـ"جاسم الصغير" مرة اخرى في المسؤوليات المهمة وخصوصاً ما يتعلق بكم، لتلابسه الشديد مع أحد رجال الحكومة ملابسة قوية جداً نخشى نتائجها. لذلك نرجو ان لا ترسل أي شيء مطلقاً بعنوان كامل في باب الشيخ والى عبد القادر اسماعيل.
اننا نرى ان نعلمكم ان عبد القادر اسماعيل ليس له شأن في ناحية من نواحي العائلة (الحزب)، ولا يزيد عن كونه أحد الاشخاص التقدميين في هذا البلد.
البند 2 – اتصلت عن طريق أحد الاخوان بـ "جاسم الكبير" وكنت قد كتبت لكم سابقاً عن حالته النفسية التي اجبرتنا على اعطائه فرصة كافية للراحة والاطمئنان.
البند 3 – نرجو اعلامنا عن مهمة الأخ الذي تريدون ارساله الينا وان تخبروه بأن لا يفاتح أحداً مهما كان في موضوع قدومه إلا بعد ان يقابلني في كلية الحقوق باسم يوسف متي. ونرجو ان تزودوه بورقة صغيرة لكي نثق به ونطمئن اليه.
البند 4 – انتبهنا الى الاغلاط التي وجهتم نظرنا اليها، ونحن مع شكرنا الشديد لكم، نود أن تعرفوا بأن الاستماع الى ارشاداتكم وتوجيهاتكم هو من جملة واجبنا.
اننا في الوقت الحاضر نشعر أكثر من أي وقت آخر بالعوز الى كادر مدرب، ليقوم ببناء كيان العائلة الداخلي، ولايجاد الاجهزة الطبقية اللازمة لها، كالنقابات وغيرها، ونشر نفوذها في كل الأوساط.

زهير نعيم درس في الاتحاد السوفيتي
عاد الى العراق في اكتوبر 1936

عاصم فليح (الاسم السري سايموف أو صائموف)

من تقريره: صدر قرار بارسال 5 أشخاص سنوياً للدراسة في الاتحاد السوفيتي، التقى فرج الله الحلو في سورية.
سيرة فهد بقلم زهير نعيم
اعيد تنظيم الحزب في عام 1940 بقيادة فهد (فريدريك) الذي درس في الاتحاد السوفيتي. سكرتير الحزب في فترة 1938 – 1939 وما بعدها. وضمت اللجنة المركزية: عبد الله مسعود، سعيد خليل، جورج (مسؤول النقابات)، وديع مروكي، وزهير نعيم.
رسالة 29 /11/ 36
عزيزي تحياتي وأشواقي
استلمت رسالتك الاخيرة فسررت بها جداً، لما جاء فيها من ثمين النصائح التي انتظرها دوماً منك. واني لاشكرك على ما تبديه نحونا من اخلاص في ابداء الاراء واسداء النصائح الاخوية. كما ان الملاحظات التي قدمتها كان لها في نفوسنا أكبر الوقع. اننا لم نهمل الحقائق التي تقدمتم بها لكن الظاهر ان قد وقع خطأ في التعبير في الالفاظ فقط، انتبهنا اليه الآن وشكرناكم. قد لا نعود ونُخطئ، لكننا نود ان نشرح لكم الظروف التي اجبرتنا على عدم ذكر الاستعمار البريطاني. نحن لا نشكو في ان الاستعمار البريطاني غير راض بل ويقاوم هذه الوزارة القائمة، لأنها تشكلت على الرغم منه وبغير مشورته، والظروف الدقيقة التي وقع بها الانقلاب ارعبت الاستعمار الانكليزي وجعلته أمام الأمر الواقع، كان يجب مراعاتها لئلا نحرم حتى مما توصل اليه الانقلاب وما يؤمل أن يكون بعده. لأنه على ما نعرفه لا يتأخر وله في العراق قوة عسكرية كبيرة وفي فلسطين وفي مصر، ان ينتفض ويرجع الرجعية بأشد ارهاب من قبل. ولو ان ذكرنا ذلك بقصد لكان لعملنا ردة فعل كبيرة على

ما نعتقد، ولكان العمل ذاته انحرافا يساريا في مثل هذه الظروف الدقيقة. اننا لم نعمل إلا ما من شأنه رفع الحماس وتأكيد اندحار رجال الماضي فقط. اما المرحلة الانتقالية التي نريدها فهي المرحلة التي تنتهي بنا الى التحرير الوطني لاستمرار الثورة الوطنية عن طريق تنظيم المجتمع العراقي. والتنظيم ستقوم به البرجوازية الصغيرة والوطنيون الاخرون غير الرجعيين من اعداء الاستعمار. وسنكون نحن ضمن هؤلاء المنظمين أيضاً. وهكذا نحن الآن.

تشكلت جمعية الاصلاح الشعبي وارسلنا لكم الصحف التي نشرت مبادئها، ولم تذكروا لنا شيئاً عنها، مع ان القائد الحقيقي الذي يسير هذه الجمعية بطريقة مباشرة أو غيره سنكونَ نحن.

بل وسيكون في طليعة المنظمين في بعض انحاء العراق (نحن) لعدم وجود آخرين... ألا ترون في مثل هذه الأوضاع المتلابسة وجوب الدقة في العمل وعدم استفزاز البرجوازية التي تخشى سماع (اسمنا) وعدم استفزاز الاستعمار والرجعيين الذين يحوكون معاً الآن المؤامرة لقلب الوضع وارجاعه الى أفظع مما كان؟ ان الرجعية وبعض البرجوازية الساخطة يتبعها جمهور لا يستهان بقوته، لم تزل جد قوية وأقوى قوة هنا، بل وأقوى منظمة بفعل ارتباط مصالحها. فهل ترون في الصالح أن نعطي هذه القوة سلاحاً بيدها تحاربنا به جنباً الى جنب مع الاستعمار؟ أما ان نطلع على الناس باسم العائلة رأساً؛ ففي ذلك ما فيه من الخطورة في الوقت الحاضر، وفي ذلك خرق كبير للتعهدات التي أخذناها على عاتقنا في عدم التطرف الذي يستفز الاستعمار، ويقلب الوضع تجاه المنظمات التقدمية التي تأخذ طريقها الآن نحو تنظيم هذه التعهدات التي فيها الشيء الكثير من الحكمة النافعة لنا، نسبة للتساهلات الكبيرة والتعهدات الاخرى التي يقومون بها الآن تجاهنا. ولا تنسوا الآن بأن الجهاز الحكومي لم يزل ذلك الجهاز، وان رجال الارادة في الخارج والداخل هم انفسهم اولئك الذين تعلموا كيف ولمَ يحاربون. ان الظهور بمظهر الوطني الصادق أمام الجماهير هو الحل الوحيد الذي لا يضع أمامنا عراقيل كبيرة. نعم، نحتاج لان نخاطب الجماهير رأساً في مثل هذه الظروف، ومخاطبتها لا تكون باللون (المطلوب باسم العائلة).

ان هذا لا يعني أبداً اهمال واجباتنا العائلية. بل على العكس تماماً نحن نرى ان في ذلك الحل الوحيد الذي يمكننا به التوسع العائلي، الذي يجب ان يحتفظ بشكله السري بصورة اسرع وأنظم... نحن نعلم حق العلم ان محاربة الرجعية والاقطاعية واجب جبار، وان هذا الواجب لا يمكن ان يقوم به على الوجه الاكمل وبطريق يؤدي الى نتائج مثمرة عندنا نحن، لان المصالح بين البرجوازية والاقطاعية آخذ شكلها المركب المتداخل هنا أكثر من أي محل آخر على ما نعتقد. فالبرجوازية الزراعية التي هي جزء لا يتجزأ منها بالمصالح عن الاقطاعيين، تتفق بحكم مما لها مع الاقطاعية. وأكثر البرجوازية الصغيرة في المدن والقرى ذات علاقة كبيرة كذلك بهما، وفصل هذه العلاقات لا يتم بالسرعة المقصودة، نرجو ان تتبينوا ذلك كله، وننتظر منكم الاراء السديدة حول ذلك.

أما المجلة الشهرية فلا اهتمام بها كبير. وقد ارسلنا نطلب أكثر من 150 نسخة للصرف هنا. وان امكن فليكن أكثر من 200. وسنفتح لها مكتباً خاصاً هنا. نرجو ان تصلنا المطبوعات القديمة والجديدة بالسرعة الممكنة لنستفيد منها في هذه الفرصة الثمينة. وبعد سيتركز عملنا على تنظيم الطبقة العاملة وتوحيد صفوفها ليتسنى لها قيادة الجماهير في

المستقبل. أما الظهور على الجماهير الشعبية باسم العائلة ومحاربة الاستعمار (بذكر اسمه في ما ينشر) فسيكون قريباً بعد تهيؤ الفرص المناسبة.

على ان ذلك لا يعني اننا لا نذكرها في داخل الامكانيات العلنية، ولعلكم رأيتم ذلك مما وصلكم من الجرائد والنشرات العلنية.

تحياتي

الصغير سوسو

* * * *

رسالة 3 /12/ 36

عزيزي

وصلني كتابك المؤرخ 24 / 11 /36 وقد سرّنا اهتمامكم الشديد بقضيتنا وقد حصل عندنا هذا الاسبوع بعض الامور التي نرى من واجبنا ان نعلمكم بها، لتقولوا فيها رأيكم ولتكونوا على علم من اعمالنا.

1 – لقد نحيّنا اخانا المعروف لديكم بـ"جاسم الصغير" مرة اخرى من المسؤوليات المهمة وخصوصاً في ما يتعلق بكم، لتلابسه الشديد مع أحد رجال الحكومة ملابسة قوية جداً نخشى نتائجها. لذلك نرجو ان لا ترسلوا أي شيء مطلقاً بعنوان كامل في باب الشيخ والى عبد القادر اسماعيل وقد انذرنا اخانا الصغير، ونبهنا الى واجبه، ولا يعني هذا تخليه عن واجبه التنويري في حال من الأحوال. كما اننا نرى ان نعلمكم ان عبد القادر اسماعيل ليس له شأن في أي ناحية من نواحي العائلة، ولا يزيد عن كونه احد الاشخاص التقدميين في هذا البلد.

2 – اتصلت عن طريق احد الاخوان بـ"جاسم الكبير" وقد كتبت لكم سابقاً عن حالته النفسية التي اجبرتنا على اعطائه فرصة كافية للراحة والاطمئنان، وقد أكد استعداده لابداء الارشاد والاضطلاع ببعض المسؤوليات لزوال اسباب اضطرابه النفسي نوعا ما.

3 – نرجو اعلامنا عن مهمة الاخ الذي تريدون ارساله الينا، وان تخبروه بأن لا يفاتح احداً مهما كان في موضوع قدومه إلا بعد ان يقابلني في كلية الحقوق باسم يوسف متي، نرجو ان تزودوه بورقة صغيرة لكي نثق به ونطمئن اليه.

4 – انتبهنا الى الاغلاط التي وجهتم نظرنا الينا ونحن مع شكرنا الشديد لكم نود ان تعرفوا بأن الاستماع الى ارشاداتكم وتوجيهاتكم هو من جملة واجبنا الذي نتحمل مسؤولياته الكثيرة. ونرجو ان تنبهونا دائماً الى جميع ما قد يحصل من اخطاء وترشدونا الى العمل الذي نقوم به وخاصة في ظروف امكانياتنا الحاضرة. واننا في الوقت الحاضر نشعر أكثر من أي وقت آخر بالعوز الى كادر مدرب لنقوم ببناء كيان العائلة الداخلي، ولايجاد الاجهزة الطبقية اللازمة لها كالنقابات وغيرها ونشر نفوذها في كل الاوساط التي نتمكن من توجيهها وقيادتها في الثورة الديمقراطية.. ولدينا بعض الاخوان المجربين والذين يعوزهم التدريب فقط ونريد ارسالهم الى الوالد لتدريبهم وتثقيفهم. ونرجو مساعدتنا بالتوسط لدى الوالد لقبول العدد الكافي مع ملاحظة احتياجنا الشديد الى عدد منهم كما لا يخفى عليكم.

5 – اما ما يتعلق بالمجلة الشهرية التي تصدر في الشام فأنا شخصياً اجمع لها الاشتراكات واقوم بملاحظة بيعها وترويجها وبعد يومين ارسل لنا مقدار سبعة دنانير، وارجو ان تعلم ان ما يقارب الخمسة دنانير صرفت على شؤون العائلة المهمة جدا في أوقات مختلفة. ومع هذا ما زلت اسعى لترويج المجلة جهد الامكان. وشكو قلة العدد المرسل الينا، فلم يصلنا لحد الآن العدد الذي نوهت به في رسالتك الاخيرة.

6 – اننا الآن نتداخل بصورة مباشرة في

تحرير جريدتي الاهالي والحارس حسب الامكان، ونحن نسعى لاصدار جريدة يومية اذا أمكن.

ارسلت الجرائد الى العناوين التي ذكرتها، ونشكرك جداً على الكراسات والمطبوعات المرسلة الينا، ونرجو تزويدنا بكل ما يصدر منكم سواء كانت امكانيات علنية أدبية أو من التي ارسلت أخيراً وما يمكن نشره في الصحف العلنية عندنا.

ارجو تزويدي بعنوان الرابطة، لنكتب فيها، وسنعمل كل ما في وسعنا لمساعدة المجلة الشهرية من أدبيات وغيرها.

7 – نرتأي تبديل عناوينكم على قدر الامكان، تجنباً من مراقبة البريد التي نخشى حدوثها وان تستعملوا لغة تجارية في مراسلاتكم المقبلة، مهما امكن، ونحن بدورنا سنخاطبكم بها من الرسالة القادمة.

سنجهزكم بعنوان جديد لارسال الادبيات غير العلنية. عليه نرجو ان لا ترسلوا أي شيء مطلقاً الى غير العنوان الذي سنرسله لكم. كما نرجو ان تجهزونا بأقرب فرصة ممكنة بـ(مقررات المؤتمرين العربي والعالمي)، لاننا في أشد الحاجة اليها، لنسترشد فيها بعملنا، وان تجهزونا على الاخص بما يتعلق بالبلاد المستعمرة.

هذا ونرجو أن تزودونا بارشادكم الاخوي دائماً، ونطالب بان يكون الجواب بعنواني الذي تعرفونه.

اخوكم سوسو

ظرف داخلي يرجى تسليمه الى يوسف

ملاحظة: لقد صدر العفو الخاص عن البقية من اخواننا المسجونين، ممن لم تنته مدة محكومياتهم بعد، وهم مستعدون للقيام بواجباتهم الثورية المحتمة تجاه العائلة.

* * * *

• عاد فهد من الاتحاد السوفيتي عبر فرنسا، وحاول وصول العراق عن طريق اليونان. وصل العراق في عام 1938 صيفاً عن طريق البصرة.

• قام في زمن حكومة رشيد عالي الكيلاني بقيادة العمل التنظيمي السري بصفته قائد الحزب. وجد مصاعب معيشية وساعده رفاقه العاملون.

• سيرة زهير نعيم (قاسم حسن)، واسمه الآخر ناظم تيميني، قاد حركة الفلاحين في الفلوجة ثم هرب الى ايران. أراد البقاء في الاتحاد السوفيتي كلاجئ والعمل كمترجم. حكم عليه بالسجن المؤبد في العراق.

• سيرة عبد الله مسعود – 28 – 29 عاماً من مواليد البصرة . درس في الكلية، انضم الى الحزب 1938 – 1939.

• وديع مروكي – عامل – عضو قديم في الحزب يعمل في القسم العمالي. له ورشة تصليح سيارات في بغداد.

• سعيد خليل – عضو قديم في الحزب. يتولى العمل مع عمال السكك الحديدية بتشغيلهم. يعمل موظفاً في دائرة السكك في بغداد.

• أديب جورج ـ فيلسوف، كاتب ومثقف. يكتب في الصحافة العراقية حول قضايا التاريخ والأدب وطالع الكثير من الاعمال الماركسية.

• القضايا التنظيمية: اللجنة المركزية مؤلفة من 6 أعضاء في بغداد، والمنظمات الحزبية تعمل في بغداد والبصرة والناصرية.

(سجل التقرير كوزولوف من أقوال زهير في 28 ديسمبر 1941)

---

* من وثائق الكومنترن

حـــــــــــوارات

حوار مع الفيلسوف والمفكر الالماني
توماس متشر *

الدكتور توماس متشر من مواليد 30 تموز 1934 في برلين، وهو مختص في علوم الادب وفيلسوف. درس اداب اللغة الإنكليزية، والألمانية وعلم الإجتماع في جامعات برلين، برستول، ميونخ، وهايدلبيرغ. وحصل في عام 1967 على الدكتوراه من جامعة هايدلبيرغ عن أطروحته حول الكاتب المسرحي الايرلندي Sean O'Casey. ودرس متشر في سنوات 1961 - 1971 الأدب الألماني في الجامعة الملكية في بلفاست. ومن من عام 1971 حتى تقاعده في عام 1998 كان استاذا لعلوم الأدب وعلم الجمال في جامعة بريمن الالمانية. وهو احد اعضاء الفريق الذي يصدر مجلة "مساهمات في الأدب وتاريخ الفكر" الصادرة في ولاية بريمن الالمانية. وتلقى متشر العديد من الدعوات للعمل او القاء المحاضرات في مختلف الجامعات في العالم. وله العديد من المؤلفات النظرية في الماركسية وفي علوم الادب، وفي العلاقة بين الأخيرة والماركسية.

- كيف وجدت طريقك الى الماركسية؟ ماذا تعني الماركسية اليوم بالنسبة لك، بعد هذا المسار المهني الطويل؟

• انها حكاية طويلة. لقد اتيت الى الماركسية بطريق مختلف عن ذاك الذي سلكه الكثيرون من ابناء جيلي ووسطي الإجتماعي. لقد كنت محظوظا بأب برجوازي معاد للفاشية. عاش ابي، على عكس ما هو معتاد في الأوساط البرجوازية والبرجوازية الصغيرة الالمانية، نهاية الحرب بوعي معاد لهتلر. ورحب بفخر بالجيش الأحمر كمحرر. كان يكره هتلر والفاشية، وكان يمقت أي شكل من أشكال النزعة العسكرية. وبهذا المعنى تربيت. وعلمني ان معاداة السامية ذنب عظيم لالمانيا والتاريخ الالماني. لقد كان يساريا، ولكن يساري برجوازي وليس اشتراكيا.

كان يهتدي بمجموعة من انسانيي الأدب والمسرح العالميين في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ومن المعاصرين Leonhard Frank (ناقد اجتماعي الماني ورجل سلام توفى عام 1961 – المترجم)، الذي درسته بشغف كبير،

وهاينرش وتوماس مان وكذلك بيرتولد بريشت (من مشاهير الكتاب الالمان المعادين للفاشية – المترجم). وبذلك كانت نقطة انطلاقي جيدة، وبعيدة عن الروح القومية. وعلى هذا الاساس عشت تطورا تدريجيا. واثرت فيّ على المدى الطويل اقامتي لبضع سنوات بعد الحرب في منطقة الاحتلال السوفيتي، والتي شكلت، في ما بعد، المانيا الديمقراطية. واحتفظ بذكرى طيبة لهذه السنوات. في المدرسة كنت اشعر وكأني بين اهلي، ونشرت اول قصيدة معادية للحرب، وانا ابن الرابعة عشرة، وحصلت على جائزة في درس اللغة الروسية، وفزت ببطولة السباحة في المسابقات المدرسية. وعندما اتممت الرابعة عشرة من عمري انتقلنا بسبب العمل، وليس لاسباب سياسية للعيش في برلين الغربية. وتعاطف ابي حتى وفاته مع مواقف فالتر اولبرشت (زعيم المانيا الديمقراطية الأسبق – المترجم) في السياسة الالمانية. وبشأن تطور المانيا الغربية وسياسة مستشارها كونارد اديناور اكتشف استمرارية للسياسة في المانيا القديمة، القائمة على تحالف رأس المال والسياسة. واحس ان هذا الإحتضان لا يزال خصبا، وعندما نلتفت اليوم الى الخلف، نجد انه كان محقا.

التطور الآخر في توجهاتي السياسية، حدث اثناء سنوات الدراسة الجامعية في برلين الغربية. وهناك كان انضمامي الى مقاومة اعادة التسلح وسباق التسلح النووي. والحدث الأبرز كان المشاركة في مؤتمر مناهضة الحرب النووية في عام 1958، الذي التقيت خلاله بالفيلسوف غونتر اندرس، وتعرفت على الفيلسوف فولف هاوغ. وكنت من مؤسسي المجلة النظرية Argument (الحجة). وفي نفس الفترة بدأت نشر اول مؤلفاتي النظرية؛ ومنها "ملاحظات حول انطلوجيا الوضع النووي".

قراءتي لماركس ولوكاش وبريشت اعطتني اساسا ايضا لدراستي علوم الآداب، لكون المناهج الرسمية كانت تخلو من مؤلفات هؤلاء الأعلام. وقادني طريق مستقيم الى الماركسية، وفي النهاية على صعيد التنظيم السياسي ايضا، وفي تلك السنوات كنت ناقدا وليس معاديا لتجربة ما سمي بـ"الإشتراكية الواقعية". واعتبرت المانيا الديمقراطية المانيا الافضل من حيث امكانية وجود ارضية لديمقراطية حقيقية، وكذلك التطور المضاد للعسكرة. والشيء المقرر بالنسبة لي كانت معرفة الترابط العضوي بين الفاشية والرأسمالية، والتي فتحت لي تدريجيا ابواب معرفة، ان الفاشية هي شكل للسلطة البرجوازية، وان اشكال السلطة الفاشية ضرورية لأسباب تتعلق بتطورات محددة للرأسمالية الحالية، اي الإمبريالية. وهذا الوضع كان قائما في اوربا العشرينيات والثلاثينيات، وايضا في الوضع الراهن. والفاشية تعني السلطة الدكتاتورية للفصائل الأكثر رجعية وعدوانية في الرأسمال الإمبريالي. ان الفاشية وعبر لحظة معاداة العقلانية، ابعد من معاداة التنوير والإشتراكية، ولا ترتبط باي محتوى ايديولوجي محدد. وهي تملك طابعا وظائفيا ايديولوجيا. وهذا اقوله بوضوح لان هذه القضية شديدة الآنية اليوم في اوربا.

ومنذ اللحظة التي اكتشفت فيها الماركسية، كإجابة على الكثير من

أسئلة تواجهني بعمق، سياسيا ونظريا، انشغلت بهذه التساؤلات النقدية. انا لم اردد فقط، وانما انتجت ايضا، كتبت، وفكرت، واتخذت مواقف، في مجلة Argument وغيرها، وفي نهاية المطاف في اطار الحزب الشيوعي الألماني الذي ارتبط به منذ سنوات طويلة. وهذه الماركسية تعود للثمرة المركزية لعقود طويلة من المساعي والعمل بها ومعها، وهي بالنسبة لي ليست نظرية مغلقة ولا تستطيع، وسوف لن تكون كذلك، وعندما تصبح هكذا، تتخلى عن نفسها.

- ماذا تمثل برأيك عموما الماركسية؟

• الماركسية كمصطلح، ومن خلال تجاربي المتنوعة، له فهم ضيق من ناحية، وآخر اكثر اتساعا من فهم الكثيرين الذين استخدموه، من ناحية اخرى. اذا ما نظرنا الى الحالة التاريخية عالميا، انطلاقا من المسار التاريخي للتجربة الإشتراكية، والآمال الإشتراكية، فسوف لن نستطيع انكار كوننا الآن في نقطة منخفضة. وفي حالة كهذه يبدو ان هناك اغراء لتحويل الماركسية الى فكرة الخلاص المسيحي، والشيوعية الى فرضية تكفي قفزة ايمانية واحدة للفوز بها. ان الماركسية تتحول هنا عمليا الى دين. وهكذا افكار نجدها عند الكتّاب الذين لديهم صدى واسع في الإعلام؛ فبعضهم يتحدث عن "مسيحية بدون مسيح" ويعنون بذلك الماركسية. هؤلاء الكتاب بالنسبة لي كمن يغني في الظلام ليشد من عزيمته. ففي اوقات الهزيمة هناك حاجة للشجاعة، وبالتأكيد هناك حاجة للأمل لمواجهة اليأس. ولكن هناك ايضا الشجاعة الخاطئة والأمل الحزين. وبرأيي يؤدي هذا بالماركسية الى طريق مسدود، والى هزيمة لا رجعة فيها، لأنه يلبسها قشرة الدين، وحتى يحولها الى دين علماني. وتكون الماركسية مستقبلية، عندما تضع جانبا اي شكل ديني. وما هو اساسي بالنسبة لها، على وجه التحديد، هو الفصل بين العلم والإيمان. والماركسية ليست الخلاص المسيحي ايا كان شكله. وهي علم، وعلم نقدي، يتعامل بروح نقدية في مواجهة اية ايديولوجية. وبلا عنصر النقد تتحول الى ايديولوجية.

ان جزء الماركسية الأساسي هو الديالكتيك كمذهب. ان كل شكل متحقق من أشكال الحياة، يعد جزءا متحركا من عملية وبالتالي فهو متغير، وان عملية المعرفة نفسها هي سيرورة لا نهائية. وبالتالي فأن علم الماركسية نسبي، لا نهائي (غير قابل للاغلاق)، محدود، في اطر موضعه في المعرفة الإنسانية. واود صياغة مفهومي للماركسية، باعتبارها رؤية فكرية سياسية للعالم تتجسد فيها مسلمة وحدة النظرية والتطبيق، وحدة الحركة السياسية والرؤية الواضحة للعالم. هدفها بالمعنى الوارد في الموضوعة الحادية عشرة من موضوعات فيورباخ تفسير العالم وتغييره.

وكرؤية فكرية واضحة للعالم تقوم الماركسية على ثلاث ركائز: العلم، الفلسفة، والفن، وهذه القراءة تعد مقترحا موسعا في مقابل القراءة المعتادة وحتى التقليدية للماركسية. وعادة ما ينظر الى العلم والفلسفة في ذات السياق، واقترح فصل منهجي قاطع. ان الأساس العلمي للماركسية يتشكل من الاقتصاد والسياسة والتاريخ والقانون والعلوم الاجتماعية، وبمعنى أوسع كذلك، علم الفنون والعلوم

الطبيعة – حيث تتفاوت حصة كل منها ارتباطا بالموضوع قيد البحث.
نتحدث عن الأسس الفلسفية للماركسية، فالى جانب المادية القديمة (ديموقريطس، أبيقور، لوكريتيوس)، علينا ان نذكر قبل كل شيء الفلسفة الهيغلية، ومعها تقاليد التفكير الديالكتيكي. وبمعنى اوسع كذلك تيارات الفلسفة الإسمية، والتجربية، والطبيعية (كما هي ممثلة في المذهب الفلسفي لـ"فرنسيس بيكون").
الركيزة الثالثة، التي تأسست عليها الماركسية في شكلها المتطور، هو الفن، وخاصة الأدب، ولكن أيضا غيره من الفنون. وهو الاضافة المهمة، التي اقترحها للماركسية كمفهوم فكري. وللتركيز والقاء الضوء على ما اعنيه يمكن الإشارة الى الأسماء التالية: بيرتولد بريشت، بابلو نيرودا، مايكل شخلوف، آنا زيغرز، Sean O'Casey، Lewis Grassic Gibbon، Hugh MacDiarmid، David Craig، ناظم حكمت، جانيس ريتسوس، فيلي زيته، ديمتري شوستكوفيج ، هانس ايزلر، وهذه نخبة نموذجية مختارة تمثل هذا الحقل، المسمى بالمصطلح الجاف "الماركسية في الفن". وهذا النموذج يشتمل على قسم مهم من الفن المعاصر، أكثر بكثير من الفن في البلدان الاشتراكية السابقة، ناهيك عن الفن داخل المنظمات السياسية الماركسية. الفن الماركسي بهذا المعنى، هو الفن القائم على الرؤية الفكرية والسياسية الماركسية. ويمتلك تشكيلة مدهشة ومتنوعة تمثل بعدا متميزا في عالم الفن المعاصر. وعند الحديث عن ثراء وامكانيات الماركسية، لا ينبغي الحديث عن العلم والفلسفة فقط، بل يكون الحديث ايضا عن الفنون.
ومن المسلم به ان العلم يحتل المركز من الماركسية كرؤية فكرية، قسمها الجوهري بلغة انجلس الإشتراكية العلمية. وهي ليست ايديولوجية، لانها لا تدعي المعرفة المطلقة (ان المعيار المفترض للايديولوجيات انها تدعي تمثيل الحقيقة المطلقة)، بل هي سلة من المعارف العلمية، التي تعي امكانيات وحدود هذه المعارف، وتعكس هذا الوعي في مفهوم النقد: نقد الاقتصاد السياسي، نقد الإيديولوجية والوعي الاجتماعي، نقد الأخلاق، نقد الثقافة والفنون.. الخ. ان المعرفة الإيجابية في جميع هذه الحقول هو ما نكسبه من النقد. وهذا يعني: ان الماركسية كنظرية علمية هي سلة معارف مستلمة، تتطلب الفحص المستمر، ومراجعة الأخطاء، والتطوير الدائم في ضوء التجارب والأفكار الجديدة. ولا ينبغي الخلط بين ما تقدم والنسبية، وكذلك ليس له علاقة اطلاقا بالتحريفية. نجد في الماركسية جوهر نظرية معرفة اجتازت الإختبار النقدي. ومهمة هذه المعرفة ولأي اسباب كانت هو نقد ما يطلق عليه المرء بحق "التحريفية"، التي عادة ما تنطلق من دوافع انتهازية، واذا تطلب الأمر مكافحتها تنظيميا. ويشمل الجوهر الأساسي لهذه المعرفة، على سبيل المثال، نتائج نقد ماركس للاقتصاد السياسي، واستنتاجاته النظرية الإيديولوجية، والإدراك ان كل التاريخ السابق، منذ نهاية المجتمع البدائي، هو تاريخ المجتمعات الطبقية، والمعرفة الأساسية (مع جميع الإختلافات الداخلية) التي طورت من قبل لينين وروزا لوكسمبورغ بشأن نظرية الإمبريالية، والمعارف الأساسية في مجال الثقافة، وعلم الجمال والفنون، وأكثر من ذلك بكثير. ولكن

حتى في هذه الحقول هناك جديد تاريخي يجب معالجته نظريا، لكي يؤدي ذلك الى تغييرات وتوسع في النظرية.

لقد قلت ان الديالكتيك هو الجزء الأساس في نظرية ماركس، والديالكتيك كمنهج يلزمنا ويمكننا من الكشف عن الواقع المتغير في لحظة تغيره، كذلك التقاط المعرفة بشأن هذه التغيرات. ان قوة الديالكتيك قادرة على النجاح في دمج الزيادة الهائلة في المعارف الإنسانية المتحققة في عصرنا مع سلة الفكر الماركسي. وللوصول الى ماركسية مفهومة صغتُ مفهوم الماركسية التكاملية، التكاملية مرتبطة بالقدرة على دمج المعرفة العلمية الثقافية في نظام الفكر الماركسي الواضح. ان هكذا ماركسية مفهومة تحوي امكانيات مستقبلية تجعلها تتقدم على كل الرؤى العلمية المنافسة للعالم. ان نظرية اليوتيبيا تعد مثالا على تصحيح مشروع وضروري (اي ليس تحريفيا) للنظرية التقليدية. ان الموقف النقدي لماركس وإنجلز لليوتوبيا (في حالة الاشتراكية الطوباوية) معروف. لقد كان تطوير الاشتراكية من يوتوبيا الى علم في الوضع التاريخي الذي عاشه ماركس وإنجلس، خطوة ضرورية. ونجد انفسنا اليوم في وضع تاريخي آخر، يتميز بتهديد عالمي. يتطلب تفكير يوتيبي (طوباوي)، لكسب آفاق تعامل ذي اهداف محددة. مقترحي هو استعادة اليوتيبيا في الماركسية، ليس بالضد من توجهها العلمي، بل لغرض تحقيق تنوع فيها: اليوتوبيا كفكر الممكن تاريخيا، ولنتخذ قرارا بشأن ما هو ممكن تاريخيا، فان الامر يقع في اطار معرفة علمية ممكنة. لقد بين ذلك جان زيغلر بشكل مقنع في كتبه المهمة ـ حل مشكلة الجوع في العالم. ان الماركسية في مضمونها الأمثل هي نظرية تحرر. فالماركسية ومعها ماركس مهتمان بقلب جميع العلاقات "التي يكون فيها الإنسان كائنا وضيعا، مهجورا، ومزدرى" – لتحرير الناس في جميع انحاء العالم. هناك نقص لا بد من ذكره، وهو افتقاد بلورة اخلاق سياسية. لقد خطط لوكاش (جورج لوكاش "1885 – 1971" فيلسوف وكاتب وناقد ووزير مجري، ماركسي، ولد في بودابست عاصمة المجر – المحرر)، وتتويجا لأعماله الكبيرة، الكتابة في سن متقدم عن الأخلاق، لكنه لم يتمكن في النهاية من فعل ذلك. مع ان الأخلاق مركزية بالنسبة للماركسية، كما هي اليوتيبيا، التي تقف الى جانبها، بالمعنى الذي اشرنا اليه. انها تعطي العلاقات السائدة افقا معياريا. وبالترابط مع اليوتيبيا تشير الى عالم ممكن نريده. انه عالم كما كتب بريشت في احدى قصائده "يكون فيه الإنسان عونا للانسان". في عالم كهذا تسود روح الصداقة والتضامن. بالمفهوم التاريخي يمكن مد خط موصل الى وصية المحبة المسيحية العامة، الى فكرة الكرامة التي لا غنى عنها بالنسبة للانسان – كما هو الحال بالنسبة لقوة جسده المادية. لقد اعطى شكسبير في احد مشاهد الملك لير، صياغة تعود الى تأسيس اخلاق ماركسية – ربما اكتب مرة شيئا بهذا الخصوص. في هذا الموضع تصبح صلة الماركسية مع تقاليد الفن الانسانية ملموسة، ليس اخيرا مع فكرة السلام ايضا – عالم محرر من الخوف والفاقة. ولا يمكن انكار الصلة الوثيقة للماركسية بالتنوير، ادراك ان الماركسية نزعة انسانية، ان تدمير هذا الجوهر فيها، يدمر جذورها.

- ما هو تأثير اقامتك في بلفاست على صورة العالم بالنسبة لك، وعلى طبيعة رؤيتك للعالم وتفسيره؟

• لقد عشت عشر سنوات في عاصمة ايرلندا الشمالية، بلفاست، كمحاضر ولاحقا كأستاذ للادب الألماني في قسم اللغة الألمانية في جامعتها. خلال هذه الفترة كان لي اهتمام مكثف بالتاريخ الأيرلندي، والحركة العمالية الآيرلندية. وكتبت اطروحتي عن الكاتب المسرحي الكبيرSean O'Casey. كان لذلك تأثير كبير عليّ. لقد وجدت هنا، على الأقل، مدخلا سياسيا جديدا للماركسية. ايرلندا المستعمرة الأولى لانكلترا، كذلك المستعمرة الأولى التي تبدأ النضال ضد الإضطهاد الإستعماري، لقد اصبحت بالنسبة لي رمز التحرر المعادي للاستعمار. هكذا اصبحت ايرلندا وطني الثاني، لدرجة أنني كدت ان ابقى هناك. وتعرفت هناك على ايرلندية اصبحت زوجتي لاحقا. وجدير بالذكر ان زوجتي حصلت على الدكتوراه من جامعة بريمن الألمانية كان موضوعها الجمهورية والإشتراكية في ايرلندا، حركة التاريخ بين التنويري وولف تونه والماركسي جيمس كونلي.

- ما هي العلاقة، التي تراها، بين الماركسية والإسلام؟

• بدءا هناك فرق بين الماركسية والدين. الإسلام ايديولوجية (عقيدة) دينية، والماركسية رؤية فكرية دنيوية للعالم تقوم على العلم والفلسفة والفن. وعلى اساس وجهة النظر الماركسية التقليدية لا يمكن تجاوز هذا الفرق، فالماركسية علمية لا دينية، وعلاقتها قائمة على التضاد – على الأكثر في اطار الترتيبات التكتيكية. ارى ان هذا الإستنتاج خاطئ نظريا وكارثة سياسية. قد قلت ان الماركسية كنظرية علمية لا يمكنها إدعاء المعرفة المطلقة. واذا فعلت ذلك فستتحول الى ما يشبه الدين، في اطار ادعائها الخاطئ كأيديولوجية. لأن "المعرفة العلمية نسبية" وهذا يعني: ان هناك حدودا لهذه المعرفة، هذه الحدود تفسح مجالا للايمان الفردي، نعم نمنح لهذا الإيمان مجاله الخاص. ولذلك فان فكرة اللاديني العلمي حديد خشبي. ان العلم لا يمكن ان يكون دينيا وكذلك لا يمكن ان يكون لا دينيا. وفي اطار المعرفة العلمية هناك لـ لله ولغير الله مكان ضيق. ومع استكمال كانط لاثبات الله، استكملت ايضا الحجج النافية له. ان موقف الماركسية بالأساس من ايمان البشر الديني، وعلى اساس منطقها النظري شديد الوضوح. الماركسية ليست الدين، ويجب عليها وضع كل شكل من الاشكال الدينية جانبا، ولكن يمكن للمتدينين أن يكونوا ماركسيين – نعم بامكانهم ذلك، هذا ما يحدث غالبا، فهؤلاء يستمدون ايضا دوافع تعاملهم السياسي من معتقداتهم.
لنتفق: ان الماركسية اساسا نظرية تحررية هدفها دنيوي؛ التحرر الحقيقي من الخوف والعنف والفاقة، وجود قائم على اساس المساواة البشرية. وهذا يعني: الإشتراكية كديمقراطية حقيقية. وفي سبيل تحقيق هذا الغرض ينبغي على جميع القوى التي تلتزم بهذا الهدف ان تتجمع. وبالنظر لتفوق العدو، اي الإمبريالية ووكلائها السياسيين، فان الإتحاد السياسي لجميع القوى المعادية للامبريالية شرط للقدرة على قيادة

النضال. ان تقييم الأديان كمؤسسات، وانطلاقا من وظيفتها في جميع انحاء العالم، باعتبارها جزءا من النضال ضد الإمبريالية. فاذا وقفوا الى جانب التحالف المعادي للامبريالية، ينبغي الترحيب بهم كمساهمين وشركاء على قدم المساواة، واذا اتخذوا موقفا الى جانب المتسلطين، كما فعلوا، بما فيه الكفاية، في الماضي، فيجب التعامل معهم كخصوم وبدون تحفظ، ومكافحتهم بجميع الوسائل التي يتطلبها وضع تاريخي استثنائي. ولازالة سوء الفهم ايا كان – الأمر هنا يتعلق بنقطة، يحدث بشأنها سوء الفهم ببساطة، وهي نقطة ذات مغزى سياسي مهم: الماركسية ليست ايديولوجية واساسها الأول هو العلم. وموقفها من الاديان المؤسساتية، اعتمادا على تاريخها النقدي. والماركسية تعتبر الأديان اشكالا اديولوجية، تحدد موقفها منها اعتمادا على وظيفتها (اي الأديان) الاجتماعية.

والإسلام مثل غيره من الأديان والسؤال هو: الى أي مدى يستطيع الاسهام في تحرير الإنسان؟ يلعب الإسلام دورا مهما في تشكيل الحياة على كوكبنا، نظرا لقواه البشرية الهائلة وديناميكياته وانتشاره العالمي. هل يمتلك امكانيات تحررية بالمعنى الذي اشرت اليه في اعلاه؟ هنا هو السؤال الحاسم. الى اي مدى يمكن اقامة صلات بين الماركسية والإسلام؟ اذا كان الجواب بنعم، ستكون هذه خطوة مهمة الى الأمام.

للوهلة الأولى تبرز فوارق كبيرة. لكن كلا الجانبين يفتقران لمعرفة بعضمها البعض. وينبغي على المرء استكشاف سبل التواصل. يدور في ذهني الإسلام الأسباني قبل استعادة اسبانيا كنموذج للتسامح بين الإيديولوجيات والأديان. في الأندلس عاش جميع الناس ثقافاتهم الخاصة، وكان الشرط هو القبول بنظام الدولة سياسيا وقانونيا. حتى الفلسفة ازدهرت، اتذكر هنا عمل بلوخ (فيلسوف ماركسي الماني – المترجم) الرائد "بن سينا واليسار الارسطي". هنا يشير الكاتب الى الفلسفة العربية ـ جزء من تاريخ الفكر المادي. لا ننسى ان الوصول الى القرون الوسطى المسيحية تم بوساطة عربية. لقد عالج هذه القضية توما الإكويني في عمله Die Summa contra Gentiles "خلاصة ضد الإلحاديين" (اربعة كراريس تبشيرية صدرت في النصف الثاني من القرن الثالث عشر – المترجم). وهي محاولة لفرض الفكر المسيحي في مواجهة غير المسيحيين من العرب واليهود. نحن نحتاج لدراسات عن تاريخ الإسلام سياسيا وثقافيا، وعلاقته مع العالم غير الإسلامي، وإمكانياته الثقافية. ومفهوما ان تكن هذه الدراسات نقدية، ولا سيما تلك التي تتناول إنجازاته الثقافية والتحررية. وفي هذا السياق جاءت تسمية غوتا "الديوان الغربي – الشرقي". وهنا يحتفل بشاعر القرن الرابع عشر الفارسي حافظ، باعتباره شقيقه الروحي، المبشر بالوجود السعيد، والسعادة الدنيوية، واقتران الحيوية بالروحانية الصوفية. هنا يقف العالم الإسلامي كبديل للزهد المسيحي. وهنا نجد الحجج ضد الأصولية الدينية من أي نوع، في نفس الوقت نكسب ارضية لتفاهم الشعوب الأدبي – مفهوم غوتا عن الأدب العالمي. هذه هي وسائل تأهيل الوعي التاريخي، دعم المشتركات، وازالة الحدود. ان العمل على انسنة الثقافة العالمية لا يمكن له ان ينجح، الا كمهمة

مشتركة. وهي (الأنسنة) تحتل موقعا مركزيا في مفهوم الماركسية الثقافي.

- كيف يمكن أن تسهم الماركسية اليوم في النضال من أجل حقوق الإنسان والعدالة؟

• وهنا ايضا التوضيح النظري المسبق مطلوب. ان فكرة الحق (موظفين مفهوم هيغل)، هو مسألة الحقوق الفردية، والقانون الدولي، وحقوق الإنسان، نظرت اليه الماركسية التقليدية، في كثير من الأحيان من زاوية ايديولوجية، اي نظرت اليه بحذر، وفي بعض اشكال الماركسية لاتزال هذه النظرة حتى اليوم قائمة. والمعتاد ان الحق في المجتمعات الطبقية في المقام الأول هو حقوق الطبقة. واود القول جرى ويتم نسيان، ان الحق يتجاوز ما ذكر فهو مكسب حضاري، يتجاوز طابعه الطبقي – كحقوق الإنسان، والقانون الدولي، الحقوق الفردية، سيادة القانون، في شكل حقوق مجتمعية. ان سنوات تسلط ستالين وحدها ينبغي ان تعلمنا، ماذا يعني، عندما يتم انتهاك عناصر في الحقوق الأساسية في الإشتراكية. على جميع المستويات، وفي العديد من المناطق التي نراها في المجتمع البرجوازي المعاصر، التي تصف نفسها بالحرة والديمقراطية تعيش حالة من هدم سيادة القانون. يحدث هذا في البلدان الأكثر تطورا: في الولايات المتحدة، في المحيط الأوربي في تركيا. ان النضال التحرري اليوم اصبح قسما من الكفاح من أجل الحفاظ على سيادة القانون، كافق لتوسعها.

وإذا ما نظرنا إلى ألمانيا، فسنرى انها شديدة الإنقسام بوتائر متصاعدة... ومما لا شك فيه، ان هناك أجزاء كبيرة من السكان تملك وعيا ديمقراطيا وتضامنا انسانيا متينا. ومن الجانب الآخر يدخل حزب "البديل من اجل المانيا" اليميني المتطرف في برلمانات الولايات الإتحادية. لدينا فاشية جديدة ناشطة، والغوغاء الرمادية تحرق مساكن اللاجئين، والشرطة غير قادرة، او غير راغبة في حمايتهم. وما يسمى بحماة الدستور (المخابرات – المترجم) تعمل في فضاء خال من القانون، وصلاتها بالمجموعات اليمينية السرية، تكشفها محاكمات NSU (فضيحة تتعلق بتجنيد المخابرات لاعضاء في مجموعة نازية ارهابية قامت بجرائم قتل واعمال ارهابية – المترجم) بشكل تدريجي. ويستطيع المرء تخمين التفاصيل فقط وليس معرفتها. ان فرض حقوق المجتمع – ممارسة السيادة – هي في المقام الأول مطالب وليس واقعا. ولذلك فمن الضروري أولا الدفاع ـ في هذا الوقت الضبابي ـ عن سيادة القانون، وإقامة علاقات ديمقراطية وقانونية في الأماكن التي لا وجود لها فيها. ان قوانا وامكانياتنا محدودة. وهناك العديد من ميادين العمل: العمل السياسي، العمل في المدارس والجامعات. ان الوضع في الجامعات بالنسبة للماركسيين شديد السوء. لقد تغيرت المناهج الدراسية باتجاه العلم البرجوازي، في احدث موضاته، وآخرها ملصقات ما بعد الحداثة. ويجري اختيار الأساتذه على هذا الأساس. واليوم يوجد بالكاد اساتذة ماركسيون في الجامعات (اذا كانوا اصلا موجودون). والظروف اسوأ بكثير، على سبيل المثال، من الوضع في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث نجد اساتذة يساريين وماركسيين، ليس المشاهير فقط، مثل الرائع نعوم تسومسكي، بل وآخرون

من الاسماء غير المشهورة. عندنا يمكن الحديث عن اسطبلات الأكاديمين، التي تحررت من دنس اليسار بعد ما يسمى بالتوحيد (المقصود توحيد الألمانيتين – المترجم)، التي أسمّيها حروبا صليبية.

- كيف يمكننا تطبيق الأفكار الماركسية في المجتمعات الغربية؟

• الماركسية قابلة للتنفيذ، حتى على المدى البعيد، من خلال ما أسميه ثورة ديمقراطية. اعني بهذا تحولا اساسيا في علاقات الإنتاج والملكية في اطار سيادة القانون. التحول الاساسي هو اضفاء الطابع المجتمعي على الملكية الإحتكارية، وراس المال المالي، الرقابة المجتمعية على قطاعات القاعدة الإقتصادية، تطوير دولة القانون ذاتها خارج محدداتها الطبقية التقليدية – اي ظهور مجتمع قانون اشتراكي. وفي عهد الرأسمال الإمبريالي، فان هذا عمل هائل.

يبدو الرأسمال الإمبريالي منيعا مثل روما في عهد الإمبراطورية الرومانية. ولكن تحقيق مثل هذا التحول في ظل سيادة القانون الديمقراطي من حيث المبدأ ممكن – حتى في بلادنا في اطار القانون الأساسي (الدستور – المترجم) – ولكن مثل هذا التحول في إطار سيادة القانون الديمقراطي هو من حيث المبدأ ممكن – وإذا كانت هذه السياسة لا تملك أي أساس حقيقي في الإطار الأوروبي، لكنها بالفعل واقع حقيقي في أجزاء أخرى من العالم، كما هو الحال في أمريكا اللاتينية.

ان ثورة ديمقراطية ليست غزلا رومانسيا، ولا عنفا فوضويا، بل هو إمكانية حقيقية للعمل السياسي اليوم. وخطوتها الأولى هنا هي اضفاء الطابع الإجتماعي على رأس المال الإمبريالي. وعلى هذا الأساس، ستتم إعادة البناء الديمقراطي للمجتمع المدني في المجال القانوني ومجال بناء الدولة، وفقا لمعايير الثورة الديمقراطية، التي تهدف إلى تهيئة الظروف للتفجير الكامل للإمكانيات البشرية.

في هذا السياق يجب ان لا نغفل ولو للحظة واحدة، ماذا تعني الشيوعية بالمعنى الماركسي: عالم سلمي تضامني، تتحول فيه دولة القانون البرجوازية الى مجتمع القانون الشامل، الذي يُزال فيه الإستغلال والإضطهاد اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا. ويكون فيه التحرر من العوز شرطا للتعليم الثقافي؛ التوزيع العادل لما هو مجتمعي كشرط لتنمية حياة الأفراد؛ الفردانية المجتمعية كجوهر للتصنيف؛ الحفاظ على الطبيعة باعتبارها المنطقة الكوسمولوجية (الكونية) لسكن الإنسان. ان الشيوعية في نموذجها المعياري يوتيبيا ملموسة. وسيكون تحقيق مُثلها التحررية ممكنا، عبر زمن طويل وعلى عدة مراحل. ان الصراع على الدستور وسلطة القانون، هو نضال من اجل تحقيق شروط الثورة. واذا تحدثنا بتركيز: ان هذا النضال هو البداية الفعلية للثورة. وبكل تأكيد: ستكون هناك معركة، وستكون معركة صعبة، فليس هناك من يعتقد ان الراسمال سيغادر مسرح التاريخ البشري دون مقاومة. وكما قال ماركس: لقد جاءت الى العالم، "من الرأس حتى اخمص القدمين، ومن جميع المسامات تنزف دم وقذارة " (رأس المال/ الجزء الأول، الأعمال - ماركس وانجلس بالألمانية، المجد 23، ص788). وهكذا سوف لن تغادر العالم ايضا بصورة مختلفة، وليس مستبعدا

امكانية جرها البشرية الى السقوط في الجحيم.

ان ظروفا مثل هذا التحول، في الوضع الراهن، سيئة، ولكن الإنكفاء هو أكثر المواقف خطأ، لانه يعني التخلي عن النضال حتى قبل ان تبدأ المعركة. ولهذا فان التحلي بالصبر هو الفضيلة الأولى للثورة. لقد تعلمنا كعلماء وماركسيين، التفكير بطريقة تاريخية. لقد استغرق الأمر عدة قرون حتى استطاع المجتمع البرجوازي الإنتصار على الإقطاعية كتشكيلة اجتماعية تاريخية عالمية. وجرت العملية عبر سلسلة من الثورات، بدأت في القرن الرابع عشر وانتهت في القرنين التاسع عشر والعشرين. والى اليوم توجد مجموعة من الممالك من مخلفات الإقطاعية المنحلة. وخلال العصور الذهبية الرومانية، بدا لسكان الأمبراطورية الرومانية انها ابدية، واحتفلوا بالإمبراطور كآلهة، ولكن دوامة التاريخ ابتلعتها، ولم يبق منها سوى الآثار المعروفة والمثيرة للإعجاب. لذلك ينبغي علينا ان نأخذ بنظر الاعتبار في نضالنا وفي مفهومنا المستقبلي المدى التاريخي للزمن وهيكليته بقوة.

ان حركة التاريخ لا تسير بخط مستقيم، وانما بشكل لولبي – وهي مجازية استعارها بيترفايز (كاتب الماني – المترجم) ووظفها في روايته ذات الثلاث اجزاء - "جماليات المقاومة". ان الخطر الماثل هو الامكانية المستمرة للسقوط في البربرية. ان العودة للبربرية في الأمبريالية، ارتباطا بطبيعتها معلوم. واليوم نتجه بعد الحرب العالمية الثانية والفاشية الأوربية الى ذروة جديدة.

ان نعوم تشومسكي (1928 –) (أستاذ لسانيات وفيلسوف أمريكي، إضافة إلى أنه عالم إدراكي وعالم بالمنطق ومؤرخ وناقد وناشط سياسي – المحرر) يحذر من خطر حرب عالمية ثالثة بدأتها حاليا الولايات المتحدة الأمريكية، وفي هذه الحالة، فان "احتمال بقاء الجنس البشري على قيد الحياة يتناقص الى حدوده الدنيا". تشومسكي يذكر بجواب آينشتاين على سؤال: ما السلاح الذي سيستخدم في الحرب القادمة بعد القنبلة الذرية؟ "السلاح الوحيد المتوفر عندئذ، سيكون الفأس الحجرية". (حوار مع نعوم تشومسكي في جريدة Junge Welt الألمانية - عدد 56 في 7 اذار 2016). ان النضال من أجل السلام يدور اليوم بحده الأدنى في سبيل انقاذ البشرية.

ولكن وبدون الحالة القصوى، وعلى الرغم من التقدم التكنولوجي، فإننا نعيش في عصر التراجع الحضاري. وسيكتسب هذا التراجع زخما، ما لم يتم القضاء على مسبباته. وهذه تكمن في علاقات الإنتاج، الملكية، السلطة السائدة. وهذه تحمل منذ لينين وروزا لوكسمبورغ اسم الإمبريالية. وبفطنة عالية، كانا اول من كشفا عن الطبيعة شديدة الوحشية للرأسمالية الأمبريالية. وهذه هي "مرحلة الحروب والثورات". وتتميز باندماج راس المال الإحتكاري برأس المال المالي، وبهذا يرتبط ذلك بتشكيل نظام تلسط سياسي عالمي ("kosmopolitisch" بالمعنى الذي حدداه ماركس وانجلس للمفهوم في البيان الشيوعي) "السعي للهيمنة بدلا من الحرية، واستغلال عدد متزايد من الأمم الصغيرة أو الضعيفة من قبل عدد قليل جدا من الأمم الغنية أو القوية"، (لينين، "الامبريالية احدث مراحل الرأسمالية"

﴾وليس اعلى مراحل الرأسمالية كما هو شائع – المترجم﴿، الأعمال – المجلد 22 ، ص 304 – 306)، هل الإمبريالية قادرة أيضا على دفع عجلة التقدم التكنولوجي الى درجة لا يمكن التنبؤ بها – من نمط انتاج تكنولوجيا العصر الراهن المتطورة وصولا الى اكتشاف تصميم مشروع قطيع المثقفين، التي ينبغي ان تكون بديلة للبشر –، وبهذا تمثل الأمبريالية في هيكليتها الثقافية الداخلية اعادة بربرة الحضارة الانسانية الى درجة لا يمكن ايضا التبؤ بها.

ان ممارسة النضال ضد تشكيلات اجتماعية، تجلب هكذا نتائج، مطلوب بقوة وبكل الوسائل المتاحة. وهنا اعود الى مفهوم "الثورة الديمقراطية"، والتي يمكن في الواقع، في هذا البلد، وفي بلدان سيادة القانون الأخرى، خوض نضال شرعي (علني) في سبيلها.

نيرودا يتحدث، مع اطلالة على الثورة التشيلية، عن "ثورة شرعية". إن خوض النضال الشرعي (العلني) مطلوب، طالما دولة سيادة القانون قائمة مع معرفتنا ان القوى الحاكمة ستكون أول من يحوله الى ابادة جسدية، عندما تصبح سلطتها مهددة (وبهذه الطريقة اغرقت الثورة الشيلية والثورة الأسبانية بالدماء من قبل الدكتاتورية الفاشية، وبمساعدة الرأسمال الإمبريالي). وحتى لو نجح هذا النضال: ستكون هناك حاجة إلى الكثير من الخطوات، وربما العديد من الثورات – وبتعبير ماركس: "حقبة من الثورات الاجتماعية " – للقضاء على صرح الظلم (بتعبير هيغل).

وسيمضي وقت قبل ان تستطيع البشرية المضي بالعمل المتقدم. وبتعبير بريشت: "الهدف بعيد جدا. ولكنه "مرئي بوضوح" حتى وان كان بالنسبة لنا "صعب المنال" (قصيدة الأجيال القادمة).

---

*- حوار أجرته مع الضيف ميلينا رامبولدي، لصالح promosaik.blogspot.de ونشر في موقع "شيوعيون" الألماني، وترجمه الى العربية الزميل رشيد غويلب.

أدب
و
فن

مديات الشحن الثوري اللامنتهي في الاغنية الشعبية

حسين الجاف

(على حسب وداد گلبي يا بوي)، أغنية شعبية مصرية شائعة وذائعة في الريف المصري، وتحديدا في أرياف الصعيد المصري (بجنوب البلاد)، غنّى هذه الأغنية المصرية غير واحد من مطربي الشقيقة مصر: محمد العزبي ، وداد وعبد الحليم حافظ بأنغام والحان مختلفة لكن أشهرها أغنية عبد الحليم حافظ التي كتبها صلاح ابو سالم ولحنها بليغ حمدي اللذان أخذا من الأغنية الأصلية مذهبها الأول وبنوا عليه الكلمات واللحن فانتشرت هذه الأغنية إنتشارا مذهلا في منتصف الستينيات من القرن الماضي وصارت على كل لسان.. ويقينا إن أغاني (على حسب وداد گلبي) و(انا كل ما اگول التوبة) و(سواح) دفعت غناء عبد الحليم إلى الأمام مرة أخرى ليصبح في واجهة الأغنية العربية بعد فترة ركود ومراوحة في نفس المكان مسّت غناءه في الربع الأول من ستينيات القرن الماضي.

وعلى أية حال فان أغنية (على حسب وداد گلبي) وفي قراءة أخرى (على حزب وداد گلبي) صارت اكثر شيوعا وذيوعا وانتشارا بعد ان غناها عبد الحليم بالاستفادة من مطلعها القديم ولا شك ان لحن بليغ حمدي أضاف إلى الأغنية سحرا وجمالا كبيرين.

وأصل هذه الأغنية الذائعة يعود إلى سوء فهم او خصومة حصلت بين المطربة الغجرية الجميلة الشهيرة يومئذ (وداد الغازية) والأمير (يوسف كمال) خال والد الملك فاروق الأول (1920 – 1965) ملك مصر الذي أطاحت به مجموعة ثورية من الضباط الأحرار من الطبقة المتوسطة في 23 تموز 1952 بقيادة الرئيس المصري جمال عبد الناصر (1917 – 1970).

وعود الى بدء، فان يوسف كمال الثري العجوز والمتذوق الشديد للفن والعمارة والجمال وصاحب القصور الفخمة والخيول المطهمة والمولع باقتناء اللوحات الفنية لأشهر رسامي العالم، ولعل قصره المطل على النهر في الجهة الغربية من النيل بمنطقة نجع حمادي وهي من أعمال محافظة قنا، لا يزال شاخصا للعيان بعد مرور ما يقرب من مائة سنة على رحيل صاحبه، ويبدو ان الأمير الغني الذي تعود على الامتلاك والاستحواذ أراد ان يضم الغجرية الحسناء فارعة الطول وذات الصوت الملائكي والجمال الآسر الى مجموعة عشيقاته ومحظياته.

لقد هام الأمير بها حبا.. وأراد ان يضمها الى قائمة حريمه بأية صورة كانت.. كيف لا ؟ وهو الذي يملك كل شيء في هذه البلاد أطيانا وذهبا ونقودا وطول باع وسعة سمعة.. لقد اخذ صوتها الأخاذ بلبّ الأمير وهي تغني أجمل الأغاني .. فراودها عن نفسه أكثر من مرة.. إغراء وإغواء مرة، ومرة تهديدا ووعيدا.. بيد ان كل محاولاته في إلانة موقفها وكسب ودّها ذهبت أدراج الرياح بخاصة عندما واجهته بكل صراحة وقوة قائلة له:

ـ لا.. لن يغريني كل ذهبك وأطيانك وقصورك على ان أبيع ربيع شبابي لخريف عمرك.

فاستاء الأمير واستشاط غضبا وأقام الدنيا ولم يقعدها، إذ كيف ترفض غجرية.. مجرد غجرية ذات أصل وضيع الاقتران بالأمير الكبير الثري خال والد الملك..

لكنها واجهته مرة أخرى وخاطبته:

ـ إنك عجوز متصاب ومغرور وظالم ومتكبر.. تعدّ الناس خدما لك ولرغباتك، ولكن هيهات ان تمسّ مني ظفرا..

فاشتد الجدال بينهما لتقود المطربة إنتفاضة بعد حصول حالة رفض مطلق وعدم رضا عام عنه وعن تصرفاته ومظالمه نحو الفلاحين لتطلق شرارة ثورة عمت كل أرجاء الريف المظلوم ضد مجتمع الـ (2/1 %) أي الطبقة الحاكمة الإقطاعية المتنفذة التي كان بيدها كل المصالح الاقتصادية والزراعية ووسائل الإنتاج والوظائف الكبيرة قبل ثورة 23 تموز.

ويقول الصحفي المصري الشهير (جليل البنداري) مستغربا ومتسائلا:

(إن الثورة العارمة التي انطلقت من منطقة نجع حمادي لتقلب الأرض حمما تحت أقدام السلطة الرجعية الإقطاعية الحاكمة ورجالاته المتنفذين يومئذ.. ارتبطت ارتباطا وثيقا باسم (وداد الغازية) وهي مطربة غجرية من طبقة مسحوقة ومهمشة)، ويضيف البنداري: ان هذا الأمر ربما شكل صدمة كبرى لأهالي نجع حمادي بل وخيبة أمل أكبر عندما علموا ان ثورتهم الشعبية ارتبطت باسم هذه الغازية (الغجرية) الشابة الرافضة لنزوات ذلك الأمير الإقطاعي العجوز باللقاء به في قصره سفاحا والغناء له وحده.

ومع اعتراض البنداري وغيره على (وداد) واسمها ودور أغنيتها الشهيرة (على حسب وداد گلبي يا بوي) التي ذاعت وشاعت وألهبت حماس الجماهير بل وشحذت هممهم الكسولة إزاء رفض الواقع المرّ والمساهمة في الثورة العاصفة التي لا يفقد الفقراء في مشاركتهم فيها سوى قيودهم.

ان مديات الشحن الثوري لا منتهية في الأغنية الشعبية النابعة والمعبرة عن صدق معاناة وقساوة الواقع الاجتماعي الذي يتطلب وعيا ثوريا وإرادة قوية وأهدافا ملهمة لان إرادة التغيير الثوري عموما أقوى من أعدائها ـ اعداء الحياة ـ كما يقولون.

وهكذا فان للأغنية الشعبية دور هام في إذكاء همم الجماهير وشحذ إرادتها باتجاه التغيير والتطوير والوصول إلى غايتها المثلى في الحرية والكرامة والحياة الأفضل.

أهوارنا على لائحة اليونسكو

صوتت لجنة التراث العالمي التابعة لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو)، أواسط تموز المنصرم، على إدراج الأهوار وبعض المناطق الأثرية في العراق على لائحة التراث العالمي.

وتمت الموافقة على ضم ثلاث مدن قديمة (أور، أريدو، الوركاء) وأربعة من الأهوار العراقية إلى سجل لائحة التراث العالمي بعدما حظي الطلب الذي تقدم به العراق بدعم دول (الكويت ولبنان وإيران وفرنسا وكازاخستان وفنلندا واندونيسيا والبرتغال وتونس وتنزانيا وفيتنام واليابان والبيرو).

ويكسب العراق من هذا التصويت أن سيتم تخصيص أموال أممية للحفاظ على الاهوار من التلوث والتخريب ولغرض تحويلها لمناطق سياحية عامرة، وكذلك للحفاظ على ثروات الاهوار من حيونات ونباتات وموروث حضاري واستثمارها في تطوير الاقتصاد، مع ضمان توفير البنى التحتية السياحية لجعلها واحدة من أجمل المنتجعات العالمية التي تجذب السواح من مختلف أنحاء العالم، فضلا عن عدم السماح بالصيد (الجائر) للكائنات الحية فيها وضرورة حماية الطيور المهددة بالانقراض والمساعدة في إعادة تكاثرها.

كما ان هذا التصويت لن يسمح لأية دولة مجاورة صاحبة منبع المياه بقطع الحصص المائية او تقليلها بما يؤثر على الحياة في الاهوار وجمالياتها بل سيتم إلزام هذه الدول المتشاطئة بزيادة الحصة المائية.

وأيضا لا يسمح دوليا بحصول أية نزاعات عسكرية وحروب تكون ساحاتها الاهوار، كما لا يسمح للحكومة العراقية من الآن فصاعدا بتجفيف الاهوار تحت أي مبرر كان كما فعل الطاغية صدام.

"الثقافة الجديدة"

"مثلث الموت"
قراءة في رواية عراقية حديثة

احمد خلف

1966 نشر أول قصة في ملحق الجمهورية. نهاية عام 1969 عمل في القسم الثقافي للاذاعة والتلفزيون. وأيضا في عام 1969 ظهرت قصته (خوذة لرجل نصف ميت) في مجلة الآداب البيروتية، عام 1985 عمل سكرتريا لتحرير مجلة الأقلام.
أصدر: مجموعته "نزهة في شوارع مهجورة" عام 1974، مجموعته "منزل العرائس" عام 1978، روايته "الخراب الجميل" عام 1980. مجموعته "القادم البعيد" عام 1984، كتابه "صراخ في علبة" عام 1990، مجموعته "خريف البلدة" عام 1995 وفاز عنها بجائزة الابداع في العام نفسه، مجموعته "تيمور الحزين" عام 2000، مجموعته "مطر في آخر الليل" عام 2001، روايته "موت الأب" عام 2002، روايته "حامل الهوى" عام 2005، روايته "محنة فينوس" عام 2007، روايته "الحلم العظيم" عام 2009، كتابه "الرواق الطويل" عام 2012، روايته "تسارع الخطى" عام 2014، مجموعته "عصا الجنون" عام 2015.
قررت كلية اليرموك الجامعة تدريس كتابه (تيمور الحزين) ضمن منهاج عام 2002.
انتخب عام 2008 رئيسا لنادي القصة في اتحاد الادباء، وفي عام 2010 أنيطت به رئاسة تحرير مجلة "الأديب العراقي" الصادرة باسم اتحاد الادباء.
عضو اتحاد الأدباء والكتاب في العراق. عضو نقابة الصحفيين العراقيين.

هل جازف الروائي علي لفته سعيد بدخوله مناطق تعتبر في الرواية العراقية مفاصل خطرة تحف بها المجازفات والحذر منها يتطلب وعيا مرهفا ودقيقا للسير على حافة الهاوية، الرواية (مثلث الموت) لا تعوزها الجرأة ولا الفن او الوعي بحركة السرد المتنامي صعودا الى حيث تنتهي الأحداث - وان بدأ السرد بطيئا في البداية - بما الت اليه حياتنا التي صورها المؤلف بدقائق نادرة او يصعب توقعها من كاتب عراقي يعيش في مدينة مقدسة تغص بالشعائر الدينية والشعارات الحزبية والعشائرية والمذهبية، كيف تتأتى روح المجازفة للمؤلف ان يخوض غمار تجربة لا مفر للأجيال القادمة الا ان تضعها نصب أعينها للعمل على اقتحام مناطق عصية على السارد العراقي الذي نريد له ان يكون متقحما أزيز الرصاص كما يقول الجواهري الكبير، نحن ازاء مجموعة من الصحفيين الذين يعيشون في مدينة تكتظ بالكثير من الأحداث والتغيرات والمتناقضات أيضا، وقد تجاوز المؤلف بحساسية مرهفة الوقوع بكتابة سيرة ذاتية لأولئك الصحفيين بل جعل روايته تمتد نحو رواية ذات بناء متماسك وقد استثمر معرفته بالبناء الكلاسيكي من جهة ودرايته ودربته على فن كتابة رواية تتسم بطابع الحداثة المتقنة من ناحية أخرى.

هؤلاء الصحفيون تتوزع ثقافتهم بين المتطور جدا كشخصية سلام ذي الوعي والثقافة والمواجهة المباشرة مع الواقع

وهو الذي لخص نظرته للحياة في بلده بقوله: (...ان الوضع الجديد ترك فراغا وعراكا وعداوة بين الناس ووصلت إلى ما بين الأهل والأقارب والأصدقاء.. صارت المذهبية والصراع داخلها أيضا رأس الحربة التي يطعن فيها الناس بعضهم..) الرواية ص77، ان شخصية سلام وحدها يمكن ان تكون رواية مستقلة، فأفعاله وسلوكه الحيوي لا يشبه سلوك الآخرين من زملائه ولعل منتظر اقرب الأصدقاء لسلام رغم ان الأخير يعرف بروح انتهازية وعقل برغماتي، منتظر الذي يتحدث عن شرف المهنة نراه يخطط للعيش خارج البلد بل نجده وقد استغل غياب زملائه عن المدينة مما دفعته انتهازيته إلى إعلان غيابهم في منطقة مثلث الموت على شاشة قناته الفضائية التي يصفها المحافظ بالعميلة ويصف منتظر بالعميل والغبي لفعلته في إعلانه عن غياب او اختطاف زملائه الآخرين وهم سلام واحمد وخضير، يقول المحافظ مخاطبا منتظر: (انت لا يهمك سوى مصلحتك.. انه أمر محزن ان تستغل مصير زملائك من اجل ان تنشر موضوعا لم تتأكد منه.) ص266.

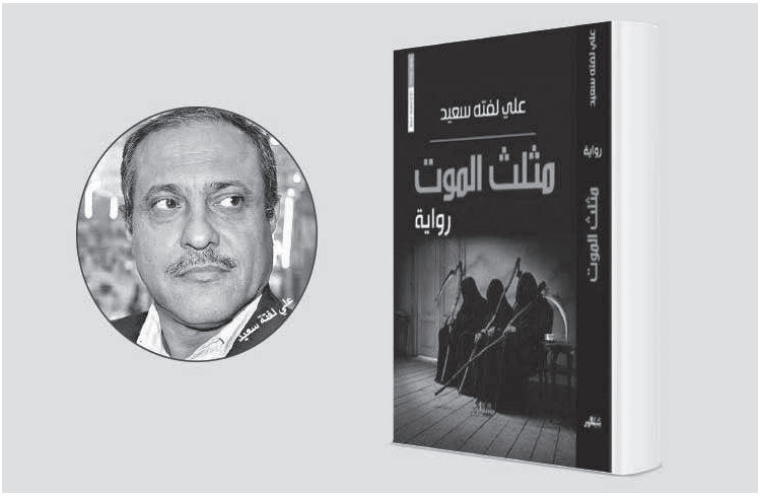

هذه القراءة لرواية (مثلث الموت) لا تخلو من إشارة نقدٍ لوجود شخصية المحافظ الذي أربك تصاعد متقدم السرد فيها بحيث اخذ الكثير من صفحاتها ونحن لا نعرف من هو المحافظ (لقد وجدنا وعي المحافظ في قراءة الأحداث على السارد وعلى مجموعة الصحفيين الذين يشكلون جسد الفكرة الرئيسة، خصوصا عند اختطاف سلام وتعجل منتظر بنشر خبر الاختطاف، فقد كانت لدى المحافظ رؤيا ناضجة لإدانة منتظر وتسرعه بفعلته تلك) في رواية تعتمد الكفاح اليومي لمجموعة من الصحفيين العراقيين في زمن موتهم المجاني.

ان هدف المجموعة هو وضع اليد على أسباب المحنة العراقية ومن هو الذي يستفيد من حدة الصراع وسقوط مئات الضحايا نتيجة العمليات المسلحة والإرهابية؟ ان سلام أكثر من أي واحد من زملائه بحثا عن الدوافع وراء الخراب العراقي لذا يطلق على عمله بالبحث الاستقصائي أي ان

يحاول بل يجازف بنفسه إذا تطلب الأمر الدخول في المغامرة العراقية المحتدمة العناصر والمشتبكة الرؤى، وقبل ان نصل إلى لحظة المواجهة لسلام مع قدره المتمثل في اختطافه.

وهذا المفصل من (مثلث الموت) هو العمود الفقري للرواية، علينا ان نتأمل عينة من حواره مع نفسه عن ماهية أحلامه التي ستدلنا على كل دوافع المجازفة: (كان يحلم بالمدن النظيفة التي لا يكون فيها ما يشبه الدمية، مربوط إلى ماضيه الذي يعلن عليه الحرب دوما في تفسيراته وتأويلاته، فكان يندفع كثيرا نحو الحلم.) الرواية ص130، ان هذه الإشارة من الرواية تؤكد لنا ان سلام هو واحد من العراقيين الحالمين بغدٍ أفضل، أي أنهم يجدفون بعيدا عن الطائفيةً والحزبية الضيقة، حتى قادته قدماه الى مصير يلوح بالموت في مثلث الموت.

يواجه سلام مجموعة المسلحين (كما يطلق عليهم في الرواية) بقلق ورعب وهو يعرف ما ستؤول إليه نهايته معهم فهو من مدينة مقدسة مغلقة على المذاهب الأخرى ولا مجال للتواري من معرفتهم بطائفته وعمله كما ان قائدهم (أبو عبد الله) يعرف عن سلام ما يكفي ليحسبه من الأعداء أو من خونة آلامه او ممن جاؤوا على الدبابة الأمريكية حسب تعبير أبو عبد الله، لكن سلام يتمكن من إقناع الأخير، بان الكثير من الصحفيين العراقيين هم ضد الاحتلال وأنهم بعيدون عن المذهبية والطائفية ويستغل سلام معرفته بأبي عبد الله كونه كان ضابطا سابقا (من خلال صورة معلقة على الجدار تجمع صدام حسين مع أبي عبد الله) في الجيش العراقي (قبل أن يحله بريمر سيء الصيت) وان ميوله ليست طائفية بل وطنية وان أشار السارد إلى ذلك بصورة خفية إلا ان قائد المجموعة - ابو عبد الله - يفكر في الاستفادة من وجود سلام مختطفا لديهم ويتساءل مع نفسه: ما الجدوى من تصفية صحفي يمكن الاستفادة منه لاحقا؟، وفعلا يعقد معه اتفاقا واقعيا ممكن التنفيذ وهو ان يجري سلام معه حوارا عن الحالة العراقية في زمن الاحتلال شرط ان ينشر الحوار بتعهد رئيس التحرير الذي يجري معه حوارا مقتضبا بواسطة سلام الذي يخبر رئيس التحرير ان مصيره كانسان وكصحفي مرهون بيده لذا ينبغي ان يعده بنشر الحوار في الصحيفة التي يعمل بها سلام وان لا يحذف منه أية عبارة او يشوه الحوار بل أن يُنشر كاملا.

كل هذا يجري في مجتمع رجولي، لا نساء في الرواية باستثناء آمال الصحفية التي تقمع ولا تستمر في الحضور إلا في الصفحات الأولى من الرواية كأن المؤلف يريد الإشارة إلى نمط المجتمع الذي تسود فيه العقلية الذكورية ولا وجود للمرأة فيه قط.

تستمر الرواية بالصعود التدريجي كأية رواية عراقية تبدأ بطيئة او رتيبة حتى تصل بنا إلى لحظة الذروة، وتلك اللحظة هي تساؤل تطرحه الرواية: أين اختفى سلام؟ ولا يجيب على هذا السؤال أحد، حتى مقالنا هذا يحرص ان يكتشفه القاريء بنفسه وذلك سرّ الرواية المتميزة هذه، حيث تبدو لغة السرد مزهوة بنفسها في العديد من صفحاتها ونلمس مقدرة اللغة على التمرد على مؤلفها وتتناغم مع المخيلة التي تغدو حقيقة واضحة للعيان.

ان رواية (مثلث الموت) رواية عراقية جديرة بالقراءة كنموذج متقدم من الروايات الحديثة والتي تواجه اخطر الأزمات في حياتنا اليومية المعاصرة.

الفردوس المفقود في روايات علي الشوك "السراب الأحمر" مثالا

فيصل لعيبي صاحي

فنان ورسام مواليد البصرة عام 1947. تخرج في معهد الفنون الجملية ببغداد أواخر الستينات، ثم أكمل دراسته في مدرسة خريجي الفنون الجميلة بباريس وجامعة السوربون.
قضى في أوروبا أكثر من 30 عاما استطاع خلالها استشفاف وفهم فرادة حضارة ما بين النهرين فجاءت لوحاته معبرا عن احساسه العميق بحضارة وطنه، وما لوحته المقهى البغدادي (1984) الا تعبير رمزي عن ذلك الاحساس.
يعيش حاليا في لندن.

مقدمة

ربما تبدو الرواية من أصعب الفنون الأدبية تأويلاً، فهي فن مراوغ ومتعدد الأوجه والرؤى، فقد يوحي النص عكس ما يراد المؤلف قوله أو إيصاله أو ما لم يرد إيصاله أصلاً.

فكيف يمكننا الحكم هنا، على العمل الإبداعي ، ومن أية زاوية ننطلق؟

الرواية تقدم لنا ذوات مختلفة، وعلينا قراءة ذلك بعناية مثل:

1 – الذات الكاتبة (المؤلف).الكاتب الحقيقي والكاتب الضمني.

2 – الذات القارئة (المحددة) – القاري الضمني – القاريء المجهول.

3 – الذوات داخل النص (شخوص الرواية).

4 – الذات التي تقيّم (الناقد).

5 – ذات المؤلف داخل النص.

6 – ذات المجتمع.

7 – ذات الكاتب النوعية (الجنس – ذكر – أنثى).

ففي الأدب عندما نسأل:

هل تريد شاياً أم قهوة؟

ينقسم الجواب الى معنيين.

فإذا قلت: ما الفرق ؟

سنرى المعني قد تحول الى:

سؤال مجازي كجواب، أي لا يهم، كلاهما واحد.

سؤال حرفي، أي ما الفرق بين القهوة والشاي؟.

وكما نرى هناك فرقا شاسعا بين السؤالين..

ولما كانت الرواية تحمل في داخلها معان وقيماً كثيرة عن المجتمع والفلسفة والعلوم والسلوك والأخلاق والتاريخ وغيرها، فإن مسألة الفهم تصبح أكثر صعوبة وتعقيداً وقد تحمل في طياتها سوء الفهم الذي يرافق كتابات من يكتب عنها او حولها بشكل عام.

أعتقد ان كل عمل فني (إبداعي) يخلق ناقده الخاص به، وهو يختلف عن الناقد التقليدي او الأكاديمي الذي يريد

تحديد النص ضمن منظومة من الشروط والقواعد المتعارف عليها وتخضع لقيم ومعان حياتية سائدة او معمول بها فنياً. لهذا أعدّ الكتابة عن أي عمل إبداعي، هي تجربة يجب أن تعيشها مع النص وداخله، كي تحس بقيمة العمل نفسه.
إن (مدام بوفاري) لكوستاف فلوبير و(آنا كارنينا) لتولستوي نصّان مكتوبان من قبل رجلين، رغم الذروة التي بلغاها في التعبير عن مشاعر المرأة، لكنهما يبقيان وغيرهما من النصوص التي كتبها الرجل عن المرأة، نصوصاً ذكورية.
لهذا فإن الشاعر نزار قباني الذي لقب بشاعر المرأة والمدافع عنها، لم يتخلص من ذكوريته وفكرة تبعية المرأة له، ونرى في قصيدة (أيظن) كيف أنهاها برجوع المرأة له بـ "ما أحلى الرجوع إليه".
و سيكون من العسير علينا معرفة سرّ تلك الملكة التي جعلت الكتابات الذكورية عن المرأة، أو سبر غور عواطفها، بهذه الحسيّة العالية التي تميزت بها. فهل هي الروح الأنثوية المقموعة والدفينة في ذات الذكر نفسه؟.

الشوك والسراب

يعدّ الأستاذ والمبدع العراقي الكبير علي الشوك، من ضمن النخبة البارزة التي أسهمت في بناء الحداثة العراقية المعاصرة، وخاصة الحداثة ذات التوجه التقدمي والديمقراطي البيّن، فهو مع كوكبة لامعة من مثقفي العراق، قد أرسوا الملامح الأساسية فيها وأثبتوا قواعدها المتينة، التي تعرضت مع الأسف في العقود الأخيرة من القرن العشرين و العقد الأول من القرن الواحد والعشرين إلى هزّات كبرى ومخاضات صعبة، لا تزال تكافح من اجل التخلص منها والعبور إلى ضفاف المدنية والتحضر المعاصرَين.
وأسهم علي الشوك في تأسيس المجلات الثقافية العراقية الهامة والمرموقة وتغذيتها بالمواد النوعية والأساسية لتحديث مجتمعنا، وشارك في النضال في صفوف اليسار العراقي وبالذات الحزب الشيوعي العراقي، وذاق مرارة العنف والسجون والرعب التي زرعتها الأنظمة القمعية في العراق. وكان من ضمن المجموعة التي صاغت التوجه الثوري في الأدب والفن والمعرفة عموماً في عراقنا الحالي.
إن أعمال علي الشوك الروائية، هي خلاصة تجربة طويلة من المعاناة والبحث والتجريب وهي أيضاً سيرة ذاتية للمؤلف وللعديد من مثقفي عراق النصف الثاني من القرن العشرين وتطلعاتهم نحو مجتمع المساواة والحرية والعدل، تبرّز فيها أهمية قيمة الفرد وتجليات مشاعره المختلفة والمتناقضة أحياناً مع الكثير من عادات وتقاليد المجتمع السائدة. انها تطلع نحو الحرية غير المقيدة بشروط المجتمع القديم ولا بعادات القرون السالفة، سواء كانت دينية او اجتماعية، هي نزوع لتصور مجتمع خالٍ من تحديدات لم تعد نافعة ولا مجدية وغير معقولة أيضاً، وباختصار هي تجسيم للفكر الليبرالي المنطلق نحو تحقيق مفاهيمه وحاجاته المقموعة والمعاقة.
كتب علي الشوك مجموعة من الروايات التي بدأها بـ (الأوبرا والكلب) أعقبها بثلاثيته (السراب الأحمر – مثلث متساوي الساقين – وزنابق بين الألغام) ثم (فتاة من طراز خاص)، وبعدها جاءت

(تمارا) و(موعد مع الموت) و(أحاديث يوم الأحد) وأتحفنا بـ (فرس البراري) ونحن بإنتظار(الفرس الزرقاء) التي تنتظر آخر اللمسات لدفعها إلى المطبعة.

إن الموضوعة الرئيسة في هذه الروايات، هي موضوعة العلاقة بين الرجل والمرأة عموماً، والجنس خصوصاً، وإشكالية السلوك المتبع وأيضاً معناه العام وأهميته والتعقيدات التي ترافق ممارسته تبعاً للطبيعة البشرية وحاجاتها العضوية الأساسية، لكنها – الروايات – من زاوية أخرى، غنية بالمعلومات العلمية والفنية والفلسفية وحتى السياسية. إنها حكايات مفتوحة على المعرفة البشرية وأشكالها وأجناسها على امتداد تعرفها على الواقع وتعقيداته وطرق فهمه ومواجهته، ومن جانب آخر، هي صورة للعالم الذي يعيش فيه هذا المثقف الحر وإنعكاس لسلوكه وتصرفاته وممارساته الحياتية وإستخداماته المختلفة والمتنوعة وأخلاقه التي تسيّر حياته العامة. كما ترينا روايات هذا الكاتب ذوق ورهافة ومتعة العراقي "الليبرالي" وطرق عيشه وتعامله مع الأشياء والحاجات المفضلة لديه مثل نوع الشراب والطعام والعطور والملابس والكتب أو نظرته العامة للناس والمجتمع ثم رغائبه الدفينة والمسكوت عنها أو المقموعة.

في روايات علي الشوك، نجد أنفسنا أمام شخصيات حقيقية وشخصيات مختلقة، لإكمال رغبات ومفاهيم الشخصيات الحقيقية، وهناك بعض التغييرات في البيئة والأمكنة والشخوص، رغم ان الموضوع يستمر من خلال هذه الأعمال وينمو كأغصان الشجرة وفروعها المتعددة الاتجاهات. ونلاحظ حضور الآخر بقوة في أعماله وتداخل الهُويّات والسلوك بين الأنا والآخر، بين الذات والذات الأخرى. كما لو انه يريد ان يخلق لنا نماذجَ لعالمَين مختلفَين ومتقاربَين في الوقت نفسه. وفي هذا الباب بالذات نراه يحاول تحدي الآخر بمعارفه ومفاهيمه وحتى سلوكه العام.

فمنذ روايته الأولى (الأوبرا والكلب) التي أعدّها من أنجح رواياته، يقدم لنا المؤلف معلومات جمّة عن علاقة الموسيقى الغربية بالموسيقى العربية ويقدم كشفاً موثقاً بأسماء وأماكن وأعمال موسيقية تظهر تلك الصلات التي سايرت تطور المعرفة والفنون بين هذَيْن العالمَين: (الشرق ـ الغرب) وبقية رواياته تحفل بمادة معرفية هائلة وطرافة لا يمكن تجاهلها، مع تكثيف رائع لتجارب بشرية علمية وإبداعية لا تقدر بثمن.

في هذا المقال سأحاول تناول (الثلاثية) وأخصّ (السراب الأحمر) والكتابة عنها فقط، وإذا ما سنحت الفرصة لاحقاً سأحاول تتبع البقية.

أنا لست بكاتب او ناقد طبعاً، ولكن كقاريء يحاول تتبع نمو شخصيات الثلاثية والأحداث وطريقة عرضها، من خلال أسلوب المؤلف ولغته شكلياً ودلالياً ومراقبة تطور شخصياته، بخاصة أن فيها شخصيات حقيقية لا تزال على قيد الحياة وتعيش بيننا، فضلا عن موضوعها العام وقد عاشه العراقيون بتفاصيله وحيثياته العامة.

تتكون الثلاثية من: (السراب الأحمر – مثلث متساوي الساقين – زنابق بين الألغام) وهي عبارة عن (1045 صفحة) مكتوبة ، ومن إصدارات (دار المدى) العراقية.

يمكن عدّ هذه الثلاثية سيرة ذاتية للمؤلف او السارد الأول فيها، مع ان كتب السيرة عموماً تعتمد على وثائق حقيقية ومشاهدات ولقاءات يتم فيها تقديم صاحب السيرة، وقد صرّح المؤلف الشوك بذلك على صفحة الغلاف الأول لرسم صورة أقرب للواقع عنه وعن الفترة الممتدة بين نهاية الأربعينات وحتى أيامنا هذه. وكما هو معلوم، فالرواية اليوم تعدّ من أهم المصادر التي يعتمد عليها علما الاجتماع والنفس، في تقصيهما لحياة المجتمعات المختلفة. لأنها تعطيك مشهداً شاملاً لحياة المجتمع من خلال أبطالها وحوادثها وأجوائها. وقد أغالي او أجازف فاعدّها أهم مصدر معرفي لسبر أغوار النفس البشرية وتعقيداتها غير المعلنة. وقد تنوعت الأوصاف فيما يتعلق بتسمية رواية السيرة، فهناك من يعرفها بحكاية الحياة او قصة الحياة أو تاريخ الحياة حسب تعدد التصورات والمناهج أو المدارس.

فالسيرة عموماً هي وصف حياة الشخصية وسيرورتها في المكان و الزمن الاجتماعيين، لكن السيرة الذاتية في الرواية تعتمد أيضاً ـ الى جانب الحقائق الخارجية المبثوثة فيها ـ على العوالم الداخلية للذات والخيال والتأويل والانحراف أحياناً عن الواقع والدخول في متاهات النفس وتأملاتها الخاصة، وبهذا تبتعد شكلياً في أكثر من مكان وموقع عن الحقيقة او الواقع كما يظن البعض، وربما تتغير في الرواية الأسماء، وهذا ما يحصل عموماً وحتى الجنس ونوعه فالذكر في الواقع يصبح أنثى في العمل الروائي، بناءً على أسباب مختلفة يراها الكاتب أكثر إنسجاماً مع الحدث المروي او التنوع المطلوب في الشخصيات وربما للتمويه ودفع الشبهة عن هذه الشخصية او تلك.

لقد أصبحت روايات السيرة في الغرب منذ (إعتراقات جان جاك روسو)، من المصادر المهمة لعلم الاجتماع وخاصة بعد تبلور الفردية او الشخصية الإنسانية، إبتداءً من المبدأ الديكارتي (الكوجيتو) : "أنا أفكر إذن أنا موجود". حيث لم يعد الإنسان معتمداً على حلول جاهزة ونهايات معروفة ووصايا لا يمكن مساءلتها. وانتهى دور المطلق أو المرجعيات الشمولية، لتتركز القضية في ذات الإنسان نفسه واختفى دور الكنيسة ورجل الدين بشكل تدريجي. فلقد لعب العقل الى جانب العواطف الدور الأكبر في هذا التحول وفي إنتاج الرواية التي تحكي عن المجتمع وعن الذات من موقع مختلف ومناقض للتفاسير القديمة لدور الإنسان ووجوده على هذه الأرض. وأصبحت الشخصية الروائية بعد هذا التحول كياناً خاصاً، وتمردت حتى على كاتبها وأخذت تقود في الكثير من الأحيان المؤلف لما تريده هي وطبيعة الأحداث في البناء الروائي.

اما عندنا في العالم العربي، فلم تتبلور معالم السيرة الذاتية كجنس أدبي، بسبب غياب شرطيها الأدبي والاجتماعي. لأننا كنّا مأخوذين بالمطلق والمتعالي والديني ومعتمدين في كل أمورنا على فكر شمولي، فلا ذات مستقلة عن الجماعة ولا فرد خارج السرب. وكانت فكرة مركزية الإنسان، معدومة لدينا لقرون طويلة سابقة ولا تزال آثار هذه المسألة تتبعنا حتى هذه اللحظة، كما أن مفهوم الآخر المختلف عنّا غير موجود أو معترف به أساساً.

كانت روايات (جلال خالد) لمحمود احمد السيّد و(الأيام) لطه حسين و(مذكرات نائب في الأرياف) لتوفيق الحكيم و(قصة نفسي) لزكي نجيب محمود، من بواكير الأدب الذاتي ومن الروايات التي تعنى بذات الراوي أو سيرة المؤلف، مع الأخذ في الاعتبار المستوى الفني في هذه الأعمال وتاريخية الصدور. فالسيرة الأدبية هي استرجاع نثري يقوم به شخص واقعي لوجوده الخاص عن طريق الحقائق والخيال واللغة ولعبة الضمائر. وتعدّ من أهم مصادر المعرفة والبحث في علم الاجتماع الحديث، لأنها تصف ما لا يمكن إدراكه من خلال الفحص والتقصي وتوجيه الأسئلة والاستفتاءات العلمية والأكاديمية البحتة، لقصورها في سبر غور الذات البشرية ومكنوناتها الغامضة والمكبوتة، كما أنها غير كافية لمعرفة ما تمور به الذات الإنسانية، من مشاعر وأحاسيس متناقضة ومعقدة وغير مفهومة عموما من جانب البحث المختبري والعلمي فقط.

فالسيرة تكشف عموماً ما لا يمكن كشفه بالطرق المتبعة والتقليدية ولا في المستطاع فهمها من خلال الأدوات المتوفرة في مراكز البحث المختلفة، ولهذا فالأدب هنا يقوم بخدمة لا تقدر بثمن لعلم الاجتماع وللمفكرين الاجتماعيين وعلماء النفس وسائر الباحثين والعلماء، ويسهم في رصد جانب غير معروف يتعلق بالحياة الاجتماعية والتاريخ البشري الخاص والعام.

إن إشكاليات أدب السيرة تكمن في صعوبة سرد كل ما مرَّ به صاحب السيرة والحوادث التي عاشها، بسبب علاقتها بأناس آخرين وهنا يبدو الحرج، في أن قول او كشف كامل الحقيقة قد يسيء الى بقية الأشخاص المذكورين وربما لعدم رغبتهم بذلك، وقد مرّ علي الشوك بتجربة أفقدته أعز الأصدقاء بسبب هذه الصراحة في كتابة السيرة. وهذا يجعل الكاتب يحجم عن كشف كامل التجربة الذاتية كما هي. ويعد هذا خسارة حقيقية للنص نفسه وللحقيقة وقدرة الكاتب بالذات. ثم ان هناك حتماً قصدية وراء كتابة السيرة، وبالتالي دلالة لها مغزاها، ويمكن تتبعها من خلال النص نفسه، وهنا أيضاً سيتردد الكاتب في فضح الكثير من أسراره التي لها صلة بغيره من الشخصيات المذكورة، فينهدم جانب آخر من أدب السيرة الصريحة.

كما تعكس كتابة صاحب السيرة طريقة تعامله مع ما مرّ به، خاصة بعد فوات مدة طويلة على الأحداث، ربما عقود أو سنين بعيدة عن المدة التي بدأ فيها بكتابة النص الأدبي، فيلجأ الى الذاكرة، وقد تكون الذاكرة ليست كما يرام فيختفي جزء آخر من تلك الأحداث أو يقدم بطريقة غير كاملة. كما تعكس روايات السيرة تفاعل الكاتب مع الحدث والموقف منه وتطرح عليه الإجابة عن سبب التعامل معه وتبريره كذلك. ولهذا يمكن ان تكون رواية السيرة الذاتية من أصعب الأعمال الأدبية، رغم ان كاتبها قد عاشها بحذافيرها وبأجوائها المتنوعة.

وقد لا نجد تطابقاً بين السارد والشخصية الرئيسية أو بين السارد والمؤلف، او العكس، وهذا يحتمه فن الرواية او مهارة الكاتب وربما خبرته في هذا الباب من الأدب. وعليّ ذكر تفصيلة مهمة في موضع أدب السيرة، هي ان المؤلف قد كتب ما كتب وفي ذهنه قاريء معين ومحدد. ولهذا

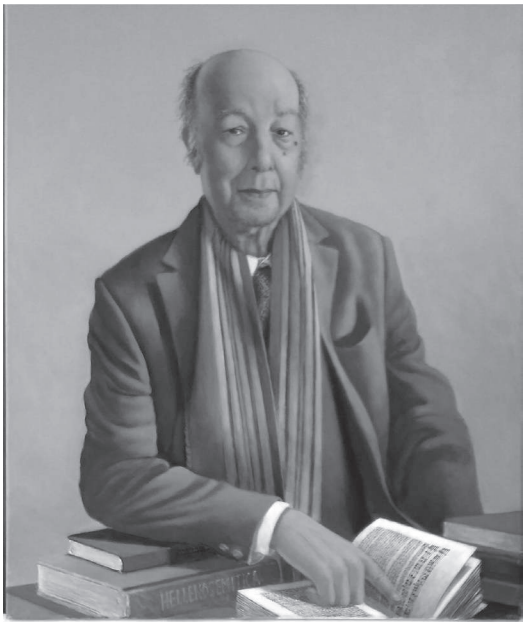

علي الشوك بريشة الكاتب

فالرواية موجهة له بالذات، ولكن هذا لا يمنع من أن يكون هناك قرّاء آخرون يمكن ان يتوجه إليهم الكاتب ويخاطبهم بشكل غير مباشر. فأدب السيرة هو بإختصار، شهادة المؤلف على مرحلة من مراحل حياته أو مدة مرّ بها في زمان ومكان معينين وله في هذه الشهادة مغزى وهدف وربما رؤية مختلفة عما ذكر في المذكرات الأخرى او الوثائق التي تناولت الموضوع نفسه، كما يمكن ان تكون السيرة شهادة عن أناس لم تسمح لهم الظروف بتقديم شهادتهم عن تلك الأحداث او أنهم غادرونا قبل أن تكون لهم فرصة الحديث عما جرى، لأسباب قاهرة وخارجة عن إرادتهم. فيأتي من عاش تلك الأحداث ليرمم ما كان ناقصاً او مفقوداً منها وليعيد الاعتبار لمثل هذه الشخصيات أو ليكشف ـ ربما ـ زيفها أيضاً.

إن ادب السيرة في العموم هو توسط بين الذات والموضوع، بين الفاعل والبنية ، بين ما هو عام والتفاصيل الدقيقة ، بين السلوك الفردي والسلوك الجماعي، بين الفرد والمجموع . وقد تطور هذا الفن بعد ان غادر المفاهيم البنيوية التي تؤكد على البنية وتهمل الذات، في سبعينات القرن الماضي وبروز دوره الفاعل، الذي يحتفظ بإستقلالية معينة وتأويلية كاشفة، تتوسط بين الذات والبنية.

من عدد اللقاءات التي جمعتني لحسن الحظ بالأستاذ الشوك، توصلت إلى ان "أبا زينب" من الأشخاص الذين يبحثون عن المرأة القدرية "لافام فاتال"، ذات الشخصية المؤثرة والمهيمنة كذلك، وقد ردد أمامي إعجابه بـ (ماتيلدا) إحدى بطلات ستاندال في روايته الشهيرة (الأحمر والأسود)، كما كرر كذلك ذكر

(مدام بوفاري) لفلوبير و(آنّا كارنينا) لتولستوي. ولهذا نجده في الثلاثية يبحث عن هذه الشخصية ويحاول تجسيدها في بعض بطلات رواياته الأخرى أيضاً. وكما تأثر العديد من الكتاب العرب برواية أناتول فرانس الشهيرة (تاييس) من أمثال توفيق الحكيم في (الرباط المقدس) ويوسف إدريس في (أكان لابد لي يا ليلي أن تضيئي النور؟) وغيرهم. يظهر لي تأثر الشوك في بطلة ستاندال في رواية (الأحمر والأسود) المذكورة أعلاه.

كانت المرأة المستحيلة، همّ علي الشوك وظلت هاجسه الكبير والسرّ الذي إستعصى عليه وكابد منه، من هنا كما يتراءى لي، إنعطافه نحو كتابة الرواية والدخول في عالمها المغري والمحيّر. لكن الشوك أكد لي أكثر من مرّة كونه يحسّ انه كاتب رواية وقصصي بالسليقة، إلا انه لم يقدم على كتابة الرواية إلا مؤخراً، والـ "مؤخراً" هذه تمتد من عام 1994 حتى يوم الناس هذا.

في ثلاثية الشوك، والتي تؤرخ لمرحلة هامة من تاريخ العراق المعاصر، تمتد من الأربعينات وحتى نهاية القرن العشرين. سنجد الكثير من الوجوه المتناقضة والتبدلات النوعية والتغيّرات المتناقضة أحياناً في تطور الأحداث والشخصيات الرئيسة للرواية، وهي بالمناسبة شخصيات حقيقية

ولا يزال قسم منها يعيش بيننا حتى هذه الساعة، وهذا أمر طبيعي وإيجابي حتماً ويعكس صدق الراوي وسيرة حياته المختلفة من طور إلى آخر.

تبدأ الثلاثية في الجزء الأول: (السراب الأحمر) بأزمة البطل الرئيس للرواية (هشام المقدادي) وهو هنا الراوي أو المؤلف الحقيقي للعمل، يبدأ الحدث في عقد السبعينات، عندما يتمكن الحزب الحاكم (حزب البعث) في العراق من سيطرته التامة على الوضع ويبدأ في محاصرة الشخصيات المهمة في البلد، لإجبارها على الانتماء الى تنظيماته المختلفة، فيحاصرها بطرقه المعروفة بالتهديد والوعيد او الإغراءات المادية والوظيفية، إذ يفاتح عميد الكلية التي يعمل فيها الدكتور هشام المقدادي أستاذاً، في ضرورة الإنتماء لتنظيم المعلمين في الحزب الحاكم، وبطريقة تدل على حراجة موقف العميد كمسؤول أول في الكلية، مع حرصه على حماية هشام او تحذيره من مغبة الرفض.

فتنمو الرواية وتتدرج أحداثها لتصل إلى الهرب المؤقت من الجحيم الحقيقي والواقعي إلى عالم خالٍ من تعقيدات الحياة في المدينة، إذ يقترح (كمال حمدان)، احد أعمدة الثلاثية المهمين، بناء مستعمرة او موقع ترفيهي في (كوردرة)، المنطقة التي يعمل بها كمقاول، وتقع في مدينة بعقوبة بعيداً عن العاصمة بغداد المُتْعِبَة والمتْعَبَة، ويتلقف الجميع الفكرة بإرتياح، خاصةً وان البطل الرئيس للرواية (هشام المقدادي) قد قرر الرحيل عن العراق تخلصاً مما لا يحمد عقباه في الوضع العراقي الملتبس عموماً وتحت سلطة لا تؤمن بالرأي الآخر ولا بوجود فكرة مختلفة حتى عندما تفكر بها هي بالذات.

تتحدث رواية (السراب الأحمر) عن المشاعية في كوردرة ، التي أراد لها هشام المقدادي وصاحبه الأثير محمود رمزي ان تكون على شكل مستعمرة للعراة، لكن البقية من الأصحاب لم

يدركوا هذا الجانب من الفكرة ولا حتى صاحب الفكرة الأول كمال حمدان نفسه، خاصة وان هناك نساء وزوجات جئن فقط للترويح عن النفس وقضاء بعض الوقت بعيداً عن ضوضاء بغداد ومشاكلها التي لا تنتهي. فيجري سرد لذكريات الأبطال الرئيسين والمواقف الحرجة والطريفة، التي مرت بهم، وهي محاولة ذكية من الكاتب لنسيان الواقع الجهم والقاسي الذي يعيش فيه أبطال الرواية. إضافة إلى سرد ما هو غير معلن في بعض الذكريات مثل ما ذكره (رمزي محمود) الدكتور المنفتح والليبرالي الأصيل في حياته العامة والخاصة، من تجارب مرّ بها أثناء عمله كطبيب مختص، كما تظهره الرواية. لكن هذا الجزء يسرد كذلك إلى جانب الجنة الصغيرة التي خلقها الأصدقاء لأنفسهم بعيداً عن هموم واقع السبعينات، سنوات جمهورية العراق الأولى إبتداء من يوم 14 تموز عام 1958 وإسهام أبطال الرواية في دعمها والعمل من اجل تطوير منجزاتها وبناء قاعدة متينة للمضي قدماً، حيث كان هشام المقدادي واحداً من الرعيل الأول الذي بنيت عليه التجربة الثقافية لتلك الأيام والتي إنتهت بمجزرة إنقلاب 8 شباط عام 1963 التي فتحت باب الجحيم على العراقيين وأودت بحياة الآلاف منهم، ودمرت حلم الحرية والتقدم والاستقلال، الذي جاءت به ثورة 14 تموز عام 1958. فيصف البطل هشام المقدادي وبقية الشخصيات ما مرّ به العراق وما مرّوا به هم انفسهم، خلال تلك الحقبة الدموية من تاريع العراق المعاصر. ويسجل هذا الجزء من الثلاثية سجون الانقلابيين وممارساتهم الوحشية وطريقتهم في القضاء على خصومهم السياسيين، التي تشير الى المنحى الفاشي في سلوكياتهم الهستيرية التي تكشف كامل ثقافتهم وسلوكهم الشاذ وأفعالهم الإجرامية.

كنت أتمنى ان يتوغل الكاتب في التفاصيل والوقائع أكثر ويكشف عما يعرفه بدقة أكبر. لأن تلك الفترة الشاذة التي مرّ بها العراق كانت هي المؤشر الحقيقي الذي أوصلنا الى ما نحن عليه الآن بخاصة والكاتب كان من مجموعة المثقفين الذي حشروا في معتقلاتها، وفيها كما يُرْوى عنها قد جرت قصص وأحداث وكشفت أيضاً عن درجة تماسك المثقف وضعفه معاً.

وفي الرواية نجد كذلك البطلة (مريم) كشخصية محورية وخارجة عن التقاليد والعادات السائدة وتبدو وكأنها من عالم مختلف. انها مثال الفتاة الثورية والمناضلة التي تحدت وواجهت ثقل التقاليد والأعراف وحتى ذكورية الرجل وأصبحت نداً له في موقفها مما يدور حولها. هل كان العراقيون في تلك الفترة بمثل هذه الصفات؟. الجواب يحمل نوعين من الجواب، ولكنهما يؤكدان إحتمال تحقق مثل هذه الصفات لو كان الوضع قد إستمر على حاله قبل الانقلاب الدموي في 8 شباط عام 1963. الذي نسف كل إمكانية التحضر والمدنية وأرسى قواعد العودة إلى التوحش والبربرية.

كان العراق في جزء من زمن الرواية (1958 – 1963) بالذات، يتطلع الى أن يخطو نحو المدنية والحداثة بخطوات سريعة فالأفكار المعاصرة والجذرية كانت منتشرة بين متعلميه بصورة عميقة، وحوافز النقلة جاهزة،

وهذا ما كانت الرواية في حاجة الى ذكره بتفاصيل، وكان يستطيع الراوي والبطل هشام المقدادي سردها بسهولة، لأنه احد المساهمين في ترسيخها وتعميق محتواها الإنساني. فقد كان نموذجاً للشخصية الإيجابية فيما يتعلق في خدمة الوطن، حيث فضل العودة الى العراق، بعد نجاح الثورة لغرض المساهمة فيها ودعمها، بدلا من إكمال الدراسة والحصول على الدكتوراه التي جهّز نفسه لها قبل الثورة. ثم نراه ينغمر في يوميات العمل السياسي والثقافي المزدحم آنذاك مما ينسيه الكثير من مصالحه وهمومه الشخصية التي كانت في إنتظار التحقيق والإنجاز. كما تفتقر الرواية كذلك الى وصف البيئة والمحيط، حيث ركز الكاتب على الجانب النفسي والعاطفي والحواري أو الحكائي المرتبط بالأشخاص والمجرد من الجو الذي تجري فيه الحوادث، إلا ما ندر، مثل وصفه للجلسات الخاصة والمائدة والطعام والشراب وبعض الإكسسوارات الموجودة داخل المكان. وظلت حتى هذه التفصيلات أقرب الى التقريرية من الوصف الفني المطلوب فعلاً في مثل هذه الحالة.

كان هشام في محاولاته البحث عن المرأة المستحيلة، يجد نفسه قد إقترب منها كما يعتقد، لكنه يفتقد الفرصة المواتية للوصول الى الهدف، في الكثير من الفرص، وظلّت هذه النزعة تراوده وتعذبه وتزيد من إصراره. لكنه في أوان مستعمرة (كوردره) - ويا للمصادفة - وهو في احلك الظروف صعوبة من الناحية العاطفية، تنبثق أمامه فتاة أحلامه (داليا) الساحرة، التي تهزه هزّاً وتفقده توازنه، مما يعقد مجمل ظروفه المعقدة أصلا، لكنه على أية حال تعقيد جميل، يضفي على حياته وحياة أصحابه متعة، ويخفف من ثقل الظرف الذي يمرون به. كانت (داليا) هدية مريم الثمينة لهشام، بعد ان عجزت عن تلبية ما تتطلبه مشاعره نحوها، بسبب إرتباطها بصديقه الحميم سعدي محمود، فتتغير ملامحه ويحاول ان يزيح عن كاهله أثقال المواقف الصعبة والمفارقات غير المتوقعة. وبعد ان بدأت الرواية بحدث مرعب، نراها تنتهي بحدث يشيع الأمل في البطل ويمده بأفقٍ مفتوح على إحتمالات سعيدة.

عند تتبع مسار واحداث رواية (السراب الأحمر)، نجد ان المؤلف (الراوي) قد وضع الكثير من الملابسات والأحداث تحت المجهر وحاكمها بروح إنسانية وتفكير رصين وعقلاني. وكشف عن عيوب ونواقص تلك الملابسات وثغراتها إضافة لحسناتها طبعاً. وهو بهذا يقدم ويكشف بعض خفايا حياة بعض أبطال الرواية الحقيقيين، وهو من عاشرهم وعاصرهم وله صلة متينة ببعضهم. ولم يكتف بذلك بل يفتح ملف حياته هو بالذات ويعترف لنا بما قام به ومارسه أيضاً. فهو: "لم يخلق للمغامرة، رغم حبه لها نظرياً، وهو برجوازي الهوى والسلوك حتى النخاع، ثم ان طبقته، وبيئته، والوسط الذي يتحرك فيه، كل ذلك يتعارض مع النزعة الإنضباطية الإسبرطية التي يقتضيها العمل الحزبي السري، لكن قناعته الفكرية كانت أقوى من ذلك" فقد كان وسطه يتكون من مثقفين جديّين ويطمحون الى عالم الحرية والحياة الهادئة، عالم الإبداع والفنون والمثل الصعبة، لكن هذا العالم لم يخلو من ذئاب بكل معنى الكلمة، مثل صديقهم (طارق

الصراف) وهو إسم غير حقيقي للشخص المعني، الذي يتبوأ مركزاً مهماً في تنظيم المثقفين الشيوعيين ومارس مهام خطيرة في المجال الثقافي والفكري، لكنه كان عديم الضمير في علاقاته الخاصة ويشيعها بكل فخر على من هم حوله بدون خجل أو رادع، مع انها ذات صلة بالأخلاق والقيم والمعاني التي يدَّعي الدفاع عنها، وهذا ما نراه أيضاً عند مسؤول بعثي كبير أيضاً اسمه نزار صائب في الرواية، أصبح وزيراً في حكومات البعث وشاعراً مبرزاً من شعرائهم. لكنه لا يتوانى من ممارسة أحط أنواع السلوك مع من يلتجيء إليه في طلب المساعدة من النساء. ويذهب الراوي ابعد من ذلك للكشف عن السلوك المثلي وتعرض بعض أبطاله له في أيام الطفولة، كما يكشف عن علاقة إحدى شخصيات الرواية النسوية المثلية ببعض النساء، ومن هذه الزاوية يتم مناقشة المجتمع الذكوري، وتعقيدات الحياة التي تواجه المرأة في مجتمعاتنا التقليدية المحافظة. فنجد الراوي يرفع الغطاء عن شخصيات محترمة ظاهرياً لكنها مبتذلة في الخفاء وتمارس أرذل التسلكات، وهذا وضع ملتبس وغير سوي يحتاج الى معالجة، كان يمكن ان يكشف فيه الكاتب الكثير من خفايا هذا العالم الملتبس.

وفي السراب الأحمر تجري مقارنة بين حكم البعث والنازية في ألمانيا، في محاكمة للقيم والسلوك الذي جعل النظامين يدفع الأطفال للتجسس على آبائهم وأمهاتهم وأخوتهم والجيران.

لقد رصدت الرواية حوادث العراق المرعبة وما مرّ به الناس خلال فترة 8 شباط عام 1963 وحتى عام 1978. من التقلبات والهزّات والمواجع التي لا حدّ لوصفها ورعبها الخانق. حيث تروي لنا هذه الرواية المستوى الذي وصلت إليه قيادات البعث في ممارسة التعذيب والروح الهستيرية التي تلبستهم وهم يمارسون بتلذذ سلوك الوحوش بحق مخالفيهم في الرأي والفكر والتنظيم. إذ تشوى الأجساد وتقطع الأطراف وتخلع العيون وتكسر العظام وكأنهم في مجزرة. كما تم دفن العديد من مناضلي العراق النجباء أحياء بدم بارد وروح تشفي لا مثيل لها. وفي النهاية يطرح المؤلف ما وصل إليه المجتمع من تدنٍ للقيم والأعراف وتشويه تام وعام تقريباً لقطاع واسع من المجتمع العراقي. ففي الرواية أسئلة كثيرة والجواب عليها يحتاج الى روايات.

بقى عليّ ان أشير الى لغة الرواية التي جاءت سهلة وواقعية وبعيدة عن الزخرف والمبالغة التعبيرية، ذلك لأن أدب السيرة يحتاج هذا الشكل من اللغة في نقل الحوار كما هو، دون إضافات لا تعكس الواقع ولا طريقة كلام الشخصيات الحقيقية فيها. كما كنت أتمنى من الروائي لو أسهب في وصف الشخصيات وتحديد ملامحها وشكلها الخارجي وربما أيضاً بعض عاداتها المعروفة، مثل ما أسهب في وصف الدراسة في الجامعات الأمريكية. لأن هذا يعمق حقيقة الحدث وأبطاله المهمين.

قد يسمح لي هذا الجزء من الرواية الحديث عن شخصية المثقف، الذي تمثل في شخصيات أبطاله. فالكثير من التطلعات التي تنتظر التنفيذ قد تحطمت وبالتالي نجد الحوادث قد هزمته وجعلته ضحية سهلة، كما سببت له عقدة قد لا يتخطاها بسهولة وأجبر العديد من ألمع مثقفي العراق الى الإعلان عن تخلّيهم عن

أفكارهم التي كانوا في وقت ما مستعدين للموت دونها. هذه القضية، كانت في حاجة لمعالجة عميقة ومساءلة حقيقية وبنفس إنساني عال لا تهيمن عليه مثالية غير مجدية او مجانية مجحفة ولا منصفة او مقدرة للظرف الصعب الذي وجد فيه المثقف نفسه، دون ان يكون مستعداً له، فكان من الممكن التوغل في هذه التفصيلة المحيّرة والغوص في تلافيفها المعقدة والكشف عن ملابساتها، دون أن نكون قضاة او حكاماً ولا مقررين سلبيين في فهمها.

فخروج المناضل من سجنه منكسراً، مع تخليه عن قضيته، مسألة تحتاج بحثا معمقا بروية وتأن، ولن نجد أفضل من الذين مرّوا بها في عكسها فنياً وتوضيحها ومعرفة جانبها الخفي والمسكوت عنه داخل النفس البشرية. فكانت الفرصة مواتية للكاتب في الكشف عنها بقدر اكبر مما ظهر لنا في الرواية.

وكانت هناك مواقف بطولية جاء عليها الجزء الأول من الثلاثية وهي أيضاً تحتاج الى المزيد من الكشف والتجسيد وحتى الفحص الميكروسكوبي إن صح التعبير. لما لها من معانٍ، تجعل المنتصرين خاسرين وغير قادرينً على تحطيم النفس البشرية مهما كانت وحشيتهم وعنفهم وضراوة أساليبهم.

الأشياءُ شعرًا، الشعرُ أشياءً
(القسم الثاني)

ياسين النصير

قدّم مع الناقد فاضل ثامر كتابه الأول "قصص عراقية معاصرة" عام 1971، وتدرج في وعيه النقدي في كتابه الثاني "القاص والواقع "عام 1975، ثم واصل رحلته النقدية، فكانت باكورة تحوله النقدي في كتاب "الرواية المكان" عام 1980، بجزأين، وهو أول كتاب عربي عن دور المكان في النص الأدبي، ليعمقه في كتاب مفصلي آخر هو "إشكالية المكان في النص الأدبي" عام 1986.

في النقد المسرحي أنتج خمسة كتب، ويعدّ كتابه "وجها لوجه" عام 1976 أول كتاب في النقد التطبيقي عن العروض المسرحية، وكتب عام 1993 عن "الاستهلال" فلم يسبقه في هذا الميدان، ثم حاول تعميق الرؤية النقدية للمكان في النصوص الأدبية في كتبه "جمالية المكان في شعر السياب" 1996، "شعرية الماء"2012 ، "حجر الحروب" 2010، و"ما تخفيه القراءة" 2008.

أنتج عام 2012 كتابه "غير المألوف في اليومي والمألوف" وهو بحث سوسيولوجي في مصادر شعرية القصيدة اليومية، وفي هذا العام 2016 ظهر كتابه النقدي النظري الجديد "مدخل إلى النقد المكاني" ليعمق به تصوره عن أهمية المكان فلسفيا ونقديا في النصوص الإبداعية وفي النظرية النقدية.

يرتحل ما بين العراق مصدر إلهامه واهتمامه وهولندا بلد إقامته، وخلال هذه الرحلة أسس منبرين للثقافة العراقية في المهجر: الأول "مؤسسة ثقافة 11" في بلجيكا عام 1998 بالاشتراك مع الشهيد كامل شياع وهيلجا دانييللوس وحازم كمال الدين، وكان بيته مقرا لهذا الصالون فاستضاف فيه عددا كبيرا من المثقفين العراقيين والعرب والهولنديين، والثاني "مؤسسة أكد" في هولندا عام 2000.

المسافة المابينية واحدة من الثيمات المكانية التي تعيدنا إلى فهم الأشياء فيما إذا كانت صائتة أم هامسة، خارجيّة أم داخليّة، هنا أم هناك، مباشرة أم غير مباشرة، واقعية أم خيالية، لها ذات أم بلا ذات، وعندما نعي أهمية المسافة يمكن عندئذ بناء صور مختلفة معها للحوار، ولذلك لا نجد شيئًا يدخل الشعر دون تعيين مسافته.

وددت احتفاء الضياء
ووَدَدْتُ تقصّي الحقائقَ
في جوف محّارة
وددتُ النزولَ إلى العمقِ
كي أشعلَ النارَ تحت المياه.

المحارة وأعماق المَياه، وذات باحثة عن التحام جدلي في مابينية "العمق" والفعل "احتفاء"، "النزول"، "أشعل"، كل تشير إلى "جوف" أي السكن في جوهر الافعال بدائية التكوين عندئذ ستصير كيمياء الصورة ضياء ونارًا، لابد إذًا من قصديَّة ما للتعامل مع الأشياء في الشِّعر، وبدون هذه القصديَّة لا نستطع اكتشاف مخزونها الشعري. هذه الكائنات السحرية لها كينونات مجردة من أي غرض غير إنَّ تكون مقصودة بالعناية، غرضها هو وجودها، ودائمًا تكون موظفة

للحدس الشعري، عندئذ تنهض من سباتها الوجودي لتدخل في نسق حياتنا لتمارس دورا مغايرا لطبيعتها، اتحاد الماء بالنار، ليصار إلى ضياء، والفضاء "جوف محارة" والرغبة الكونية تموزية؛ حيث النزول إلى العمق، لتصير القصيدة عشتارا الباحثة عن الربيع، الرؤية الموضوعية تجعل الأشياء لّغة تمتلك صفات النصّية الكونية، وبالتالي تخضع للتصور النَّقدي كونها جزءا من موضوع كوني، له تأويل فينومينولوجي لمقاصده ولغته واشتغاله، نحن لا نجد للأشياء موضوعا قبل دخولها النصّ، موضوعها الكوني يتشكل في النصّ، أما خارج النص فيهب كيانات غامضة حتى لو استعملناها يوميًا كفرش الأسنان وأغطية الأسرّة والأحذية، فالنصيّة تذوّب لّغة الأشياء القديمة وتدمجها بالمعرفة، فلم تعدّ الأشياء نفسها عند عبورها النهر مرة ثانية، لأنها ستكتسب فضاء جديدا، ولا يمكن ان نستخدم لغّة الأشياء نفسها مع كل مراحل انتقالاتها من فضاء الواقع إلى صيروتها كلمة، هكذا يبقى هاشم شفيق ملتصقا طوال أربعين عاما بأشياء محيطه وتجربته وحياته، حيث يبحث فيها ويقلبها ويكتب عنها عديد القصائد ويضعها في مناخات مختلفة وفي كل مرة يحاول ان يجد عمقا لها عندما تدخل في سياق ثقافي جديد، وإلا ما معنى أن تبقى أشياء البيئة العراقية ملتصقة به وهو ينتقل بين مدن العالم وبيئاتها؟ ليصنع منها كونه الشعري فوجد فيها بحر لغته البسيطة الغنية ومدار رؤية فلسفية تعاين الأشياء قبل تأثراتها. ستكون الأشياء صورة، معنى، مفهوما، عندما توضع في طاجن عجّان ماهر، قادرة على الاستجابة للأفكار الكبيرة. فالأشياء لا تُدرك تأويلًا، إلّا بعد ان تدخل في علاقة ما، هكذا ستكون يدُّ العجّان، وهي تعيد تكوير الطين ثانية وثالثة لتمرره في فضاءات متعددة، هي يدٌ النحات الأغريقي "فيدياس" ففي كل مرة يعيد تكوير الطين في يده يصاحبه الفشل لكن التجربة تنتج تقدما في الهيمنة على الطين.

أنفخُ البرقَ كالطين، كي أصنعَ الزَّقَ منه، فهذي البوارقُ مَن ذهبٍ وزجاج تسيلُ على الراحتين.... أيّةُ باديةٍ تتَّمدَّدُ في الذكرات..

"الراحتَان، اليد، البادية"، البادية، الزقّ، ولك أن تبني من الفعلين "أنفخُ وأصنعُ" ما تشاء من مكورات اليدين، هذه العلاقة فضاءات منفتحة للتجربة المستمرة، حين يكون "النفخ" في كور الزمن الدائري طريقة لـ "سيلان" يقظة الأشياء التي "تتمدد" في موقد نار القصيدة، وإلى ان تتوحد حركة اليد مع ضياء الطين لتنتج معا كينونة التمثال تكون الكلمة، التمثال، الأداة في بنيَّة النصّ، والشاعر يأتي بالأداة من الواقع ليدخلها مصهره اللغوي بعد أن يعيد تشكيلها أو يقلّبها على محمصة الفكر، ويدخلها نار الموقد الاجتماعي أو الأسطوري ليخرج لنا الخبز الذي بقي منتظرا على مائدة النَّقاد طوال التاريخ، هكذا تفعل الهرمينوطيقا بالنص وبالأشياء، تعجنهما معًا لتستكشف ما هو مستعص على المطاوعة. "أيّةُ باديةٍ تتمدَّدُ في الذكرات"، فيد العجان "لها أحلامها، ولها افتراضاتها. إذ تساعد على معرفة المادة في حميميتها. وتساعد بالتالي على الحلُم بها" كما أن "لافتراضات

(الهندسة الطبيعية) الأشياء أهمية لصياغة أفكار نفسية"(11).

فالنصوص الحديثة عمل فلسفي مختبري؛ تكون الذات مركزا مشعا فيها، والشاعر ذاتا لّغوية، قلمّا انتبه المؤلف ليده وهي تسجل هذا التكوين المتغاير، المختلف، والمختبئ بين شقوق الحدث والشخصيات واللّغة، هنا نجد انَّ الأشياء تصبح شخصيات، وتصبح لغةً وكلمات وصوراً وتكويناتٍ، وقد نفشل في تتبع خًطوات تحولّها عندمًا تضغط علينا الايديولوجيا أو المرجعيات التراثية والماضوية، فتغيّر مسار الرؤية وتدخلنا كعصي معوِّقة لانسيابيَّة رؤيتها. لذلك ليست الأشياء مجرد كيانات تحمل زمنها الماضي فقط، إنَّما هي كيانات مهيئة لأن تكوّن أنثوية النص، مهيئة تماما لاستقبال مني التجربة. فتحفيات الماضي، أو القطع الثمينة، أو المقتنيات الخاصة، تتجرد من ذاتيَّة مالكها، عندما تعرض للبيع، هي بانتظار ذاتيَّة المشتري لتنسجم وذاتيتُّها المتألقة الحضور، لتشكّل مع ذاتية مقتنيها نصا جديدا، بحيث إذا عرضت في مزاد آخر، لا يقال عنها: انها كانت من ملكية فلان، بقدر ما يقال انها تمتلك خاصية لّغوية عن زمن حركتها من مالك لآخر، وها هي تنفتح على زمن وتجربة جديدة دون أن تقف عندها، فكل الأشياء متاحة للشعراء، ولكن شعرا قلة يجيدون الدخول إلى لغاتها الفضائية المختبئة وراء الخضرة والثمر، وكلّما تداولتها الأيدي زاد حضورها، لحاجتها الدائمّة لممارسات اللّغة، فالمزاد ليس بيعا وشراءً للسلعة، إنَّما هو خبرة لّغوية براجماتية تداولية للمعنى، وحقولا تأويلية لاكتشاف باطنية الأشياء. وهبات يتداولها الناس لتصبح جزءا من وجاهة مالكيها.

عرجتُ إلى المدن السفلى
جاورت الليل وكان الغصن سلاحي
كنت أهدّ بروجًا منه،
أهدّ الظلماء
وأفني كل طريق مشمول بالتّيه..
كنتُ أعدّ البحرَ
أجرُ القفر... إلى صخبِ الأمطارِ،
....
إني جاورت الليل
وكان الفجرُ كساءً لي،

تنبثق شعرية الأشياء من العوالم السفلى، من تلك البيئة المخمرة بالعتاقة المختبرة للشيء، والعتاقة كلّغة، جزء من رأسمالية الشيء، حيث تشكّل أرضية تداولية للنصّ؛ في اللّغة وفي الإستعمال كما يصور هايدغر في مفهوم "الأرضية"، وعندما لا يجيد الشّاعر التعامل مع لّغة الأشياء الأرضية، لن تكتسب الشّعريَّة أية قيمة مضافة، الأرضية هي الشّعريَّة، هي المركز والبؤرة، وفيها توجد البذور والنار، كل شيء يخرج من هذه الأرضية شعر، "ما يُنبت يَحرق وما يَحرق يُنبت... أنني بحاجة إلى زهَور ترعرعت منَ قلب النار" هذا ما ينشده نوفاليس، حيث النار موطن الإنبات، وحيث البذرة نتاج لأرضية النار، وكل ذلك لا يتم على سطح الأشياء، يتم في اللّيل والعالم السفلي، وهناك حيث تجد الروح حاتها ثانيَّة في القصائد.هي الطريقة التي تنهضها حاسة اللّغة بكينونة قيم الأشياء القديمة. فالأشياء والشعرية الفضائيَّة حقلان جديدان على النّقد، حين يصبح تداولهما طريقة لانتقال المعرفة وتجديدها، وما سوف أقوله ومنذ الآن ليس واضحًا

كليًا، فالالتباس قائم في معنى الشَّعريَّة الفضائيَّة، وفي دراسة شاعر رومانسي واقعي كهاشم شفيق ممتلئ خيالاً ويقول بلغة يومية عن الأشياء: أمثلة وتمثلًا، ستكون هذه مقدمة، لحضور الشيء كقوة أرضيَّة حاملة ألغازها، وسيرة ذاتيَّة مبطنّة بلغة الآخر. فالضياء الذي يشع من الأشياء، ليس إلّا وسيطًا بين لُغة الأشياء والعالم الذي توجد فيه، هكذا يُصيّر هايدغر كيان اللُّغة كما لو كان "بيت الوجود". فاللُّغة "نطفة مخلَّقة وغير مخلَّقة"(12) .

يتحدث عن تجربة هاشم شفيق شاعران: سعدي يوسف، وفاضل العزاوي، وبالرغم من اختلاف رؤيتهما الشَّعريَّة لقصيدة هاشم، يتفق الاثنان على ميزات شعريتَّه، الشَّاعر سعدي يوسف يعده شاعرا جذرا يَنزع للتوّ ترابه، بينما يعده فاضل العزاوي شاعرا مكتملًا يجب علينا قراءته كله وليس قراءة قصيدة واحدة منه. سعدي يقدم ديوانا واحدا، بينما يتحدث فاضل نقديًّا عن إثني عشر ديوانًا، لذا تكون مقدمة فاضل العزاوي أكثر شموليَّة، وأدقّ تعبيرا عن شاعر لا يتلمس طريقة مألوفة بين الشعراء، إنَّما يؤسس لنمط شعري خاص. بينما تكون مقدمة سعدي تعبيرا شعريا عن متلق ناقد.

نقرأ في التجربة عشرات القصائد، بعنوانات مختلفة، وبمدن مختلفة؛ بعضها مؤرخ والكثير منها يصلح أن يحمل كل التواريخ، وأن يكتب في كلّ المدن، هنا في العراق أو هناك في مدن العالم، فالشَّاعر لم يفقد يدُّ العجّان التي تُخمِّر عجينة ليل الذات، ليخبزه في صباح المدن.

وحين تركتُ الحدودَ
وخلفتُ خلفي العراقَ
..
إستطعتُ إغتراف الضياء

ماذا تراني ان أفعل أمام تجربّة ممتلئة بألف قصيدة وعشرين ديوانا مطبوعا، وما يزال في القوس أكثر من منزع للـ "اغتراف"، فالضوء الذي يشع في البلدان ليس ضوءا واحدا، ولا بقافة واحدة، والأشياء فيها ليست اشياء واحدة، كل شيء هنا مجزأ، مرقمن، معطى كما لو كان فلسفة أو إعلانا، ولذلك يبقى الشاعر الجائع للحقيقة منبهرا بالضوء، وعليه كي لا يحترق ان يفهم أن هذا الضوء مربكن وتشيؤي، واستهلاكي ويحيل الإنسان إلى شره وغير منتج، فيدُ العجّان ذاكرة شبكية ناعمّة، لم تدعْ أي شيء يمر دون لمس أو حدس، الشَّاعر الحقّ لا يختصر التجربة بقصيدة أو اثنتين، إنَّما يرى في كل جزئية حياتية تجربة جديدة، وعليه أن يصاحب شعريته موقفا فلسفيا يكون له بمثابة القوة المعرفية كي لا ينزلق في ضياء الرأسمالية التي تزين الأشياء لصالح هيمنتها. هذا هو ميدان التعامل مع الأشياء، حقيقة نحن لا نعرف كم من السنين قضى مفكرا بخلق قصائده؟ لا نعرف؛ ولكن ما أن خلقها حتى أوكل أمرها لفضاءات الهجرة ليكملها هناك، كل تأسيسات قصائده محلية، لكّنها ما أن دخلت فضاء حقائب المسافر حتى انتشرت وتغذت وتعمقت وجلبت فضاءات جديدة، وسكنت فيها مستعيدة فضاءات الطفولة واللغة البكر، ولكن دون هوية واضحة، نحن أمام شاعر يعيد إكتمال مخلوقاته الشَّعريَّة كلَّما مرّ وطرٌ من الزمن عليها، التجربة

المنفتحة تستدعي دائمًا وبدون توقف خيّال المادة، المصحوب بموقف فكري، فخيّال الأشياء، وطاقتها الدفينة التي لا تستخرجها الدعوات ولا الصلوات ولا الممارسة، قد تكون قوة مدمرة، وعلى الشاعر أن يراقبها، بل ألاّ ندع الأشياء تنطلق في فضاء اللّغة لتجد هي ذاتها قبل ان نوظّفها لأغراضنا الإيديولوجية الخارجيَّة. لن تكون رحلتنا سهلة مع شعرية ناعمة ورومانسية وغير آنيّة، صعبة، لأنَّها رحلة بين الموانئ نفسها، وكأن السفينَّة لا تغادر شواطئها المحلية، في حين انَّ أشرعتها تجلب رياح العالم كله. ويقول سعدي يوسف عنه :

قصائده الواثقة بالأشياء، العاشقة لها.. قصائده الأليفة التي لم تجرّح بعد.. ماذا نستطيع أن نقدم لهاشم شفيق؟ نحن لم نمنحه شيئًا، الأمر كله. وحين يتصاعد حبه الأشياء، إلى حدٍّ أن يعضّ عليها بلثة دامية، يكون قد بلغ التخوم الأولى.

ما يزال تصورنا النقدي عن الشعرية يبتدئ؛ إما بالحديث عن الشاعر أو الحديث عن القصيدة، في حين يكتسب الحديث عن الاثنين الإحالة على المجتمع، وهو ما لم يحدث في المعالجات النقدية، إنَّ ابتعاد النَّقد عن حقل مهم يجمع بين الميادين كلها ويؤسس لها، يحدث خللاً ليس في الدراسات الشعرية، إنما في التصور الثقافي كّله، فالمجتمع هو الأرضية التي تولّد الشّعريَّة ومنها تنطلق القصيدة، وفيها يتمثل الشاعر تاريخ وتطورات مجتمعه. إن ما يكشف الحقل الاجتماعي الممغنط بالمجهولية من مساحات للشعرية لا تقتصر على اللّغة والصور وقدرة الشاعر على إلتقاط المفارق والشاذ والنادر والغريب فيه فقط، إنَّما في توظيف السياق الاجتماعي الأوسع الذي يشمل به حداثة المدينة والثقافة والسياسة والاقتصاد والفلسفة والفن والحياة اليومية. إنَّ كّل هذه الحقول، التي تبدو مفترقة وغير منسجمة لا بالأسماء ولا بالتنفيذ والإدارة، تجتمع ضمن السياق الاجتماعي الثقافي مؤسِسة للعلاقات بين هذه الحقول، فالشعَريَّة ليست اللّغة التي تكتب بها القصيدة، وليست هي الترنيمات العاطفية التي يتقبل القارئ بها هذه القصيدة أو تلك، كما أنها ليست الخطاب الإيديولوجي المعبر عن إيديولوجية جهة ما، إنّما هي فكرة للحداثة تمهد الإندماج الإنساني بالمكّون الكّلي للمدينة والمجتمع والفلسفة والثقافة، كي تكون الشعريّة مقبولة كجزء من حركة تنويرية وفكرية شاملة. هذه الأرضية التي توفرها الاجتماعية للشعرية؛ هي مدار تصور فلسفي عميق، لا يخلو أي مجتمع منها مهما كانت درجات حداثته.

من هنا، عندما نكتب عن شعريَّة هاشم شفيق، علينا أن نخرج عن الشاعر وعن القصائد التي يكتبها، ونذهب إلى من يكوّن هذه الشعرية، أي إلى العقل الذي لا يصنع الأحلام كما يقول باشلار، بل يصنع المخيلة النشطة التي تدمج كلية العالم وتطويها في اللغة، كانت مهمة قوالب النَّقد القديمة الربط الميكانيكي بين ما تقوله القصائد وما يحدث في المجتمع، أو الربط بين المدارس النقدية ولي القصيدة لمنحاها، دون أن تمّر العمليَّة النقديَّة بسلسلة من وعي الظواهر التي تشكل القصيدة، ومهما كانت شعريَّة القصيدة مقبولة وجيدة فهي لا تصل بالعلاقة مع المجتمع إلى بناء فلسفة ثقافية لفهمه،

ومن هنا أيضًا لا أرى أية قراءة إلّا ضمن هذا التداخل بين القصائد والمجتمع بكل مستويات حضورهما وتشعباتهما، فعلاقة الشعر بالمجتمع لا تأخذ في الشعر طابع الانعكاس لقضاياه، ولا التمثيل للوقائع والأشخاص عن طريق المرايا والأقنعة، ولا لجعل الذات مركزًا بدلًا عن المجتمع، ولا لجعل النّص وحده الضوء الذي يكشف ما يحدث، فمثل هذا التصورات النقديَّة فرضت طرائق تلقي قديمة، من نتائجها أنَّها حجمَّت الشعرية عن أن تكون جزءًا من بنية الحداثة، وجعلتها مجهودًا لأفراد متميزين. إنَّ ما يحدث في المجتمع لا علاقة له بما يحدث في القصيدة، ـ "الواقعة المتخيلة أهم من الواقعة الواقعية" وأحداث المجتمع وقائع طبيعية،وليست وقائع شعرية، بينما أحداث القصيدة المتخيلة هي بنى فنيَّة تمثيلية عمّا يحدث لإنسان المجتمع، إنَّ ما يحدث في القصيدة يتعلق بما يعمّق حضور الشعريَّة اجتماعيًا، عندما تكون الصور المتخيلة طريقة لفهم ما يحدث في المجتمع، فالقصيدة هي البنية المضمرة في الشعريّة الواقعية، وليست في الوقائع، القصيدة هي النّصية التي تؤول الوقائع إلى حلم يقظة كوني، هي الأدبية التي لا تنتج في أي مكان آخر غير الأدب وهو يعيد تشكيل الوقائع بطريقة جمالية، إنَّ ما يُفَعّلْ القصيدة هو اللّهجة الاجتماعية للشعريَّة، التي يشترك في بنائها مجموعات الناس الفاعلين، خاصة المجموعات المنتجة للمعرفة، فهذه اللّهجة هي التي تخلّص القصيدة من إحالاتها الساذجة على ما حدث أو يحدث في الواقع، كي تجعل منها لّغة تدخل ميادين أوسع من زمنها الإنتاجي، ميادين التفلسف والاحتمالية والكونية والإيهامية، وهو الأمر الذي أدى بالشعريَّة لأن تتصل بأنساق فلسفيَّة أوسع من كلماتها المقروءة.

إن الحقل الاجتماعي المؤسس للشعريَّة وحده الذي يصوغ القصائد بمبادئ كليَّة، قد لا تفهم قصيدة الشاعر آنيا، فالكثير من المبادئ الاجتماعية الكلّية غامض وغير مكتمل، ولكنها تؤشر إلى مناخ لا يظهر في القصائد التي تتعامل بطريقة الانعكاس المباشر مع الواقع، لقد خلخل تداول وإنتاج الرأس المال، والتطور التقني الاجتماعي، وطرائق التربية والتعليم، وتنوع وتداخل الثقافة والفنون، إضافة إلى دور الجامعات الفاعل وغيرها، لغة الأرضية الاجتماعية لإنتاج ثقافة كليّة وكونيَّة كانت لغتها السابقة واضحة ومباشرة، أما الآن فلغتها مغطاة بأفعال وقوى فلسفية رأسمالية وإيديولوجية مقنعة بأحدث الأقنعة والمرايا المعاصرة، فالواقع اليوم ليس كما كان في زمن قصيدة حركة الحداثة الشعرية الأولى عندنا. لذلك لا أحد يكتب قصيدة السياب ثانية ولا البريكان، ولا نازك ولا الجواهري، فتلك القصائد استوعبت قوى مرحلتها، بينما المراحل اللاحقة تداخل في تكوينها المحلي المغرب والعالمي المعولم والاتصال المرقمن، وعلينا ان ندرك شعريا هذا العصف الفني والفكري المتداخل، ونجد ذلك واضحا عندما ندرس الأرضية الاجتماعية للأربعينيات من القرن الماضي والتي ظهرت فيها الحركة الأولى للحداثة الشعرية، كانت أنا الشاعر مركزا بؤريا للرحى الاجتماعية ضمن مركزية القوى الثورية، التي كانت تدير أوضاع المجتمع من حولها برؤية

الحداثة؛ خاصة وأنَّها مرحلة نهاية الحرب العالمية الثانية وما رافقها من نهوض ثوري، فمثل هذه المركزية لم تعد مؤثرة في سياقات القصيدة الحديثة حين تشبعت المجتمعات بسياقات حداثوية اقتصادية وسياسية مختلفة، فخلقت رؤاها ومراياها وأقنعتها ومستويات قولها الخاصة المختلفة عن مرحلة الأربعينيات، ومع هذا التردي السياسي خلقت القصيدة شعرية أعمق وأكثر جدليّة من شعرية قصيدة الحركة الأولى، التي كانت منسجمة وطروحات العقلية السائدة في رؤية مجتمع عربي وإسلامي لم يتحول للحداثة بحكم تمسكه بقيم الدين والقوالب السياسية والقومية، الأمر الذي أدى إلى تعطيل العقل العربي عن الحداثة، وهو ما شهدناه من انتكاسات لا حدّ لها.

وحين وجدت القصيدة الحديثة أنها ضمن سياق كوني غير منتظم ببلد أو بثقافة، ورؤية الأحداث برؤية متقطعة متغيرة، وتداخلت فيها الأصوات، وانصهر الزمن الذاتي بأزمنة كونية حديثة، وتعددت أمكنة بثّ القصيدة، وتبدلت الضمائر واستعار الشاعر مفاهيم حداثوية، آتية إليه من العمارة والتشكيل والموسيقى والسرد، أسست شعريَّة كونيّة معلنة عن حركة ثانيّة لقصيدة الحداثة الأولى. لذلك لم تجد القضايا الاجتماعيَّة القديمة صداها في القصائد الحديثة، ولعل هذا ما جعل قصيدة النثر وهي من أعمدة قصيدة الحركة الثانية للحداثة الشعريَّة ضعيفة وغير مؤثرة، لأن بنيتها تتصل بالسردية، وما تزال السردية متعلقة بأحداث الواقع المباشرة، فضعفت قصيدة النثر، لأنها لم تنتقل إلى ميدان الشعرية الحديثة التي لا تجد في أحداث الواقع إلا صورة أولية لكيمياء لغتها. كما كانت قصائد الحركة الأولى للحداثة الشعرية، عندما ابتعدت حركة ممنهجة عن واقعية شعرية القصيدة القديمة لالتصاقها المكيرفوني بأحداث المجتمع، لأن الشعريَّة الحديثة ذهبت مباشرة إلى جوهر الأشياء، إلى الفكرة المطلقة، إلى كينونة المصاهرة بين مكونات الفلسفة والوقائع المرئية بعين نقدية مطلقة، وأصبحت أية قضيَّة محليَّة بارتباطات أوسع من القول الشعري المباشر، كما استقرت البنيَّة الفضائيَّة للنَّص الشعري على أرضيّة عولمة الحداثة، وقوة الرأسمال، واتساع ميادين النَّقديَّة الفلسفيَّة، وتنوع المعارضة، واتسعت فلسفيًا التأويلات الرمزيَّة والاستعارية لصور القصيدة ولغتها، عندها وجدت القصيدة؛ أنها جزء من شعريّة كونيَّة تشمل فنون ومشيدات ثقافية وفضائية أخرى. فالشعريّة الاجتماعية الحديثة ابتعدت عن الشعريَّة الاجتماعية القديمة ابتعاد القصيدة عن أرضيتها السابقة، فكونت لها أرضيَّة جديدة بعيدة عن المراكز؛ حين اتخذت من الهوامش والمحدقات والشواذ والنوادر واليومي والمألوف أرضية جديدة لها تحرك صورا فأحالت القصيدة خارج محليتها، مما أعطت إشارات خفيَّة لامتدادها في جذور اللّغة الشعريَّة الكونيَّة.

وبما أن البنيّة الفنيّة الحديثة للشعريّة هي نتاج علاقات اجتماعية مركبة ومعقدة وغير مكشوفة للرؤية، ويحركها الاقتصاد والعولمة والاتصالات، وموت الأفكار الكلية، وجدت حرية في تعبيراتها بأشكال لغوية وفنية مغايرة لما كان سائدا

من طرائق اللّغة الشعريَّة القديمة. لقد أصبح فضاء الواقع الاجتماعي اليومي المندمج في الكلية الكونية هو الذي يوّلد لّغة الشعر، خاصة في اندماج طبقاته وتداخل ريفه بمدنه وتنوع إنتاجه، فخلق مجتمعا مغايرا للسياقات التي بنت عليها معظم النظريات الاقتصادية والسياسية السابقة تصوراتها الفلسفيّة والمنهجية. فمجتمع اليوم لا يُرى من خلال ما يحدث فيه فقط، ولا من خلال طبقاته المذوبّة بعضها في بعض، ولا من تشكيلاته الاقتصادية المختلطة، ولا من هوياته الممزقة، إنَّما يرى من خلال الاِختلاط الكوني الذي ضيّع الهويات المَحلية، وألغى الحدود واخترق اقتصاديات البلدان النامية وأسواقها البسيطة، ليبني أسواقا وتصورا كونيا يخلق ليس اللّغة الشعرية الجديدة فقط، إنَّما الإنسان المعولم، الإنسان المرقمن أيضًا. فكيف تكون الرؤية الاجتماعية من خلال القصائد التي تكتب عنه؟، الشعريّة لا تُرى إلّا من خلال الحفر المستمر في طبقات حداثتها ومرجعياتها غير المرئية، في تلك البنى اللاشعورية والمثيولوجية والخياليّة التي تؤسس الجذور الجينالوجية لها، فالشعريّة ليست بنيّة فوقية يمكن تكوينها من خلال وعي وممارسة الشعراء، إنَّما هي بنية عميقة بجذور ومفاهيم قديمة ولها تاريخ مؤسساتي. ونجد أبرز هذه الجذور في بنية الأسطورة التي كانت تعتمد على مثيولوجيا العلاقة بين البشر والآلهة، هذه العلاقة المبهمة والقوية حين هيمنت على بنية التفكير البدائي وجعلت الشعرية فيها القوة المبهمة للخطاب ونجد حضور الأسطورة كما يقول دوركهايمر وادرنو في أشكال وممارسات الحداثة وما بعد الحداثة، لأن التطور لا يلغي المكونات الأولى للثقافة، إنما يحجمها عندما لا تتطور والسياق الاجتماعي، ولا يخفيها إنما يدفع بها إلى الهوامش، ولذلك جاءت ما بعد الحداثة لتعيد للهامش والمهمل والثانوي دورا في رسم هوية المراكز وتفتيت قوى الهيمنة.

فالقصيدة عند هاشم تعبير عن اشتباك أزمنة المجتمع بأمكنته، بحيث لا ترى تواريخ محددة للقصائد تتحرك. ومن اشتباك الجذور المغذيّة لأيَّة ظاهرة اجتماعية معاصرة. ومهما قلنا، واتجه نزوعنا نحو التجديد والتطوير، تبقى تلك الجذور الجينالوجية مهيمنة سواء في الثقافة، أم في المجتمع، أم في السياسة، أم في نزعات التحديث، أم في التفكير الفلسفي، أم في المكونات المثيولوجية والدينية. وحتما سيكون تطور الشعريَّة عندنا بطيئا بفعل هذه الجينالوجيا المتحكمة على مفاعيل اللّغة والحياة الاجتماعية.

مرّتْ أعوام في المنفى
حين رجعتُ إلى الرؤيا
وسط زقاق الحيّ
وجدتُ يسوعَ جريحاً

ماذا يتصور هاشم شفيق؟ هل يريد ان تتغير النظرة الدينية المتخلفة للمسيح لأنه اغترب عن واقعه وعاش ثقافة مجتمعات متسامحة وأكثر حرية لاشك أن الرؤية قاصرة عندما تقف عند ميادين مباشرة، لكنها الشعرية وحدها التي تنقذ الشاعر من تصور ساذج كهذا، ان المسيح سيبقى يقل حتى في بلدان مسيحية، ويعني ان قتل المسيح في العراق هو قتل للإسلام أيضا، هذه

الصورة التي لم يفصح عنها قول هاشم المباشر استبطنتها القصدية.
وبما أن الحداثة فرضت نوعا من تغليب الجزئيات الواقعية على الرؤية الكليات للواقع، بدت الشعرية الحديثة مقطعية، وجزئية، ولقطات متداخلة وغير متسقة التدرج الزمني، وتعالج الحياة اليومية بنبرات مثيولوجية غائرة، ليس لأن هذا الميدان حديث وجديد، وفيه طاقة الابتكار والتجديد، إنّما اللجوء إليه بمثابة الخلاص الكشف عن هيمنة القوى الأصولية التي تنسب الشعر إلى الأسطورة والمثيولوجيا الدينية، والتركيبة القبلية وثوابت النص والالتزام بمهيمنات السردية المركزية، مسندة بموقف الدين الصريح من الشعر، فالنص الديني هو من يدعي الإرث الحقيقي لجينولوجيا اللغة والخيال. لذلك تنقذ الحداثة وتصورات المعرفة الفلسفية الشعر من ان يكون تابعا لثوابت صيانية قديمة. عندها أصبح الشاعر الحديث منخرطًا في موضوعات أقل اجتماعيَّة وثقافية. هكذا التزمت قصيدة الحركة الأولى للحداثة بشيء من هذا الإرث، لكن حركة المجتمع وتطور الثقافة وتجديد رؤية الشاعر أحدثت تطوراً فنيًا في القصيدة عندما تناولت موضوعات الطبقة والثورات والانتفاضات والإضرابات والذكريات والسجون والصراعات، كأوجه للحداثة الاجتماعية المغايرة لسياقات النقد القديمة، متخلية بوضوح عن مصادر وجذور البنية العقليَّة والثقافيّة العربيّة التي تحكمت بها مهيمنات قوية كالأسطورة والنص الديني. ما عادت الشعرية الحديثة خطابا جماهيريا، أو ميكرفونا لحالات اجتماعية، كما كانت في مرحلة سابقة بحيث عندما تسمع قصيدة عمودية خطابية، تعيد ضمنا تكوين القبيلة بطريقة لاشعورية، حين أسهمت الإيديولوجيات الساكنة والصيانية التي استثمرت الشعر خطابا ذاتيا وقبليا في إبقاء الشعرية ضمن منطق جذورها وأنسابها القديمة.

من هنا أصبحت حواف الموضوعات وهوامشهاً الصغيرة عينات شعرية مختبرية، أكثر حمولة للمعاني وأكثر تنوعا للأشكال، ووحدها تدلنا على كليّة الفكرة الاجتماعية وفنيتها. بالرغم من أن الشعريَّة بمفهوماتها الحديثة لم تستقر على توصيف دقيق بعد "إن الشعرية علم غير واثق من موضوعه إلى حدٍ بعيد، ومعاييرُ تعريفها هي إلى حد ما غيرٍ متجانسة، وأحيانًا غير يقينية، ومن ثم فإن اعتبار وإعادة إعتبار التحديدات والتقسيمات المتتالية، طوال التاريخ، للحقل الأدبي، يجعلنا مُنقادين ثانية إلى التساؤل المثير الذي كان وضعه رُومان ياكوبسون منذ عهد قريب في صلب كل شعرية، وهو: في أي شيء تنحصر أدبية الأدب؟ ليس هناك بحث عديم الفائدة، فهو يساعدنا على الأقل في ضبط مصطلحاتنا، إن هُوَ لم يساعدنا في الجواب عن هذا التساؤل."(13) .

أين يقف الشاعر هاشم شفيق إزاء هذه التحولات في الموضوع الاجتماعي وفي بنيّة الفنيَّة؟ من يتتبع طريقة هاشم شفيق الشعريَّة يجدها تحمل الاثنين معا: رؤية اجتماعيَّة منفتحة على الهوامش والشظايا والمتروكات، وهي ما تشكّل قاع المجتمع العراقي، ورؤية فنيَّة منفذة بأدوات تجمع بين اللّغة التقليديَّة واللّغة المحملة بالمؤول، فالقصيدة عند

هاشم اختبار لمعنى وجود هذه الظاهرة الجزئيَّة أو تلك. وخلال مسيرته الشعريَّة لم يترك ناس الحواف والهوامش وقضاياهم اليوميَّة، بل تتبع مسارهم عبر تغيّر الأزمنَّة والأمكنَّة لهم وله، وكأن القصيدة الحبل السري الذي يربط هاشم أينّما رحل ناسه الشعبيون. فكانت القصيّدة دالة على القضايا الاجتماعية الأكثر اهتماما، وعلى الفنيّة الجديدة الناميّة اللّغة والصورة.

لاشك أن الشعريَّة العراقيَّة مرّت بمثل هذه المنعطفات، وتجاوز بعض الشعراء الوقوع المستمر في المواقف التقليديّة المهيمنّة لعقود على الأداء الشعريّ، حتى وبعد أن بدأت قصيدة الحركة الأولى للحداثة الشعريَّة في الوجود والتأثير والانتشار. ولكن ليس كّل نقلّة قدم خارج حركة الحداثة الأولى تُعدّ نقلّة فنيّة جديدة لها، ولا كلّ من عزل نفسه عن تياراتها بقي مؤتمنا على سياقات الشعريَّة الجديدة، وهكذا تجد القصيّدة الجيدة مراوحة بين البقاء ضمن قيودها القديمة أو التحرر الجزئي منها. وإلى أن حلّت قصيدة النثر كطريقة شعرية حديثة، بدأت نقلّة جديدة في القصيدة مظهرها التحرري الشكلي من تلك الرابطة الاجتماعية، هذه المراوحة المتطلّعة للأمام أو الباقية ضمن مدار رؤيتها القديمة أو تلك التي لم تتطور ولم تواكب الحداثة بكامل أفقها، احتوتها الشعريَّة العراقيَّة كلها.

الشاعر هاشم شفيق وبحكم أنَّه بقي لفترات طويلة منزويًا عن أيَّة انتمائيّة جماعيّة غير انتمائيته الفكرية للماركسية، شهدت قصيدته هذه التحولات، بداياتها كانت مرتبطة بالمهن وقضايا الفقراء والصناعيين والمنتوج الاجتماعي الشعبي، وكان لا يرى في التكوينات البشريَّة تلك غير يدها العاملة، فاختصر الإنسان فيها إلى جزئيِّة منه: العامل والخياط والزارع والحائك والبستاني، ليس بفكره الطبقي، إنَّما بيده الصانعة لهويته، فاختصره إلى جزئيَّة منه، ولكّنه انتبه إلى أن مثل هذا المسار لن يؤدي به إلى نتائج شعريَّة مهمة، فأبقى في مرحلة لاحقة على انتمائية العامل المهنية فيه، ولكن هذه المرة ذهب إلى علاقات مهنته بالإنتاج وبتطور آلية السوق، وبتجديد لّغة العلاقة بين المهن وبتعدد رؤى الحدث، وبتلك الرغابات والأوضاع النفسيَّة والاهتمامات السياسيَّة الصغيرة التي تشكّل مائدة المتحلقيَّن في المقاهي والزوايا الشعبية، فصيّر شعريتَّه هذه المرة مصحوبة بطاقة التأمل والأفكار المستقبليَّة الصغيرة وأصبح ميدان لّغته أوسع من محدودية المهنة واليد، وتحولت مشاغله إلى ما يفكّر به البسطاء عميقا، وفي مرحلة ثالثة لاحقة، وبعد أن جرت عليه محن الأيام وتقلباتها، وجد ذاته موزعةً في كل صوت شعبي، وفي كل يدٍ وفكرة، فواكب حياة الجماعات الشعبية وأعمالها وطرق عيشها وتحولات تفكيرها وما عانته من الأنظمة ومن السياسات الهمجية، بمعنى أنَّه عاد إلى فئاته الاجتماعية التي ابتدأ معها الرحلة منذ السبعينيات، فشكلت العودة نقلة شعريَّة جديدة عندمّا صيّر موضوعاتها الصغيرة قضايا كبيرة، فاستوطنّها لّغة الحداثة، وعمَّق فيها رؤيته. لأن الشعريَّة أصبحت أداته الوحيدة التي يرى فيها ما يحدث لمجتمعه. لقد كانت نقلّة محملَّة برؤى

فكريَّة جديدة، وبطاقة تعبير فنية بمستويات دراميَّة وغنائيّة، وبقصديَّة إيديولوجيَّة أقوى من تلك التي كانت تملأ مساحات الرؤيَّة البصريَّة هتافا. وهذا يعني أنَّه لم يُصنَّف ضمن أية مجموعة غير تلك التي نشأت في ثقافة المعارضة السياسيّة والثقافيّة، لكل فهم تقليدي وقديم وجامد. ويمكن عدّه مع قليل من الشعراء الذين تمكنّوا بشعريتهم أن يقفوا في هذه الموضعة غير المنسجمة مع محيطها الاِجتماعي وينتجون شعرا جديدا. ومنهم الشعراء: هاشم شفيق، خليل الأسدي، مخلص خليل، حميد الخاقاني، مهدي محمد علي، حسين عبد اللطيف، رعد عبد القادر، محمد تركي النصار، خليل المعاضيدي، مصطفى عبد الله، وهادي الربيعي، وعدد آخر لم تحضرني أسماؤهم الآن، أعني ثمَّة كوكبة غير منسجمة سياسيّا ولكّنها لا تنفصل عن كل التيارات الإيديولوجية التقدميَّة السائدة، وكان عليها أنْ تتمسك بهذه الموضعة القلقة ليباشروا رؤيتهم عبر التصاقهم وتبنيهم أفكارا أكثر حريَّة.

سيكون هاشم شفيق دائما في المنطقة المتأرجحة بين شاعريّة متميزة خاصة لا يدانيها أحد، وشاعريَّة اجتماعيّة خلفيتها بأرضية ماركسيّة التوجه والنزعات، وهذه منطقة صعبة لا تشكّل بنيتها تميزا كبيرا له، لذا، فهو لم يعدْ يرى القضايا الاِجتماعيّة بالعين السياسيّة القديمة، كما لم يضع بعد ذلك عدسات مكبرة ليرى الأشياء الصغيرة ويعدّها كبيرة، إنّما اختزل كل ذلك بأنْ جعل من قصيدته مجسا فنيا، أدواتها مغايرة للأدوات القديمة، ورؤيتها أبعد من الحدث الذي يتناوله، إنّه يدخل من الجزئيّ إلى الكليّ، ومن الموضوع الذاتي/ الاِجتماعي إلى ما يشكّل بحثًا في آليات ومصادر الحدث. لذلك فهو عجّان الأحداث، وليس آكلا لخبزها فقط.

تقوم القصيدة من غبش الذاكرةْ
تترجّلُ،
تهبط سلّمها...،
وتجلس تحت المطر
وتدخل مثلي رقيقة
وتخرج مثلي إلى معمل في الضواحي.

واسط
(حين تصبح الذكرى حجراً يدقّ باب القلب)

د.علي حداد

ولد في واسط عام 1955. نال الدكتوراه في الأدب الحديث ونقده عام 1990، وحصل على لقب الأستاذية عام 2001. عضو اتحاد الأدباء والكتاب في العراق، عضو اتحاد الكتاب العرب في سوريا، وعضو شرف اتحاد الأدباء والكتاب في اليمن.
عمل تدريسياً في جامعة بغداد وجامعتي إب وصنعاء في اليمن. يعمل حالياً استاذاً في مركز إحياء التراث العلمي العربي بجامعة بغداد، ويتولى رئاسة تحرير مجلته. صدر له أكثر من ثلاثة عشر كتاباً في الدراسات الأدبية والنقدية، فضلاً عن ثلاثة دواوين شعرية ومجموعة من نصوص المونودراما.
أسندت اليه مؤخرا رئاسة تحرير مجلة (المورد) التي تصدر عن دار الشؤون الثقافية.

أقول اسمها ...
فيصحو بمعجمها
الوعد، والأمس، والسحنة القروية ،
والطالعون
إلى حيث شاءت لهم ريح أقدارهم

* * *

و... واسط أمّ لنا
ولدتنا على طبق
من ترانيم فلاحة
علمتها المساءات
أن الطفولة رهن الحكايات،
فاعبر إلى ماء أيامها بالترانيم
تنثرها تحت أقدامها
لتجيء إليك ... كما تشتهي

* * *

لواسط ... أطيارها
ولواسط ... أسرارها
ولواسط ... أقدارها

* * *

لواسط ... أطيارها
كبرت تحت خفق جناحين
من طينها ... والسؤال :
طائر قصت الريح مئذنة البوح
من خافقيه

فالتاذ بالأمس يسكنه حاضراً.
طائر مدّ فيض أمانيه
حتى احتوى وطناً كاملاً
وحين استبدت بمرآته
ضجة الرمل ... لم يحتمل
وغادر قبل الأوان .
طائر غردت بين أضلاعه
لغة من أسى
فاكتسى بالظنون
وطار بعيداً
إلى حيث لا عش يؤويه
غير شيخوخة باردهْ
ورغوة ما لم يعد ممكننا
أن تكاشفه الروح أسرارها.

* * *

لواسط ... أسرارها
سرها
في التراب الذي لن يغير ألوانه.
سرها
في الغياب الذي لا تجيد قراءته
لغة القادمين من المحو .
سرها
في الشباب الذين مشوا باكراً
نحو موت طريّ
سيصبح لازمة
لمواكب أيامنا القادمات .
ويوم تدلوا
وسال الهتاف النقي
على طول قاماتهم
استدارت مشانقهم نحو جلادهم
لتطارد تاريخه كله .
سرّها
في ثياب الصبي...
الصبي
الذي هصرته الأماسي
وهي تطرح أسئلة الظن
في وعيه المتأجج .
لتتركه
وهو منشغل باستعاراته
يتذكر خيط طفولته
ويرتق بعض تفاصيلها
على قارع من مباهجها .
كيف لا يحتمي باسمها؟؟
وليس له من ملاذ سواها

إذا ما استكانت حكايات أسلافه
جدّ مقرورة
لا من البرد
ولكنّ من جهل قارىء أحجارها
حين يخلط بين تضاريسها
وهي تدنو إليه مبللة بالوعود
وتاريخها
وهو يصفع ذاكرة الماء باللايقين
لتصحو على وقع مهمازه ...
كل أقدارها ؟

* * *

لواسط ... أقدارها
قدر
أن يمسد أحجارها بادعاءاته... الطاغيهْ .
قدر
أن يحطّ المسمى على ريشة فاتنهْ .
قدر
أن يحاورها الماء
كلما ركب النهر طيش الرحيل
أعادته إلى حجرها وادعاً.
قدر
أن يضرج ذيل عباءتها
بدم شاعر...اسمه (المتنبي)

* * *

يا مياه السنين التي ارتعشت
حين صار الزمان بياتاً
يخاتله العاشقون
فيلقون أحلامهم في خوافيْ
مواويلهم لاهثهْ .
يا غبار الدروب التي كشفت
عن تواطئنا ضد أقدامنا
يا حكايات أسلافنا ... أزلفت
دون أن نتدارك (ربّاطها(
كيف نمسك بالما تبقى لنا من يقين
ونعرف ماذا تبقى لنا ؟
...
...
حسناً
ستقول لنفسك :
هذا أنا ... وذي الأرض
حيث تنفست طين وجودك
فوق ثراها
وبين يديك تفاصيل ذاكرة
لم تزل توقظ السرد ـ سرد الطفولة ـ

فماذا تبقى إذن،
لكي يكمل الأمس غبطته ؟
ستقول ـ وأنت تشاكس صوتك ـ
سنحتاج أن يحضر الأهل
والأصدقاء ...الذين
مضوا في حديث الغياب إلى آخره
سنحتاج عطر الثياب التي يلبسون
ونحتاج بعض تفاصيل أفراحهم،
وهي تندس بين ثنايا الأسى .
ولابد من أن نعيد الطمأنينة
للطير، كي لا يطير بعيداً
وللشجر الألفة المستفيضة
بين المياه،
وهذا الغناء المندى بأطواره
ونحتاج كماً من المفردات
التي لم تلوث دلالتها بالحروب المجيدة،

ونحتاج ...
نحتاج ...
نحتاج ...
يااااه ...
كم سنحتاج من ذا
الذي لم يعد ممكناً
كي نرمم تلك الطفولة
لتحط على كتف واسط ...
أطيارها
وتعود لجرة واسط ...
أسرارها
وكما في الحكايات،
تبقى لواسط،
تبقى إلى آخر البوح ...
أقدارها

بغداد 7/ 10/ 2013

أمازالت .. هناك فرصة للحياة

ئاوات حسن أمين

مواليد السليمانية 1967 ، خريج جامعة الموصل ، كلية الادراة والاقتصاد عام 1991 ، شاعر ومترجم وصحفي ، يكتب منذ الثمانينات وينشر في الجرائد والمجلات الكردية والعربية ، له عشرون كتابا مطبوعا بين دواوين شعرية ومسرحيات شعرية وكتب للأطفال وأنطولوجيات شعرية ولقاءات صحفية . ترجم الى الكردية دواوين (كاظم السماوي ، د . خزعل الماجدي ، د . محمد حسين آل ياسين ، أمل الجبوري ، اسكندر حبش) ، ترجمت قصائده الى العربية والانجليزية والاسبانية ، وطبعت أعماله الشعرية الكاملة اكثر من مرة باللغتين الكردية والعربية في السليمانية وأربيل وبغداد ودمشق . ذكر اسمه ومنجزه الشعري في أكثر من أنطولوجيا شعرية مهمة لاسيما تلك التي أنجزها الناقد عبدالله طاهر البرزنجي وطبعت في بيروت . يعمل - حاليا - خبيرا في وزارة ثقافة الاقليم .

الى أن يستقر على
أسلاك كهرباء
عمود زقاقنا
عصفور .
الى أن على الشجرة القابعة
داخل الحديقة ،
هناك فرخ .. يزق زقا
الى أن وفي الصباح
الأطفال ..
وبملء حقائبهم ،
يتوجهون الى المدرسة .
الى أن سيارة بيع قنينة الغاز
تعزف موسيقاها .
الى أن جيراننا ..
يدق مسمارا على الجدار .
والى أن أنا أقوم
في الصباح ..
وأشتري أربع صمونات .
والى أن هناك في الغرفة
بصيص أمل
توزع .
والى أن يبقى فطورنا
لبنا .. مع قطعة رغيف ،
وبعدها ..

أذهب لركوب الباص
والتوجه الى مركز المدينة
وهناك .. أزور محل صاحبي
وهو منهمك في كنس الدكان .
وحتى أذهب الى مقهى (الشعب)
وبائع اللبلبي ..
يقوم بتهيئة اللفات للزبائن .
وحتى - أسطة عمر چايچي -
يسكب لي قدحا
في استكانة مزركشة .
وحتى الساعة العالقة على الجدار
تدق ...
وبعدها .. مع أصدقائي نجتمع
ونقوم بنزهة في حديقة عامة ..
وا حدا .. واحدا
أو ..
مثنى .. مثنى
نلتقط سيلفي .
وحتى الفتيات الفليپينيات
يدخنّ السيجار
ونحن ننظر لهن .
وحتى تماثيل الشعراء
يقفون لنا بخشوع ..!
وحتى النافورة تفور منها الماء
واطفال بائعي الچاي ..
والقهوة يصيحون :
چاي .. قهوة ..نسكافيه ..!
وحتى يكون هناك قدح سفري
نشرب فيه..
وبعدها نستقر على كرسي
ونتحدث عن القصيدة والسياسة .
وأكثرنا .. لا نعرف شيئا
عن الشعر والسياسة ...!!
وحتى الشرطة فارغو الجيوب ،
يحرسون الشوارع،
لكي لا يقوم ولد
بتقبيل فتاة..
في حين غفلة ..!
وحتى يتشح المدينة بالهموم
من وراء عدم صرف الرواتب .
وحتى تخجل الأشجار من الزوار .
من تعري فصل الخريف ..!
حتى اللحظة التى فيها الوطن

جوعان.

والنّاس تعساء .

والتجار .. ممتلئة بطونهم

والتلفزيونات تبث التعاسة .

والراتب نصف ..

وربع ..

ولاشيء ..!

الى اللحظة التي فيها هذه

الأشياء ..

ظاهرة ..

أما زالت هناك فرصة للحياة ..!

لكي يكون شاهداً

لحراك الناس ..

وحراك الشارع .

وإنبعاث القصيدة

وكتابة التأريخ ،

تأريخ .. يخجل من الماضي

ويبحث عن الأفق الآتي .

في الصحافة الثقافية العالمية

ترجمة: جودت جالي

مسرح:

القرد كثيف الشعر...
المزيج المتفجر للظلم والحرمان

إن مسرحية (القرد كثيف الشعر) التي كتبت عام 1922 نتاج من نتاجات المدرسة التعبيرية قصيرة العمر لما بعد الحرب العالمية الأولى، والتي اتصفت بقسوة التعابير والنقد اللاذع للمظالم الإجتماعية التي تمخضت عن فظائع الحرب. كان المسرحان الألماني والسوفييتي مبدعين في هذا النمط وسرعان ما قلدهما كتاب ومخرجون في البلدان الأخرى. أنتجت أولى مسرحيات يوجين أونيل عام 1916 إثناء صداقته مع الكاتب المعروف جون ريد مؤلف (عشرة أيام هزت العالم)، وحاز على جائزتي بوليتزر عن (ما بعد الأفق) 1920 و(آنا كريستي) 1922، ثم فاز بإثنتين أخريين، ثم بجائزة نوبل عام 1936. كتب أونيل بعد (القرد كثيف الشعر) مسرحية (رغبة تحت شجرة الدردار) 1924 وهي دراما عائلية ليست تعبيرية تعود بجذورها الى التراجيديا الإغريقية والكاتب السويدي أوغست سترندبيرغ.

مسرحية (القرد كثيف الشعر) انتقاد صارخ للفرق الشاسع في الثروة والسلطة حيث الرفاهية من نصيب الأقلية، والكدح المداف بالذل من نصيب الأكثرية. إن يانك (الممثل بيرتي كارفيل) هو الأكثر وعيا طبقيا من بين أقرانه ويعمل (عامل مجرفة الفحم) في غرفة المرجل في سفينة الركاب البخارية. تملك الفضول إبنة المالك التي كانت على ظهر السفينة لرؤية "كيف يعيش النصف الآخر". عندما نزلت الى غرفة المحركات وهي كالملاك في ردائها خالص البياض كما لو أنها تقصد حفلة حديقة، وسمعت حديث يانك الجلف الصريح فأرعبتها بهيميته. هذا الشخص المخيف الذي يقلق زملاءه من شدة عنفه ويجد نفسه منبوذا حيثما توجه، أضفى أونيل عليه "شعرية ضارية رثائية"، حسب تعبير المخرج اللامع ستيفن بيركوف، وهو يمثل "قلب الإنسان العامل" الذي لم يمس شغافه الحب، وسحقت إنسانيته حركات العمل الرتيبة

التي تشل العقل، وفي هذه النقطة سبقت مسرحية القرد كثيف الشعر مسرحية (الحاسبة) للكاتب (إلمر رايس) بسنة وفيلم شارلي شابلن (الأزمنة الحديثة) بأربع عشرة سنة.

جذبت المسرحية انتباه مكتب التحقيقات الفيدرالي ففتحوا ملفا لأونيل بإعتبار أن المسرحية "يمكن أن تخدم بسهولة الدعاية الراديكالية"، وحاول عمدة نيويورك منع الإنتاج خوفا من أن يثير نزاعات عمل وأعمال شغب حيث أن العشرينيات كانت زمنا صعبا بالنسبة للعمل في أميركا، وكان العمل النقابي موجها وضحية للمشاعر المعادية للمهاجرين، والحزب الشيوعي الفتي الملهم للأحداث في روسيا البلشفية قد تأسس للتو، والمزاج الوطني أسير "سياسة الرخاء" التي انتهت كما نعلم جميعا بانهيار 1929 الاقتصادي.

إن إنتاج مسرح (أوديسي) للمسرحية الآن يعبر عن قناعة بأن (القرد كثيف الشعر) رائعة من روائع القرن العشرين في المسرح الأميركي تكشف حقيقة مجتمعنا التى لا تزال راهنة./ يستمر العرض في مسرح أوديسي بلوس أنجيليس حتى 21 تشرين الثاني.

إريك غوردون/ بيبلز وورلد، جريدة الحزب الشيوعي الأميركي.

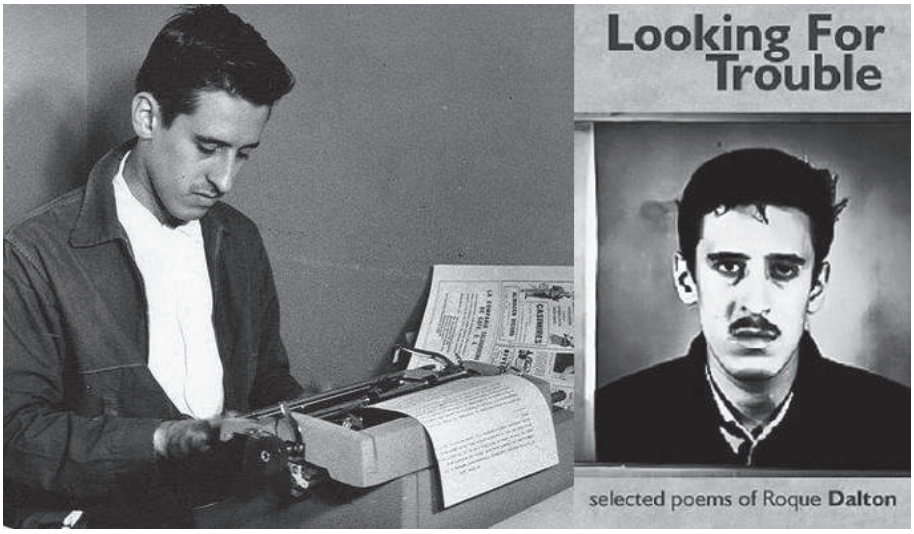

شعر:

كالخبز لكل الناس

صدرت مختارات شعرية للشاعر السلفادوري (روكي دالتون) بعنوان (البحث عن المتاعب) ترجمها الى الانكليزية ميشال بونكزا وجون غرين، وقدم لها روجر آتوود. كان روكي دالتون (1935-1975) رمزا من رموز حركة تحرير أميركا اللاتينية في القرن الماضي، وكان فدائيا-شاعرا واجه الموت متحديا عدة مرات، في الوقت الذي كانت فيه حياته عبارة عن تفاؤل ثوري: "أعتقد أن العالم جميل/والشعر، كالخبز، موجود فيه/ لكل الناس/وأن عروقي لا تنتهي في/بل في الدم المشترك/ للذين يقاتلون من أجل الحياة/ والحب، والأشياء/ والمنظر الطبيعي والخبز/الشعر لكل الناس". من الصعب علينا تصور أن صاحب هذه الكلمات لا تكون نهايته في مواجهة مع العدو بل إغتيالا على يد رفيق له، قيادي في منظمة ثورية سلفادورية، بعد خلافات عقائدية وانقسامات في القيادة وانتهى الأمر باتهام دالتون بالعمالة للولايات المتحدة ولكوبا معا.

ولد عام 1935 لأم ممرضة سلفادورية ومزارع لقصب السكر من الولايات المتحدة، وعاش مع أمه في حي للطبقة العاملة ودرس في مدرسة خاصة على نفقة والده. بعد دراسة القانون في شيلي عاد الى السلفادور حيث إنضم لمجموعة من الكتاب والفنانين أطلقت على نفسها (الجيل الملتزم). إنتمى دالتون الى الحزب الشيوعي السلفادوري وصدر أول حكم بإعدامه سنة 1960 لتنظيمه الطلبة والفلاحين ضد ملاكي الأراضي المحليين، ولكن حدث انقلاب في يوم التنفيذ فنجا من

الإعدام، كما نجا بإعجوبة مرة ثانية عام 1965 عندما ضربت هزة أرضية السجن الذي كان فيه. هرب الى جيكوسلوفاكيا وعمل في القسم الإسباني لطبعة (مجلة العالم الماركسي). غادر براغ قبل سقوط دوبشيك وتوجه الى هافانا ليعمل في التلفزيون والمسرح الكوبيين زمنا أصدر خلاله خمس مجاميع شعرية وكتبا أخرى وحصل على شهرة عالمية وحاز على جائزة مرموقة وكتب (حكايات ثومبلينا المحظورة). عاد الى السلفادور عام 1973 لينضم الى المقاومة السرية المسلحة (جيش الشعب الثوري)، ولكنه إختلف مع قيادته ما أدى الى إغتياله.

يُقرأ اليوم شعر دالتون جنبا الى جنب مع شعر شعراء حرب العصابات اللاتينيين الآخرين، ولقد قال: "ما هو الغرض/ من الشعر الثوري/ لصنع الشعراء/ أم لصنع الثورة؟". وعاش ومات من أجل قصيدة تُكتب في حب الشعب: "أولئك الذين يبادون وهم يعبرون الحدود/ أولئك الذين يموتون بالملاريا/ أو بسم العقرب أو لدغة الأفعى/ في جحيم مزارع الموز/ أولئك الذين يصرخون، ثملين، وهم يسمعون النشيد الوطني/ في أعاصير المحيط الهادي أو القمم المجللة بالثلج/ العالات، والمتسولون، والمدمنون على الماريجوانا/ الشعب الحزين، الأشد حزنا في العالم/ أبناء وطني/ أخوتي". في العام 2013 أعلنت السلفادور يوم مولده 14 أيار عيدا وطنيا للشعر وأصدرت طابعا يحمل صورته.

أندي كرافت/ جريدة "ذي مورننغ ستار" البريطانية الإشتراكية.

الكتاب:

Looking for Trouble (Smokestack Books)2016.Translated by Michal Boncza and John Green, with an introduction by Roger Atwood

سرد:

جراح الماضي لا تزال نابضة

لم تكن رواية (عن إخواننا المجروحين) على القائمة النهائية للمنافسة على جائزة غونكور الفرنسية أول الأمر، ولكنها فازت بها مع ذلك، فقد رشحها أحد أعضاء اللجنة في الأيام الأخيرة وإطلعت اللجنة عليها لتضاف الى الروايات الأربع المرشحة وفاجأت الأكاديمية الوسط الثقافي بالإعلان عن فوز كاتبها (جوزيف أندراس)، ثم جاءت المفاجأة الثانية سريعا عندما رفض أندراس الجائزة لأنه، كما عبّر في رسالة موجهة الى الأكاديمية، لا يؤمن بالتنافس في الكتابة والإبداع، ولم يحضر الى الحفل ولكن الناشرة حضرت لتمثل دار النشر. يبلغ أندراس من العمر 32 عاما ويعيش في نورماندي، ويميل الى الإبتعاد عن الأضواء حتى أن ناشرته لم تصرح بمعلومات كثيرة عنه.

تروي (عن إخواننا المجروحين) قصة فيرنان إفيتون، العامل الشاب المنتمي الى الحزب الشيوعي في الجزائر والمعادي للإستعمار والمرتبط بجبهة التحرير الوطنية الجزائرية، وهو

جوزيف أندراس وصورة غلاف كتابه (عن إخواننا المجروحين)

الأوربي الوحيد الذي أعدمته الحكومة الإستعمارية في الجزائر بتهمة الضلوع في عملية إرهابية عندما وضع قنبلة موقوتة لتنفجر في المعمل بعد الدوام قاصدا أن لا تكون سببا في قتل أحد، والواقع أنها لم تنفجر أصلا. ألقي القبض عليه يومها وحوكم أمام محكمة عسكرية وأعدم عام 1957 بالمقصلة. كانت كلماته الأخيرة قبيل إعدامه هي أن "المهم هو الجزائر ومستقبلها". تتحدث الرواية أيضا عن طفولة إفيتون وعن حبه للمرأة التي أصبحت زوجته ثم ما لبثت أن فقدته.

تربى إفيتون في الجزائر في حي تسكنه أغلبية مسلمة. أما هيلين فهي إبنة مزارع بولوني كان يرغب دائما بالعودة الى بلده ولكن لم يستطع، وفيما كان يتلقى العلاج من السل في فرنسا التقى إفيتون بهيلين. المؤرخ (جان- لوك إينودي) الذي كتب سيرة إفيتون قبل ثلاثين عاما واعتمد عليها أندراس بشكل أساس لكتابة روايته، كتب في جريدة ليبراسيون قائلا: "لقد تجاهلت فرنسا قضية إفيتون. المرأة العجوز التي توفيت عام 1998 وحملت معها الى قبرها صورة الرجل الذي كان حب حياتها. تلك المرأة كانت تدعى هيلين إفيتون".

أعادت الرواية رسم صورة إفيتون الإنسان وليس المناضل فقط، فيما أبرزت كبرياء هيلين إزاء ظلم السلطة الاستعمارية التي سجنتها فترة وإزاء التجاهل التاريخي والحيف الذي لحق بزوجها حيث وصمته وسائل الإعلام والحكومة الفرنسية بالخائن والإرهابي والمجرم، وهي رواية سياسية أيضا تسرد الماضي الاستعماري ونضال الأقليات التي ناضلت جنبا الى جنب مع العرب المسلمين من أجل استقلال الجزائر، وأزمة الموقف بالنسبة الى الحزب الشيوعي الجزائري بعد اندلاع الانتفاضة عام 1954، وانشقاق عدد من أعضائه لينضموا الى الثورة.

أما بالنسبة للحزب الشيوعي الفرنسي فقد كان تضامنه محدودا، ولم ينبر أحد للدفاع عن إفيتون إلا بعد صدور الحكم لكن كبار محاميي الحزب فشلوا في الحصول على عفو من رئاسة الجمهورية. الرواية لا تخضع مسألة أشكال الكفاح للنقاش بشكل صريح: يقف إفيتون مع استقلال الجزائر، ويدعم الكفاح المسلح الذي ينخرط فيه. مع ذلك فهو يرفض العنف الأعمى وقتل المدنيين الأبرياء، وهو هنا يختلف عن منفذي هجمات جبهة التحرير.

رافائيل ليريس/ جريدة "لو موند" الفرنسية

الكتاب:

De nos frères blessés, de Joseph Andras, ActesSud, 2016, 144 p.

ملصق فيلم (عين الإعصار)

سينما:

بطلة لا تستحق هذه النهاية

إن فيلم (عين الإعصار) للمخرج (سيكو تراوري) من بوركينا فاسو هو الفيلم الطويل الأول له الذي عرض في مهرجان (سيني بوركينا) العام الماضي وفي مهرجان دربان وفي مهرجان السينما الأفريقية وقد فاز بثلاث جوائز. ينتمي الفيلم الى نوع الدراما السينمائية ويبين مجمل العمل بأنه "في بلد أفريقي وقع فريسة الحرب الأهلية، تحاول محامية شابة أن تدافع عن أحد الذين أطلق عليهم وصف (الأطفال الجنود) يعني الذين جُندوا وهم أطفال، وهومتهم بجرائم حرب، ومن خلال ما تواجهه المحامية المؤمنة بالمثاليات والطفل الجندي السابق، يتجلى أمام أعيننا وجهان لأفريقيا اليوم".

ويمكن أن يربك المشاهد وهو يرى مقتل الشخصية الرئيسة، المحامية التي كافحت وواجهت كل انواع المصاعب لتنقذ موكلها من عقوبة الإعدام. إن سيناريو (لويس ماركيس) بحد ذاته جيد الصنع ويسمح بتفهم رسائل العمل السينمائي، ومع أن الفيلم طويل، 140 دقيقة، فلا وجود للملل فالحوار حيوي ولا يفتقر للفكاهة بين الحين والاخر، والصور قوية خصوصا باللقطات المقربة

لزيادة الشحنة العاطفية للممثلين أو الحالات. أما من ناحية الممثلين فقد حقق المخرج مأثرة ليس فقط أن يجمع في عمله ممثلين مجربين متحمسين بل الاستفادة من لعبة الصور الموحية، فبخلاف فيلم (عزرا) للمخرج نيوتن آدواكا الذي أخرج في فيلمه مشاهد عديدة للقتال والعنف إختار تراوري أن يظهر لقطات تدل على القتل والعنف ولا تجسده، كآثارهما مثلا.

لقد أجادت (ميمونة إنديي) دور المحامية كما أجاد موكلها (الممثل فارغاس آساندي)تجسيد الشخص الممتنع عن التواصل والكلام ولكنها استطاعت بذكاء أن تخرجه من صمته. لعب المخرج، وهو يكشف عن قساوة البنى الجزائية، على مسألة الإنارة والضوء في إخراجه باستفاضة ليشدد على معنى حرمان السجين من حريته والذي يقع في جلسات محاكمته ضحية لمصالح سلطات بلده العليا المتصارعة، ونعرف خلال أحداث الفيلم تورط والد المحامية في مذبحة السكان التي تجري محاولة محمومة ومهما يكن الثمن لتحميل السجين المسؤولية عنها. يبين هذا الفيلم أيضا الى أية درجة، وبرغم البشاعة، والصراعات والمساومات، يوجد رجال في السلك القضائي مستعدون لإحترام القانون.

استطاعت البطلة إنقاذ الطفل الجندي السابق من عقوبة الإعدام ولكنها لم تستطع إنقاذ نفسها من عنفه. إن فيلم سيكو تراوري مهم من نواح عديدة وبالذات من ناحية تصديه لتقديم العون للذين كابدوا محن الحرب وتورطوا فيها بسبب تعقيدات إجتماعية معينة، مع ذلك لا يمكننا إلا الاعتراض على النهاية المؤسفة التي لقيتها المحامية على يد من تطوعت لإنقاذه ويتبين للمشاهد أنه كان بحاجة الى طبيب نفسي أكثر من حاجته الى محام، ولا نملك إلا أن نردد في أنفسنا "لا تستحق هذه النهاية"!

سير باييم أويداراوغو/ مجلة "لوبسرفاتور" الفرنسية

في ذكرى إندلاع الحرب الأهلية الإسبانية قبل ثمانين عاما
ما الذي حدث؟

من أوائل ضحايا التمرد الفاشي، عدسة المصور أغوستي سينتيليس

شكل يوم 18 من شهر تموز 1936 بداية التمرد الفاشي العسكري الذي أدى الى الحرب الأهلية وأفضى من بعدها الى 38 عاما من حكم الديكتاتورية الوحشية الرجعية في إسبانيا. غادر ملك إسبانيا، ألفونسو، نحو المنفى في العام 1931 وأعلنت الجمهورية الإسبانية، تبع ذلك خمسة أعوام من الصراع على السلطة بين اليسار واليمين الى أن كسبت الجبهة الشعبية الإنتخابات البرلمانية في شباط 1936، وكانت الجبهة إئتلافا من 15 تنظيما يساريا وأحزاب وسط تضم إشتراكيين وشيوعيين وفالينسيين (نسبة الى منطقة) وغاليسيين (نسبة الى منطقة) وقوميين وديمقراطيين غير إشتراكيين.

بدأت حكومة الجبهة الشعبية التي ترأسها لفترة قصيرة (مانويل آثانيا) من الحزب الجمهوري اليساري المعتدل وخلفه (سانتياغو كاسيريس كيروغا)، المعتدل أيضا، تجري إصلاحات حذرة لقوانين حيازة الأرض، والعمل، ونظام التعليم والجيش، ولكن حتى هذه الإصلاحات المتواضعة كانت مثيرة لمخاوف الطبقة الإسبانية الحاكمة واليمين السياسي. لقد

شعرت الأرستقراطية الإقطاعية والكنيسة الرومانية الكاثوليكية وأصحاب المشاريع الكبيرة وضباط الجيش بأنهم مهددون بهذه الخطوات البسيطة نحو إسبانيا أكثر عدالة، وأثار رعب القوميين منح الحكومة الحكم الذاتي للكاتالونيين (نسبة الى منطقة) والباسكيين (نسبة الى منطقة).

لم يكن للأحزاب اليمينية من الأصوات ما يمكنها من دحر الجبهة الشعبية، فشرعت بحملة زعزعة إستقرار إسبانيا ولعبت تنظيمات الفالانج المتطرفة (الفالانج هي الكتائب الفاشية وعليها سمي حزب الكتائب اللبناني نفسه، إطلع على الحرب الأهلية اللبنانية – م) دورا أساسيا في هذه الزعزعة، وفي الوقت نفسه كان فقراء الفلاحين وقطاعات من الطبقة العاملة غير راضية عن بطء إصلاحات الحكومة، وقد تجلى إنعدام الرضا هذا أحيانا بأعمال عنف يقودها الفوضويون. فيما كان بعض القادة اليمينيين يخفون علاقاتهم مع الفاشيين ويعملون بهمة عالية لجمع شتاتهم ونسف حكومة الجبهة الشعبية بكل وسيلة، وكانوا يحتاجون الى شرارة لإشعال الفتيل، وجاءت الفرصة عندما قتل ضابطُ شرطة (خوزيه كالفو سوتيلو) قائدَ أقوى حركة يمينية في البرلمان الإسباني والتي تعمل على عودة الملك ألفونسو، وكان الضابط مستاءً لأن الفاشيين قتلوا زميلا له.

هكذا توحدت كل قوى اليمين لدعم تمرد عسكري. تزعم التمرد أربعة جنرالات هم خوزيه سانخورجو، وغونثالو كيبو، وفرانسسكو فرانكو، وإميليو مولا. تم تحريض وحدات من الجيش الإسباني في شمال أفريقيا، وقتلوا كل عسكري ومدني حاول إيقافهم، وتدبروا أمرهم للعبور سريعا الى البر الإسباني لينضموا الى الضباط المتمردين هناك والى الميليشيات التي نظمها الفالانجيون ومجاميع اليمين الأخرى. قُتل سانخورجو ومولا في حادث تحطم طائرة فأصبح فرانكو القائد.

بدأت حرب شعواء دامت حتى نيسان 1939، وفيما كان الفاشيون يتقدمون في المدن والقرى بصعوبة، وهم يواجهون مقاومة بطولية مستميتة، كانوا يقتلون كل من يشكون في كونه شيوعيا أو إشتراكيا أو فوضويا أو نقابيا أو يهوديا أو ناشطا إجتماعيا أو موظفا لحكومة الجبهة الشعبية، وأحيانا يكون القتل بأبشع طريقة يمكن أن تخطر على بالهم. لقد وثق (پول پيترسون) كل هذا بتفصيل مرعب في كتابه (الهولوكوست الإسباني: التحقيق والتصفية في إسبانيا القرن العشرين) 2012، وقد استمرت الإعدامات الجماعية حتى بعد الحرب وتلقى فرانكو وأعوانه دعما هائلا من هتلر وموسوليني، فيما تلقت الجمهورية الإسبانية الدعم فقط من الإتحاد السوفييتي وبقدر أقل من المكسيك، أما قادة ما تسمى بالدول الديمقراطية فقد كان في تغافلهم دعم كاف لنظام فرانكو.

بقي فرانكو في السلطة حتى وفاته في تشرين الثاني 1976 وخلال حكمه تم قمع النقابات والمثقفين والصحافة وداعمي حقوق الأقليات، خصوصا الكاتالونيين والباسكيين، وهذا لم يمنع قوى الناتو من الوقوف في صف النظام الفاشي، ففرانكو، بعد كل شيء، معاد للشيوعية. عندما مات فرانكو كانت تجري عملية دمقرطة جزئية ولكن الروح الفاشية القديمة بقيت في قطاعات من المجتمع الإسباني، فحزب الشعب الذي ينتمي اليه رئيس الوزراء الحالي (ماريانو راخوي) له علاقات مع

أيام فرانكو، وعمل بنشاط لوقف كل محاسبة على الجرائم التي أقترفت وحتى عارض فتح القبور الجماعية، لأن مؤسسي الحزب هم من الشخصيات السياسية لفترة فرانكو الأخيرة. لم تندمل جروح الحرب الأهلية وديكتاتورية فرانكو بعد، ولم تطل أية عقوبة أزلام الديكتاتورية من الذين لا زالوا أحياء، وفي حين أن الكنيسة الكاثوليكية قدمت إعتذارا الى الشعب عن الدور الذي لعبته في الحرب الأهلية لم يبد أحد من رجالات فرانكو أي ندم.

إيميل شيبرز/بيبلز وورلد، جريدة الحزب الشيوعي الأميركي

الأدباء غير الإسبان والحرب الإسبانية

توافد الى إسبانيا عند اندلاع الحرب، وخصوصا بعد مقتل الشاعر لوركا، الكثير من الكتاب والسينمائيين، غاية البعض كانت دعم الفاشية فيما جاء أغلبهم للتضامن مع الجمهورية والحريات. بالنسبة الى مثقفي العالم فإن أوان العمل قد حان. في فرنسا كانت الإستجابة الفورية من قبل عدد من المثقفين، فالشابة الأرستقراطية المثقفة، والفيلسوفة مستقبلا، سيمون ڤيل (1909-1943) التي لم تكن تعرف شيئا عن السلاح والقتال بادرت فورا الى الذهاب الى الجبهة في منطقة أراغون، وفيما كانت الحكومة الجمهورية تتحرك بطريقة مرتبكة لمواجهة فرانكو، تحدى أندريه مالرو المخاطر ليصل الى مدريد ويقابل الرئيس (مانويل آثانا) ويبدي له إستعداده لتشكيل سرب جوي مكوّن من متطوعين، وقد كتب فيما بعد عن سبب مبادرته هذه قائلا: "لأني كنت مقتنعا بأن مساعي العالم الكبرى ضد الحرية قد بدأت". نتجت عن تجربته على رأس هذا السرب واحدة من أعظم الروايات وهي (الأمل) أشبع فيها الرغبة التي تراود كل كاتب في التعبير عن الفعل الحقيقي.

البلد الأوربي الآخر الذي أثارت الحرب الإسبانية فيه إهتماما مباشرا هو بريطانيا. أوضح الشاعر ستيفن سبندر في مراسلاته قائلا:

"لم تنفعنا الجامعة سوى في الإلتقاء بأناس مثلنا يستبد بهم التعب والملل مع رغبة في التحول الى معارضين، ولكن معارضين لأي شيء؟ لكل شيء وللا شيء. دعونا أنفسنا بالشيوعيين ولكن كلامنا لم يكن سوى سفسطة، (.....)، حتى اليوم الذي اندلعت فيه حرب إسبانيا ففكرنا عندها بأن أفقنا أصبح مضاءً، وهكذا بدأ كل شيء".

كان يوجد من الإنكليز في الحرب الإسبانية 1300 مقاتل وفقا لما ذكره المؤرخ (هغ توماس)، وقد كتب الكتّاب الإنكليز ما بين العامين 1936 و 1939 حوالي 730 رواية ومجموعة شعرية وقصة صحفية، وفي الواقع فإن عددا من أعظم الشعراء الإنكليز المعاصرين قد إرتبطوا بهذه الحرب وفي طليعتهم (أودن) الذي دشنت قصيدته الطويلة (إسبانيا) المنشورة في العام 1937 بداية الشعر الإنكليزي الحديث، الملتزم والمقاتل. تبعه سبندر ولويس ماكنيس وروي كامبل (الذي إختار معسكر فرانكو!)، وكذلك جون كرونفورد وصديقه

لبت (سيمون فيل) نداء الضمير وحملت السلاح

ستيف نيلسون المفوض السياسي للواء إبراهام لنكولن كتب مذكراته عن الحرب

الأميركي أرنست همنغواي والسوفييتي إيليا إيهرينبرغ والألماني غوستاف ريغلر عند جبهة القتال

جوليان بيل الذي قتل وهو يقود سيارة إسعاف في معركة برونيت. من بين الروايات والوثائق والمذكرات التي طبعت خلال بداية الصراع يوجد الكثير بأقلام نسوية من بينها (عاصفة على إسبانيا) للكاتبة ميرين ميتشل وهي كاثوليكية آيرلندية مناصرة للحركة الإنفصالية الآيرلندية، و(نار على إسبانيا) للدوقة داتول وهي إرستقراطية تميل الى الشيوعيين، أما (موت في الفجر) و(السرير المطلي) لهيلين نيكلسون فهما مناصرتان تماما للفرانكويين، و(المؤلفون يختارون معسكرهم) لنانسي كونارد وهي مليونيرة مؤيدة للجمهوريين، و(راقصة في مدريد) لجانيت ريزنفيلد، وهذه الروايات كلها طبعت

أندريه مالرو أمام إحدى طائرات سربه المقاتل في الحرب الإسبانية

بين عامي 1937 و1939.
إن أفضل شهادتين هما (كانت الأوتار زائفة) 1966 للويس ماكنس الذي يعطينا رؤية دقيقة جدا ومعقدة لإسبانيا الممزقة، و(عالم داخل عالم) 1951، وهي مذكرات مثيرة كتبها ستيفن سبندر ويروي فيها كيف قضى فترة الحرب الإسبانية يبحث عن صديقه الفار من الفيلق الأممي. غير أنه مما لا يقبل النقاش أن الممثلين الأساسيين للأدب الإنكليزي اللذين إرتبطا بشكل حميم بالحرب الإسبانية هما أرثر كويستلر وجورج أورويل. غلف كويستلر شخصه بهالة خاصة وملغزة تخلق عند القارئ رغبة لا تقاوم في قراءة نصوصه، ويشكل مع إيليا إيهرنبرغ الثنائي الصحفي–الأدبي الأعظم في القرن العشرين. كان كويستلر هنغاريا يهوديا أرسله الى باريس الحزب الشيوعي السوفييتي، وذهب من باريس الى إسبانيا كصحفي من الناحية الرسمية، ولما تراجع الجمهوريون وهم يقاتلون الى ملقة بقي كويستلر دون مبرر واضح في مدينة أندلس حيث أصبح سجينا للفرانكويين، "سجين غاية في الخصوصية" حسب تعبير جنرال فاشي استخدم معه كل وسائل التعذيب لينتزع منه معلومات مفيدة. تدخلت الحكومة الإنكليزية وأخرجته من السجن وسط دهشة الجميع. من هذه التجربة ولد واحد من أشهر الأعمال عن هذا الصراع هو (العقد الإسباني) 1938. في هذا الكتاب يصف الحرب الإسبانية بأنها "حرب مصنوعة من مآس وليس من معارك". لكن كويستلر يقطع صلاته بالحزب الشيوعي وينقلب الى معاد للشيوعية ويكتب (ظلام في الظهيرة) 1940 الذي هو إعادة كتابة لكتابه (العقد الإسباني) وقد لاقى رواجا مثيرا في إسبانيا تحت حكم فرانكو.
إكتسب كتاب جورج أورويل (تحية الى كاتولونيا) 1938 أهمية متزايدة وقد اقتبسه المخرج كين لوش للفيلم الناجح (الأرض والحرية) 1995.
في الولايات المتحدة وجدت أخبار الحرب الإسبانية صدى عظيما لدى كتّاب مثل جون دوس باسوس وريتشارد رايت وجون شتاينبك، وكان أعضاء رابطة الكتاب الأميركيين في معظمهم مدافعين متحمسين

عن الجمهورية الإسبانية، وشجعوا عددا من مواطنيهم للتطوع في كتيبة لنكولن الأسطورية التي تكللت بالمجد في الجبهة.

أول رواية مكرسة كليا للصراع هي (حياة وموت مدينة إسبانية) لأليوت بول الذي باغتته الحرب أيضا كالكاتب الفرنسي جورج برنانوس وهو في إسبانيا وأرعبته قسوة الفاشيين نحو الفلاحين والصيادين.

برز روائيان لهما معرفة سابقة بإسبانيا هما جون دون باسوس وأرنست همنغواي الذي تعود علاقته بإسبانيا الى ما قبل 1926 حين نشر (والشمس تشرق أيضا) ونشر (موت في الظهيرة) 1931 ثم (لمن تقرع الأجراس) عن الحرب الأهلية. جاء كتاب آخرون الى إسبانيا نخص بالذكر منهم أوبتن سنكلير مؤلف (لن يمروا!) و(قصة عن معركة مدريد)، وجاء كذلك أبو الواقعية الأميركية ثيودور درايزر، بالإضافة الى أرسكين كالدويل ومالكوم كاولي، دون أن ننسى الشاعرين الشابين اللذين إشتركا في القتال وقتلا وهما (سام ليفنجر) و(جوزيف سيلجمان)، ومن بين الذين كتبوا مذكراتهم (ستيف نيلسون) و(جون غيتس) و(ساندر فوروس).

كان هناك أيضا (ألفاه بيسي) كاتب السيناريو الهوليوودي الكبير مؤلف النص النموذجي (رجال في المعركة)، ومن الكاتبات نذكر ليليان هيلمان والصحفية آنا سترونغ التي كتبت سيرة مثيرة للجدل. بعض الكتّاب ميزوا أنفسهم بموقفهم المناصر للفرانكوية مثل الكاثوليكي (هازل شولي) مؤلف (الليل يحل على إسبانيا) 1939 وروبيرت لاوري الذي كتب (دفاع في يونفرستي ستي) 1938 الذي أثار إطراءا متحمسا من قبل الشاعر عزرا باوند.

من بين الكتاب الروس ميخائيل كولتسوف وإيليا إيهرنبورغ الذي كان قد زار إسبانيا سابقا كصحفي وكان فيها عند إندلاع الحرب وكتب مذكرات قيمة.

بالنسبة الى الكتاب الألمان سواء كانوا شيوعيين مثل (لودفيج رين) أم يميلون الى الفاشية مثل (إرنست يونغر) فإن الحرب الإسبانية جهد عبثي لأن إسبانيا برأيهم فريسة للخراب ولا أمل فيها. أما الكاتب المسرحي اليساري الكبير المنفي في الولايات المتحدة (أرنست تولر) فقد انتحر وهو يرى لا أبالية الحكومة الأميركية إزاء التراجيديا الأوربية، وظل الكاتب المنفي الآخر (توماس مان) يحاول إقناع نفسه أن في أوربا يكمن رهان المستقبل الإنساني، وغادر ولداه الى إسبانيا ليكونا شاهدين على المأساة. تبنى الكتّاب الكاثوليك الألمان، مثل معظم أقرانهم الفرنسيين، وخلافا للمتوقع موقفا معاديا للفاشية جدا وكتبت جيرترود فون لو فورت (الأخيرة على منصة الإعدام) التي نقلها جورج بيرنانوس الى المسرح.

كتب المسرحي اليساري بيرتولد بريخت (بنادق الأم كرّار(Les Fusils de la mèreCarrar حيث ترفع كرار صوت الإدانة لنفاق وكذب الدول الديمقراطية. لكننا نرى إنعكاسا ضعيفا لهذه الحرب على الأدب الإيطالي في زمن موسوليني سوى ما كتبه بضعة كتاب من بينهم (ليوناردو سياسيا)، إلا أن كاتبا رأى في هذه الحرب نقطة تحول تاريخي هو إيليو فيتوريني في كتابه (حديث في صقلية) 1939 الذي شكل بداية للأدب الإيطالي لما بعد الحرب.

أخيرا نذكر اليوناني نيكوس كازانتزاكيس مؤلف (المسيح يصلب من جديد) والذي استمد من تجربته في إسبانيا دفاتر مذكرات.

إميليو سانث دي سوتو/جريدة لو موند دبلوماتيك

تصوير فوتوغرافي:

الكاميرا على دفاعات برشلونة

المصور آغوستي سينتيليس في العام 1937على الجبهة
يتحدث مع مقاتلة تريه إصابة في ساقها

في فجر يوم 19 تموز 1936 تسلل المتمردون أتباع فرانكو الى داخل برشلونة، وإذا كان الغرب الإسباني الذي يغلب عليه الطابع الريفي قد إصطف مع المتمردين القوميين فإن العاصمة الكاتالانية قاومت على غرار مدريد والمناطق الصناعية في الشرق.

استمع المصور الشاب آغوستي سينتيليس (1909-1985) في غرفته ببرشلونة من الراديو الى الأخبار في الصباح الباكر، وخرج ليكون من بين الأوائل الذين يشهدون المواجهات على متاريس مقاتلي النقابات أو الى جانب قوات الحرس الهجومية ووثق المعارك طوال يومين بكاميرا من نوع لايكا، ثم غادر ليغطي المعارك على الجبهة الشرقية قبل أن يعود الى برشلونة ليعمل بإمرة وزير الإعلام الجمهوري. بعد إنتصار قوات فرانكو سنة 1939 والذي شكل بداية الحكم الديكتاتوري اضطر المصور الصحفي الى الذهاب الى المنفى في فرنسا. غادر مع حقيبة مليئة بالكليشيات الفوتوغرافية الأصلية ولم يعد بها الى إسبانيا إلا في ربيع 1976 بعد موت الدكتاتور ببضعة أشهر.

الصور المرفقة هي من التي التقطها في اليومين الأولين للصراع
مجلة كوريه أنترناسيونال الفرنسية

الأبطال من الرجال والنساء الذين ضحوا بحياتهم دفاعا عن ثكنة مونتانا صبيحة 19 تموز 1936

متاريس المقاومة تنتشر في الشوارع والساحات

قوات الحرس الهجومية تحمي مركز الإتصالات

أفراد من قوات الحرس يصدون هجوما

المتطوعون والمتطوعات دفاعا عن الجمهورية

من أبطال الحرب الإسبانية الذين رحلوا عن عالمنا في السنوات الأخيرة

عندما التقط المصور خوان غوثمان هذه الصورة لمارينا جينيستا وهي تقوم بالحراسة على سطح فندق كولون الذي تحول الى مركز تطوع، كانت هي في السابعة عشرة من عمرها. ولدت في تولوز لأبوين إسبانيين وجاءت الى إسبانيا وهي في الحادية عشرة، وانتمت في كاتولونيا الى تنظيم الشبيبة الإشتراكية التابع للحزب الشيوعي الإسباني. عندما إندلعت الحرب أدت عدة مهمات كمراسلة وأحيانا مترجمة للصحفي السوفييتي ميخائيل كولتسوف.

جرحت في معارك بيرينيس أثناء التراجع وعولجت داخل فرنسا ولكنها هربت ما أن شفيت جراحها عندما تسلم نظام فيشي السلطة متوجهة الى المكسيك على ظهر سفينة غيرت مسارها الى جزيرة سان دومينك، وتوجب عليها مغادرتها أيضا سنة 1946 تحت تهديد نظام رافائيل تروخيللو راجعة الى إسبانيا وهي محمية هذه المرة بزواجها من دبلوماسي نرويجي. أقامت في الثمانينات في باريس ونشطت في منظمة العفو الدولية، توفيت يوم 6 كانون الثاني 2013.

جريدة "لو موند" الفرنسية

رحيل آخر المقاتلين

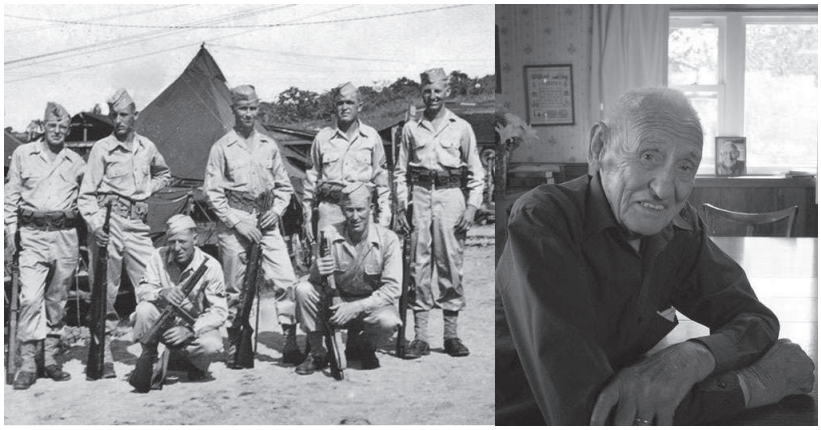

ديلمر بيرغ، وفي الصورة الثانية هو الواقف الى اليمين في معسكر التدريب بإسبانيا

توفي (ديلمر بيرغ) عن عمر ناهز 100 عام في آذار من هذا العام 2016 وكان أحد المتطوعين لمقاتلة فرانكو في الحرب الأهلية الإسبانية، ولم يتوقف حتى نهاية حياته عن القتال من أجل القضايا اليسارية ومن المرجح أنه كان آخر من بقي حيا من الذين تطوعوا في لواء إبراهام لنكولن.

لكن بيرغ كان من الممكن أن يموت قبل 77 عاما في إسبانيا عندما قُصف الدير الذي كان يقيم ورفاقه فيه فأصيب بشظية في كبده. هذه الشظية كانت لا تزال في كبده عندما توفي في بيته بكاليفورنيا. قال مرة: "لم أكن أعرف في السياسة شيئا. كنا مجرد صبيان. أردنا فعل شيء لمساعدة الشعب الإسباني". من بين 3000 شاب تطوع للقتال في اللواء فَقدَ 800 حياتهم دفاعا عن الجمهورية الإسبانية، وانتهت الحرب عام 1939 بانتصار فرانكو وبداية الفترة المظلمة. لم يركن بيرغ بعد عودته للولايات المتحدة الى حياة الدعة والطريقة الأميركية في الحياة بل تجند مباشرة في الجيش ولكنه سرح بسبب جروحه التي أصيب بها في الحرب الإسبانية التي شارك في معاركها الكبرى ومنها معركة إيبرو.

إنتمى الى الحزب الشيوعي، وكان على نهج المدرسة اليسارية القديمة التي يأتي مناضلوها ليس من دراسة النظرية بل من الحياة. عمل مساعد رئيس الفرع المحلي لجمعية تقدم الملونين وقيل أنه كان الرجل الأبيض الوحيد في الجمعية، وعمل في نقابة عمال الزراعة المتحدين، وشارك في الإحتجاجات ضد الأسلحة النووية وحرب فيتنام. خضعت عائلته في الخمسينيات الى تحقيقات العملاء الفيدراليين بخصوصه لأنهم لم يستطعوا الإستدلال على مكانه حتى انتهت الفترة المكارثية. قال في مقابلة مع "نيويورك تايمز" في العام الماضي : "يقلقني قليلا أن المرء في التاسعة والتسعين قد يموت في أية لحظة فأنا لدي الكثير من الأشياء التي أريد القيام بها".

ديفيد غريم/مجلة "ذي اتلانتك" الأميركية

شنكال.. عروس الغزوات

في الثالث من آب 2014، انقضّ الأوباش على سنجار وبعشيقة وبحزاني وقره قوش وبرطلة وسائر قرى وقصبات ومدائن سهل نينوى، فسبوا ثلاثة آلاف صبية وامرأة وما زال مصير غالبيتهن مجهولا، في حادثة تعدّ الأبشع في تاريخ الإنسانية اذ تباهى داعش ببيع النساء الايزيديات كالجواري في سوق النخاسة، في أكبر عملية استعباد جماعي.
لقد تم بيع النساء والفتيات مقابل 500 دولار واقل عن كل واحدة او وُزعن على "المجاهدين"، او أعطين هدايا للآخرين، ومنهن صغيرات لا تتجاوز أعمارهن الـ 12 أو 13 سنة، في انتهاكات تعدّ جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية وإبادة الجماعية، وكانت العائلات تنزح الى جبل شنكال على ارتفاع 1400م خوفاً من المجازر والتعذيب والقتل في مشاهد كالأفلام السينمائية، وكان يركض الآلاف حفاة هرباً من الارهابيين فارين من الجحيم الى المجهول.

المرشاوي.. يعزف بالحروف تقاسيمَ الوجع

صباح كنجي

تولد 1957 الموصل، عامل، لم يكمل دراسته الاعدادية بسبب الملاحقة الأمنية فالتحق بقوات الأنصار نهاية عام 1978.
نشر عام 1974 اول قصة للأطفال في جريدة "طريق الشعب" بعنوان (من يقتل الوحش؟)، شارك عام 1996 في اصدار مطبوع مشترك عنوانه (اناشيد الوطن والمنفى) عن دار البراق ـ دمشق، أصدر عام 1996كتابا بعنوان (دهاليز الموت ـ جولة في أروقة المعتقلات العراقية) عن دار بترا ـ دمشق وصدرت طبعته الثانية عام 2016 في المانيا، وله على شبكة الانترنيت كتاب نقدي بعنوان (آزاد سعيد ـ تخرصات باحث أم نفايات ارهاب؟).
سيصدر له قريباً كتابان: (حكايا الانصار والجيل) و(ببلوغرافيا الدم الشيوعي)، ويشتغل على مشروع توثيق جينوسايد سنجار وسهل نينوى.
غادر العراق عام 1996 الى سوريا ثم الى المانيا، يعمل عضوا نقابة عمال ألمانيا وناشطا في مجال حقوق الانسان.

الاهداء الى الصديق ابراهيم الخياط في لحظة تأمل للخلاص من وجع الدواعش

تقاسيم على مقام الوجع، عمل إبداعي مهم للكاتب حجي المرشاوي، يختصر الزمن وامتداده التاريخي ويحجم المكان بفضائه الشاسع اللامتناهي في بؤرة واحدة لا تتعدى حدود سنجار وما حدث فيها من تحولات "سياحية" دامية نجمت في برهة من الزمن الهمجي وترافقت مع دخول موجات من "السواح" الحاملين للرايات السود، الزاحفين مع خيوط الفجر ليوقظوا الكفرة النائمين فيها من الايزيديين المشركين بالله، ليدعونهم الى الدخول في دين الدواعش، يبدأ العبث، يتغير التاريخ، تنفصل حدود الزمن، تتراخى الفواصل، تتكسر، تتفكك قبل أن تنمحي في لحظة تزاحم واحتدام تلاقي خيوط ذلك الفجر المتداخل مع إرهاصات الشعاع اثناء ولوج الليل بالنهار في اليوم الثالث من آب 2014.

يبدأ الصخبُ، يختلط الحابل بالنابل، تمتزج الألوان، يصطبغ النهار بالأسود، الأسود يتقدم، يحاصر الأبيض، يطوقه، يهاجمه دون تأخير، لا طريق للخلاص والنجاة، الأديان تتقابل، يتعالى الصراخ، تشهر السيوف، يبدأ الذبح، ترتفع أصوات التكبير، يحضر الإله، إلهُ الموت، يهبط من علياء السماء، يدخل سيارة همر مدرعة، يرفرف فوق ماسورة مدفع، يكلل فوهة قناص داعشي قرر أن يتسلى في مروج سنجار وبساتينها باصطياد البشر الفارين للجبل، ومن نجا من صيد الدواعش تلقفه الموت بالجوع والعطش.

من هذا الهول وفي هذه الأجواء المحتدمة ورغم استمرار القنص المتداخل بشهقات الموت، يبدأ المرشاوي رصدهُ الإبداعي لحالة التحول المرافقة للحدث الكبير الذي تتسارع فيه خيوط الموت وتتسابق مع كل إطلاقة هاربة من ماسورة قناص أهوج وجهت لهدف تمكن من الافلات من نصل السيف، متسلقاً سفوح الجبل، يسابق رصاص القنص فأتته الشهقة، توقف ليسقي الصخور العطشى من شريانه قبل ان يلفظ أنفاسه الأخيرة متشبثاً بأعلى قمة استقر فيها، مكشوفاً بلا لحدٍ يدين من تواطأ مع الدواعش عبر فضاء لا حدود له ويعكس جوهر العلاقة بين الإنسان وحريته التي يسعى المتطرفون لإلغائها في كافة العصور.

من خلال (تقاسيم على مقام الوجع) وعبر مجموعة من الـ "الومضات" والقصص القصيرة جداً، يبدأ المرشاوي من سطور إهدائه المختزلة للآلام والجراح، وينبئك بحبكة فنية إبداعية تحاكي الحدث بأقل ما يمكن من الحروف، كأنه يلهث مع الضحايا المنكوبين المصدومين سطراً بعد آخر، فهو يحدثك عن الطفلة التي بقيت ترضع ثدي أمها الميتة بين صخور الجبل، وعن حالة طفل شهد فراق ذويه قتلاً وذبحاً، وعن المختطفات اللواتي دفعن الضريبة الأفظع في تاريخ البشرية، وعمن تصور ان هاتفه قد عطل لأن أولاده لم يتصلوا به.

ينتقل بك المرشاوي من قصة لأخرى لا تتجاوز بضع كلمات، ويسير بك بين الفواجع في درب الآلام ليريك الأفظع والأشنع من الحوادث التي تجسد أهوال الاستباحة والقهر والإذلال التي فاقت الخيال ويصعب إدراك المفاهيم والمبررات والمسببات التي أنتجت هذا

النمط من الوحوش المهاجمين ممن قرروا نشر الخراب والدمار في سنجار ولاحقوا الرضع والشيوخ والأطفال وسبوا النساء وأعادوا إحياء سوق النخاسة باسم الدين وبمباركة من إلهٍ معتوه يؤمنون به وببضعة تعاليم همجية تعيدهم لزمن الصحراء والغزو، فكانت الفاجعة، وكانت الكارثة القصوى التي حلت بالسنجاريين الذين تحول من نجا منهم من شبح الموت الى كائنات خرافية فزعة لا تتمكن من استيعاب وادراك ما حلّ بها ويصعب عليها التأقلم مع المحيط الذي نمت فيه الشرور ونبتت فيه الأحقاد وتجلت فيه الخيانة والغدر بأبشع صورها من أقرب الناس الذين يشاركونهم الحياة والجيرة ولكنهم انقلبوا مع وصول الدواعش الى اعداء يسفكون دماء جيرانهم، يسبون نساءهم، يستبيحون أعراضهم، يستعبدون أطفالهم، يذبحون رجالهم، يسرقون ممتلكاتهم ويتقاسمونها باسم الشريعة الهمجية مع غيلان من سفالة العالم فقد تجمعوا من مختلف البلدان والأصقاع ليشتركوا في جريمة العصر ويتفاخروا بالرذائل التي شكلت معيارهم اللا اخلاقي للوصول الى الفردوس حيث تنتظرهم "حوريات" الجنة بشبق حيواني محمل بأوهام الميثولوجيا وبمباركة الربّ الذي جعلوه مشاركاً في جرائمهم التي شرعنها سفهاء المنابر من دعاة سفك الدماء والفتك بالبشر.

لقد خلقوا اوضاعاً شاذة يصعب تجاوزها او نسيانها وتنبيء بعدم القدرة على استعادة الاوضاع الطبيعية واستحالة التكيف مع مستجداتها من قبل الذين نجوا من الموت وشهدوا التحولات والفظائع التي تفوق قدرة العقل والتي لا يستوعبها منطق ولكن فرضها عليهم حملة الرايات السود الذين اقتحموا ديارهم عنوة من أجل نشر الرذائل وليعودوا بهم لحقب ما قبل التاريخ وأوهامه عبر شرخ زمني يفصل الانسان عن حياته ويعمق من غربته ويزيد من شقائه وخوائه، ويفصله عن ذاته ويجعله جسداً بلا روح كي يَتقهقر، يَندحر، أو يصاب بالشلل والعطب.

لكنه يبقى حاملا لجذوة الانسانية التي ما زالت تنبض بعروقه، تتغذى من تجاربه وطقوسه الميثولوجيا وقدسية ضياء سراج زيت الزيتون في شرفدين ولالش التي تشعُ فتائله رغم المحنة، محنة الفرمانات التي تتكرر، وما زال يطعمها بقايا روحه المتخفية في حنايا وزوايا انكساراته المريرة في شواهد تعكس ديمومة النقاء وتتفجر في مواقف حرجة في مخيمات النازحين وقرى الجبل في مدن كردستان، وفي المدراس التي ينتسب اليها المرشاوي الذي كتب له النجاة من الموت وهجر هو الآخر دياره في بعشيقة وبحزاني ليواصل حياته مع النازحين الغاضبين في محيط لا يخلو من قواعد فكرية للدواعش تتربص بالنازحين وتسيء اليهم بالتلميح تارة وبالتهديد تارة أخرى فتتواصل المصائب بلا حياء مستهدفة النازحين "الضعفاء" أو من يعتقد انهم ضعفاء يمكن لوي ذراعهم وقهرهم بالمزيد من الضغط عليهم واستغلال أوضاعهم الإنسانية المزرية كتقديم المساعدات الإنسانية المغلفة بالدعوة للتبشير الديني الذي حاول استغلال الفرصة للوصول إليهم في الوقت الضائع من العبث بمقدراتهم ومستقبلهم.

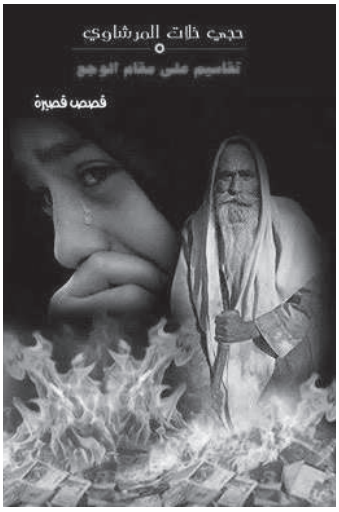

كما صورها بمرارة لاذعة في (تسويق الخديعة) التي تنتقد المؤسسات وهي تتخفى تحت يافطة المساعدات الانسانية لتستكمل الصورة، صورة المأساة بالمزيد من الضغط، ضغط هائل للمحيط السياسي والاجتماعي، عدم الاستقرار، تصاعد اغراءات السفر، الشعور بالغربة داخل الوطن، حيث لا احد يحميك في ظل دولة مفككة واحزاب متهرئة، يتفجر الاغتراب الروحي للنازحين، تتصاعد ردود الفعل.

لغة المرشاوي تبتعد عن الشكوى واجترار الألم غير المجدين، يبدأ النقد، النقد الساخر، السخرية تتعالى في (سلسلة احتجاج)، هذا هو العنوان الذي ثبته المرشاوي لاحتجاجات من بينها احتجاج سياسي في "ومضة" أدبية رائعة لا تتعدى ثماني كلمات تختصر المشهد السياسي المبتذل المنحط، في ومضة صادمة للوعي في مقارنة بين ما يحدث في سنجار وما حصل في تكريت بعد تحريرها من الدواعش حين تعالت أصوات نابحة تتباكى على ما حصل بتكريت بعد تحريرها من الدواعش وتدين سرق ثلاجة، (نحرٌ وسبيّ في سنجار بينما يدينُ سرقة ثلاجة).

بهذه الرؤية الساخرة يستوقفك المرشاوي لينبهك إلى ما هو اخطر من حالة التباكي على ثلاجة مسروقة، ينبهك لتدني الحال، لوضاعة التفكير، لعدم إدراك ما يحل بالوطن من خراب شامل باتت فيه القدرة على اجتراع الصبر غير مجدية، والقدرة على التكيف مع الظروف الجديدة التي فرضت على النازحين مستحيلة، استغلال لصوص السلطة لأوضاعهم، بؤسهم، المتاجرة بمستقبلهم، ضياع أحلامهم، مع عطل بوصلة الاتجاه واختفاء مؤشر التغيير، ففي ظل واقع اجتماعي مُدان متوتر يصعب ضبط الانفعالات الإنسانية الحساسة لعدم القدرة على التوجيه و الفعل ولتعرض الأهداف والمعتقدات للزوال والفناء مع صعوبة وجود افق مرئي.

تسعى الشخوص التي التقطها المرشاوي ليوظفها في "ومضاته" وقصصه القصيرة جداً بالغوص في اعماقها كاشفاً الكثير من مبررات تشبثها بماضيها وتاريخها وقدرة مفاهيمها في منحها الثبات وتوجيه السلوك الرافض للانكسار والهزيمة، متشبثة بالمعتقدات والأهداف التي ما زالت تصوغ قدرتها على مواجهة الظلم والتوحش وتبدأ من لحظة الهجوم مع قصة (أب حتى النهاية) التي تختزل جزء كبيراً من وجع السنجاريين وما حلّ بهم من خلال صورة أب داهمه الدواعش ولم يبق له مفر الاّ انْ يضحي بنفسه من أجل إنقاذ عائلته، ويقرر الثبات والمقاومة كي يمنح زوجته والبنات والأم وابنه الذي قاتل معه فرصة للهروب في زمن أصبحت فيه اللحظة تقرر إنْ كان ثمة فرصة للخلاص.

لا يملك الأب المنشغل بالتصدي للدواعش الفرصة في الوقت العصيب لـ (توديع افراد عائلته بنظرات تشي بألف معنى ومعنى) تذكرك بتوديع يوليوس فوجيك لزوجته في غرف تعذيب الفاشست لهما أيام الحرب العالمية الثانية حينما اضطرا لنكران احدهما الآخر(1)، وتذكرك كذلك بتوديع ابي سلوان لزوجته ام سلوان في معتقلات التعذيب البعثية(2)، وتذكرك بما كتبه كفاح كنجي عن الانفال(3) وعدم مقدرته على توديع أشقائه في لحظة الانفصال بسبب حوم الهليكوبتر فوقهم.

القصة رغم محدودية كلماتها هي عمل إبداعي يتحدى ويتجاوز في المضمون ما يحتويه سردها في بضعة ايحاءات من نبل وشهامة، تضحية وقدرة على تجاوز الخوف، الرعب، رفض الذل، هي في ذات المعيار انجاز إنساني ثوري أنقذ عائلة مهددة بالأسر والاستعباد والاغتصاب والقتل، وتؤشر على قدرة المرشاوي في صياغة مضمون إنساني عميق لروحية أبّ في زمن الفجيعة تحول إلى أمثولة وأيقونة في الصمود وجعل من المهاجمين الدواعش مسخرة.

هذا ما تجلى في بقية الصفحات ايضاً، حيث لا تخلو قصصه القصيرة جداً من هذا المحتوى وهذه المقارنة فما بالك اقتناصه لومضة بين الموت والموت عندما لا يكون من حقك ان تختار بين الحياة والموت بل بين الموت والموت، كما حدث في (آخر أنفاسه) مع الأم التي فرض عليها الدواعش أن تختار بين رمي رضيعها في النهر أو قتل بقية أفراد أسرتها أو أن تحدد عدد الاطلاقات التي ستخترق رأس ابنها، يا لها من حكايا تعكس خرافة ما حدث في سنجار وصعوبة ما يمكن أنْ تثبته في النص ليستوعبه العقل، أيّ عقل يتقبل ويستوعب الذي حدث مع الأم التي بقيت وحيدة تجتر مأساتها في خيمة من خيام النازحين؟!.

لا يكتفي المرشاوي بهذا الحد، لا يكتفي بتصوير وإعادة تصوير الواقع كشاهد حيادي فهو ليس مصوراً وكاتباً هاوياً يبغي الإثارة ويعشق التدوين بل هو مُضْطَهَد متهم بالكفر، وهو هدف من بين آلاف الأهداف التي هاجمها الدواعش ومطلوب منه كالآخرين التنازل عن معتقداته وأفكاره والدخول في سرب "السواح" من الإرهابيين، أصبح نازحاً وملاحقاً يتجرع المزيد من الهموم في زمن سياحة الإرهاب وتفشيه، وثمة من تواطأ معهم وسهّل نجاح مخططاتهم وما زال يتحكمُ بأوضاع النازحين الفارين من

الدواعش ويلاحقهم من خلال مفاهيمه وأفكاره ويتاجر بمصيرهم ومستقبلهم.
سجل المرشاوي رسائل ساخرة بحقهم في قصصه، رسائل وجهت بدقة سهام نقدها اللاذع للهدف بأقل ما يمكن من الكلمات كما كثفها في (قلت وقال) التي غاص عبر كلماتها في أعماق النازحين واستجلي المخفي من حسراتهم ومراراتهم وآلامهم الدفينة ليفجرها بوجه من سعى لاستغلالهم وإذلالهم في مواقف درامية تعكس رغبة الإنسان العاشق للحرية بالاحتفاظ ببقايا روحه المجروحة ورفضه الانكسار والخنوع وتحكمه بإرادته التي يسعى من خلالها لاستعادة كرامته المهدورة متطلعاً عبر فضاءات الأمل للعودة إلى ملاعب الصبا وأزقة و درابين البيوت المهجورة التي جسدتها رغبة طفلته وإصرارها على طلب العودة الى (بحزاني) التي استباحها الدواعش.
وهكذا الحال مع بقية القصص في (تقاسيم على مقام الوجع) للعازف المبدع حجي المرشاوي الذي برع في عزفه على وتر الحروف، وقدّم لنا من خلالها هذه المعزوفة التي تشدّ من إزرنا وتدفعنا للتشبث بأحلامنا الإنسانية في هذا الزمن الذي يشهد مظالم وفواحش الدواعش وسعيهم لإحياء التوحش تحت ستار الدين.

منتصف أيار 2016

- اعتمدت في كتابة النص على النسخة الإلكترونية المرسلة للطبع بداية عام ٢٠١٦.

١- تحت أعواد المشانق، يوميات الشاعر التشيكي يوليوس فوتشيك في معتقلات النازية، ترجمة: مصطفى عبود، وتقديم: فخري كريم، بغداد: دار الرواد ١٩٧٨.

٢- دهاليز الموت، رحلة في أعماق المعتقلات العراقية، صباح كنجي.

٣- راجع ما كتبه كفاح كنجي بعنوان "صور ما قبل الأنفال"، الحلقة الخامسة في الحوار المتمدن.

مطبوعات وصلتنا :

• د.صالح ياسر حسن، الخصخصة و"الاصلاحات الاقتصادية" بين خيبات العقيدة ورهانات الواقع- محاولة في نقد الخطاب والممارسة، دار الرواد المزدهرة، بغداد 2016.

• رضا الظاهر، اقتحام السماء، تأملات في الحراك الشعبي - دار الرواد المزدهرة، بغداد 2016.

• د. حمدي التكمجي، محمد صالح عبلي والانقلاب البعثي في شباط 1963 - عمان 2015.

• د. هاشم نعمة فياض، نيجيريا: دراسة في المكونات الاجتماعية - الاقتصادية، الدوحة، بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2016.

• علي محسن "ضحى المرجة" شعر - من اصدارات اتحاد الادباء والكتاب في البصرة دار الروسم - الطبعة الاولى، بغداد، 2016.